التدبر والبيان

في

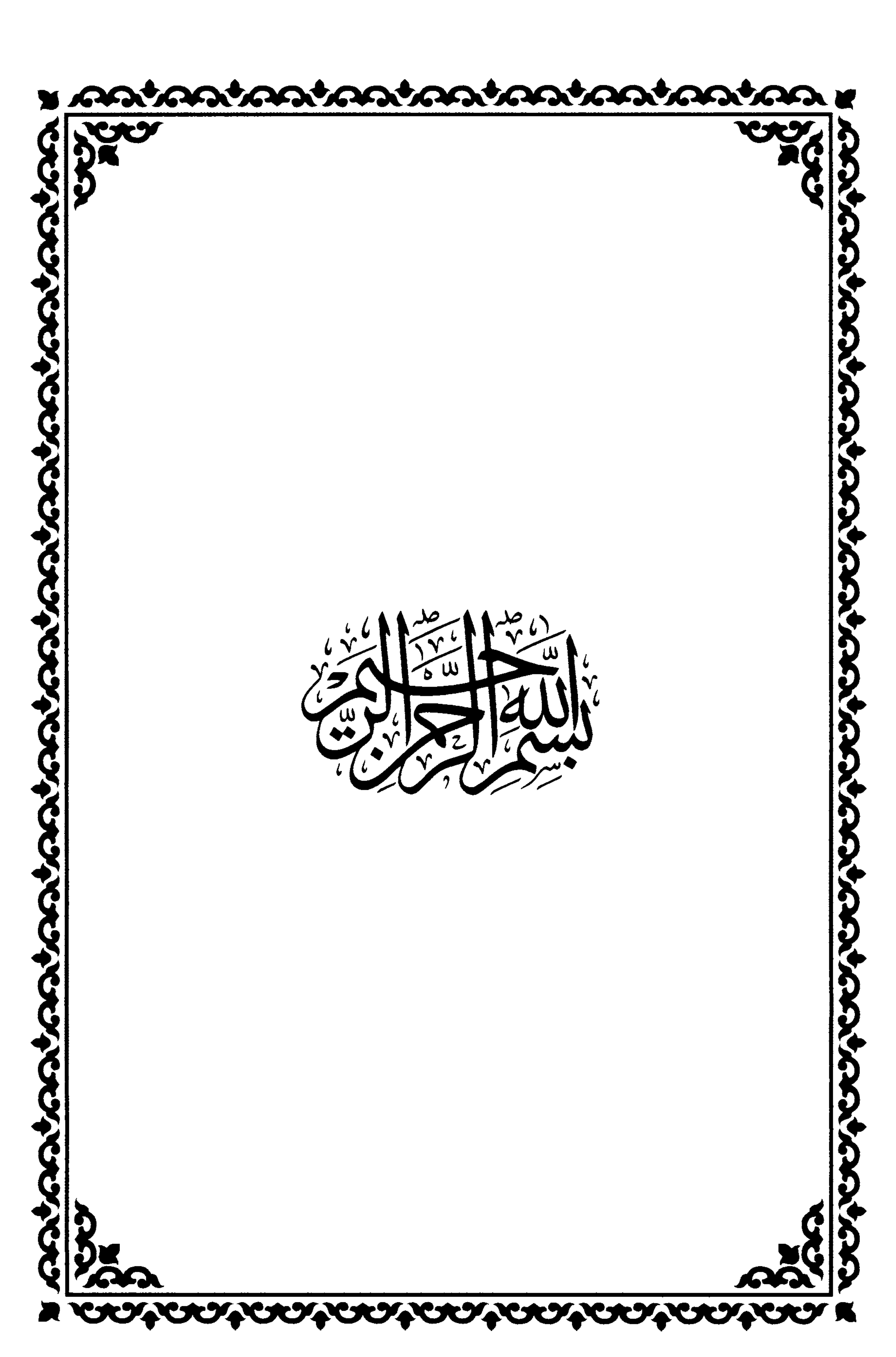
تفسير القرآن بصحيح السنن

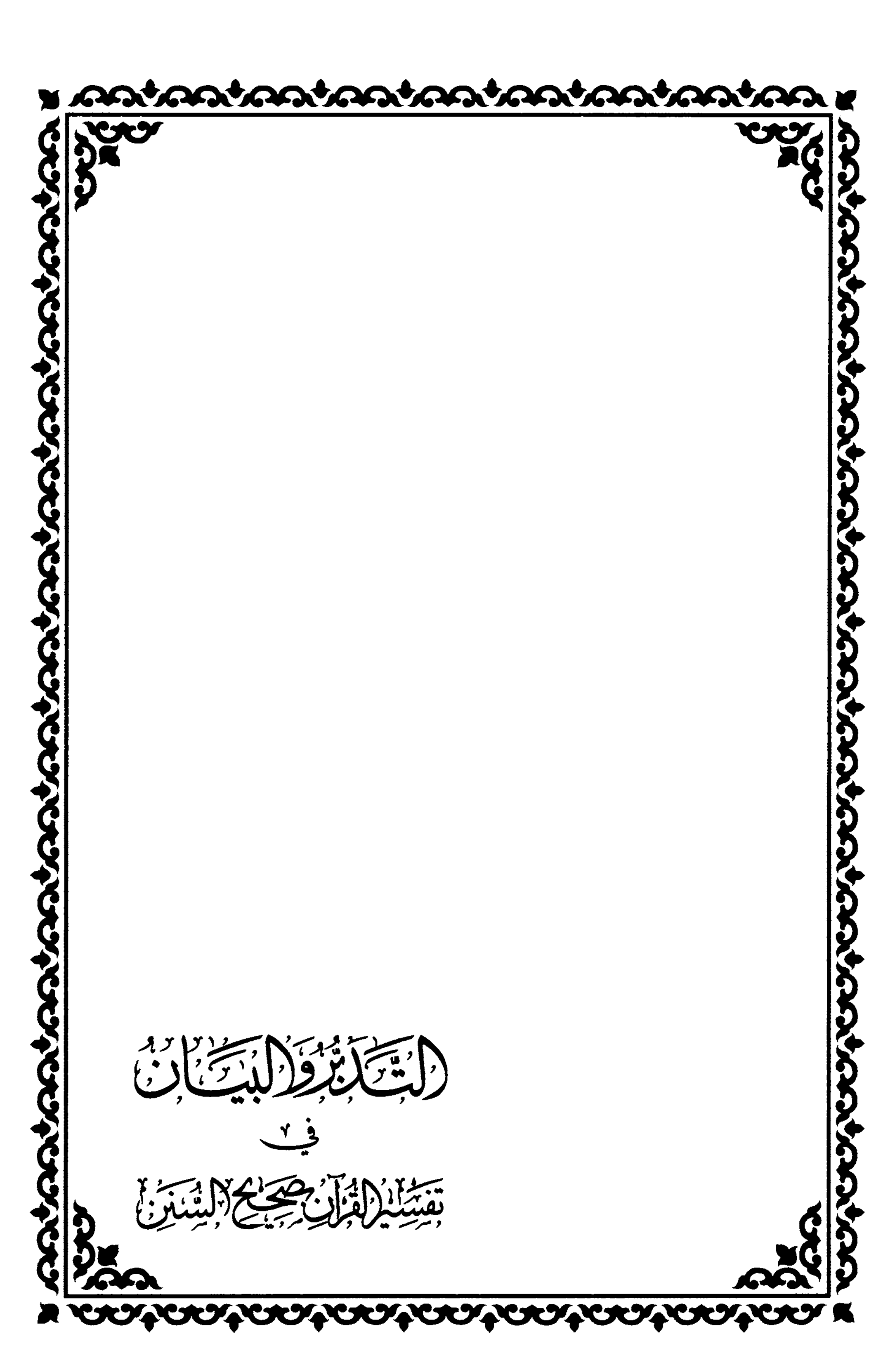
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد التاسع عشر

سورة الإسراء


بسم الله الرحمن الرحيم


التدبر والبيان
في
تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

التصنيف : تفسير
Classification: Exegesis

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي
Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17x24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨






سورة الإسراء

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة: إثبات نبوة محمد ﷺ، وإثبات أن القرآن وحي من اللَّه، وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه، وذكر أنه معجز.

ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه، وإبطال إحالتهم أن يكون النبي ﷺ أسري به إلى المسجد الأقصى.

فافتتحت بمعجزة الإسراء توطئة للتنظير بين شريعة الإسلام وشريعة موسى عليه السلام، على عادة القرآن في ذكر المثل والنظائر الدينية، ورمزًا إلهيًّا إلى أن اللَّه أعطى محمدا ﷺ من الفضائل أفضل مما أعطى من قبله، وأنه أكمل له الفضائل فلم يفته منها فائت، فمن أجل ذلك أحله بالمكان المقدس الذي تداولته الرسل من قبل، فلم يستأثرهم بالحلول بذلك المكان الذي هو مهبط الشريعة الموسوية، ورمز أطوار تأريخ بني إسرائيل وأسلافهم، والذي هو نظير المسجد الحرام في أن أصل تأسيسه في عهد إبراهيم. . فأحل اللَّه به محمدًا -عليه الصلاة والسلام- بعد أن هُجر وخرب إيماء إلى أن أمته تجدد مجده ﷺ، وأن اللَّه مكنه من حرمي النبوة والشريعة، فالمسجد الأقصى لم يكن معمورًا حين نزول هذه السورة، وإنما عمرت كنائس حوله، وأن بني إسرائيل لم يحفظوا حرمة المسجد الأقصى فكان إفسادهم سببا في تسلط أعدائهم عليهم وخراب المسجد الأقصى. وفي ذلك رمز إلى أن إعادة المسجد الأقصى ستكون على يد أمة هذا الرسول الذي أنكروا رسالته.

ثم إثبات دلائل تفرد اللَّه بالإلهية والاستدلال بآية الليل والنهار وما فيهما من

المنن على إثبات الوحدانية.

والتذكير بالنعم التي سخرها اللَّه للناس، وما فيها من الدلائل على تفرده بتدبير الخلق، وما تقتضيه من شكر المنعم وترك شكر غيره، وتنزيهه عن اتخاذ بنات له، وإظهار فضائل من شريعة الإسلام وحكمته، وما علّمه اللَّه المسلمين من آداب المعاملة نحو ربهم سبحانه، ومعاملة بعضهم مع بعض، والحكمة في سيرتهم وأقوالهم، ومراقبة اللَّه في ظاهرهم وباطنهم..

وإثبات البعث والجزاء، والحث على إقامة الصلوات في أوقاتها، والتحذير من نزغ الشيطان وعداوته لآدم وذريته، وقصة إبايته من السجود، والإنذار بعذاب الآخرة.

وذكر ما عرض للأمم من أسباب الاستئصال والهلاك، وتهديد المشركين بأن اللَّه يوشك أن ينصر الإسلام على باطلهم.

وما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين واستعانتهم باليهود، واقتراحهم الآيات، وتحميقهم في جهلهم بآية القرآن، وأنه الحق.

وتخلل ذلك من المستطردات والنذر والعظات ما فيه شفاء ورحمة، ومن الأمثال ما هو علم وحكمة»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الإسراء

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي[2].

⋆ غريب الحديث:

العتاق: جمع عتيق وهو القديم. أو هو كل ما بلغ الغاية في الجودة، وبكل قال أهل العلم. والمراد بالعتاق أنهن من قديم ما نزل.

تلادي: أي مما حفظ قديمًا. والتلاد قديم الملك.

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٧-٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٩٥/ ٤٧٠٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «مراد ابن مسعود ﷺ أنهن من أول ما تعلم من القرآن، وأن لهن فضلًا لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم»[١].

* عن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه حتى يقرأ: بني إسرائيل والزمر[٢].

★ **فوائد الحديث:**

دل الحديث على أن من جملة الأذكار التي يقولها من أراد النوم واضطجع على فراشه هاتين السورتين، سورة الإسراء المعبر عنها باسم بني إسرائيل وسورة الزمر. من أجل ذلك أوردهما الإمام النووي ضمن أذكار النوم في كتابه الأذكار وبوب عليهما ابن خزيمة في صحيحه فقال: (باب استحباب قراءة بني إسرائيل والزمر كل ليلة استنانًا بالنبي ﷺ).

* * *

---

(١) الفتح (٨/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٨-١٢٢)، والترمذي (٥/ ١٦٦/ ٢٩٢٠) وقال: حديث حسن غريب. والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤/ ١١٤٤٤) والحاكم (٢/ ٤٣٤) وسكت عنه، وصححه ابن خزيمة (٢/ ١٩١/ ١١٦٣).

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سبحان: علم للتسبيح ومعناه التنزيه، فمعنى سبحان الله: تنزيهه عما لا يليق به، والبراءة له من كل نقص.

أسرى: يقال: سَرَى وأَسْرَى لغتان، قُرئتا بقطع الهمزة ووصلها. والإسراء: سير الليل، وقيل أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره. وقيل: إن أسرى إنما هو من لفظ من السراة: وهي الأرض الواسعة، فقوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾: ذهب به في سراة الأرض.

الحرام: الحِرْمُ المنع، وسمي المسجد الحرام لكونه حرم على الجبابرة ومنع منهم، أو لأنه حرم فيها أشياء وهي حلال في غيره كالاصطياد وقطع الأشجار ونحو ذلك.

الأقصى: الأبعد، وهو بيت المقدس، عبر عنه بذلك اعتبارًا بمكان المخاطبين به من النبي ﷺ وأصحابه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «الافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجب تنزيه اللَّه عنه؛ يؤذن بأن خبرًا عجيبًا يستقبله السامعون، دالًا على عظيم القدرة من المتكلم، ورفيع منزلة المتحدَّث عنه»[١].

قال ابن كثير: «يُمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٩).

سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه.

﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿لَيۡلًا﴾ أي في جنح الليل ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل ﷺ، ولهذا جمعوا له هنالك كلهم فأمَّهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: في الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي محمدا ﴿مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ أي العظام؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم البصير بهم فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة»[2].

قال السعدي: «ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أنه ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًّا ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعلى هذا تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى،

---

(١) النجم: الآية (١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣-٤).

وأنه أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به من هناك إلى السماوات حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم حتى صارت خمسًا في الفعل، وخمسين في الأجر والثواب، وحاز من المفاخر تلك الليلة هو وأمته ما لا يعلم مقداره إلا اللَّه ﷻ.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ومقام التحدي بصفة العبودية لأنه نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار والخصب الدائم.

ومن بركته تفضيله على غيره من المساجد سوى المسجد الحرام ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن اللَّه اختصه محلا لكثير من أنبيائه وأصفيائه»[1].

قال الرازي: «ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد ﷺ ممكن، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه، وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلاب العصا ثعبانًا تبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب، وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات، وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة، وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع، واللَّه أعلم»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٥٨-٢٥٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٥٢).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾؛ أظهر التفسيرات فيه: أن معنى ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ أكثرنا حوله الخير والبركة بالأشجار والثمار والأنهار. وقد وردت آيات تدل على هذا؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[1] وقوله: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِى بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾[2] فإن المراد بتلك الأرض: الشام. والمراد بأنه بارك فيها: أنه أكثر فيها البركة والخير بالخصب والأشجار والثمار والمياه كما عليه جمهور العلماء.

وقال بعض العلماء: المراد بأنه بارك فيها أنه بعث الأنبياء منها. وقيل غير ذلك. والعلم عند اللَّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ الظاهر أنما أراه اللَّه من آياته في هذه الآية الكريمة: أن أراه إياه رؤية عين. فهمزة التعدية داخلة على (رأى) البصرية. كقولك: أرأيت زيدًا دار عمرو، أي جعلته يراها بعينه. و«من» في الآية للتبعيض، والمعنى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾: أي بعض آياتنا فنجعله يراها بعينه. وذلك ما رآه ﷺ بعينه ليلة الإسراء من الغرائب والعجائب. كما جاء مبينًا في الأحاديث الكثيرة.

ويدل لما ذكرنا في الآية الكريمة قوله تعالى في سورة (النجم): ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾[3]»[4].

قلت: ولا يمنع أن تكون البركة متمثلة في بعثة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من تلك الأرض، ولا شك أن بعثتهم من أعظم البركات، بل كلها بركات، ويبارك -تبارك وتعالى- في تلك الأرض في زروعها وثمارها وأشجارها، وما ينبت فيها من خيرات، واللَّه على كل شيء قدير، فقد يجمع في شيء واحد الكثير من خصائص الخيرات، وفضل اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم.

---

(١) الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) الأنبياء: الآية (٨١).

(٣) النجم: الآيتان (١٧و١٨).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١٠-١١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تاريخ الإسراء، والرد على المتصوفة الذين يحتفلون باليوم السابع والعشرين من رجب لزعمهم أنه اليوم الذي وقع فيه الإسراء، ولا أصل لهذه البدعة لا في الكتاب ولا في السنة، وإنما هي من اختراع الروافض

* عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه : أن نبي اللَّه ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال : **بينما أنا في الحطيم** -وربما قال : **في الحجر- مضطجعا ، إذ أتاني آت فَقَدَّ**- قال : وسمعته يقول : **فشق** - **ما بين هذه إلى هذه**. فقلت للجارود وهو إلى جنبي : ما يعني به قال : من ثغرة نحره إلى شعرته- وسمعته يقول : من قَصِّهِ إلى شعرته- **فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا ، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض**. -فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس : نعم- **يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل** : من هذا؟ **قال** : جبريل، **قيل** : ومن معك؟ **قال : محمد. قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم. قيل : مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال : هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل** : من هذا؟ **قال** : **جبريل، قيل** : **ومن معك؟ قال : محمد، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال** : **نعم، قيل** : **مرحبًا به، فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا، ثم قالا : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل** : من هذا؟ **قال** : **جبريل قيل** : **ومن معك؟ قال : محمد، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : نعم، قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يوسف، قال : هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم قال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل** : من هذا؟ **قال** : **جبريل، قيل** : **ومن معك؟ قال : محمد، قيل : أو قد أرسل إليه؟ قال : نعم، قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا**

إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد به حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه، فرد ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بما أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس

صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي(١).

★ غريب الحديث:

البراق: اسم الدابة التي ركبها النبي ﷺ ليلة الإسراء.

الحطيم: الحجر.

فَقَدَّ: معناه قطع، والقد القطع.

ثغرة: بضم المثلثة وسكون المعجمة وهي الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين.

شِعْرته: بكسر المعجمة أي شعر العانة.

قَصِّهِ: بفتح القاف وتشديد المهملة أي رأس صدره.

بِطَست: بفتح أوله وبكسره، آلة من آلات الغسل.

خَلَصْت: أي: وصلت وبلغت.

طَرْفِه: بسكون الراء وبالفاء أي نظره، أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره.

سدرة: السدرة واحدة السدر، وهو شجر النبق وهو من أعظم الشجر جرما، وهو أكثر شجر البادية عندهم له شوك.

نَبْقُها: بفتح النون وكسر الموحدة وسكونها أيضًا، والنبق معروف وهو ثمر السدر.

قِلاَل: بالكسر جمع قُلَّة بالضم هي الجرار.

هَجَر: بفتح الهاء والجيم: بلدة، وهي قرية من قرى المدينة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٧-٢٠٨) والبخاري (٧/ ٢٥٥-٢٥٧/ ٣٨٨٧) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٤٩-١٥١/ ١٦٤)، والترمذي (٥/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٣٤٦) وقال: حسن صحيح. والنسائي (١/ ٢٣٧-٢٤٠/ ٤٤٧).

* عن أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: «أُتِيتُ بالبراق -وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل- يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات اللّه عليهما، فرحبا، ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لي بخير، قال اللّه عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحب، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مسندا ظهره إلى البيت

---

(١) مريم: الآية (٥٧).

المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر اللَّه ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى اللَّه إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمسًا قال إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي -تبارك وتعالى- وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول اللَّه ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

⋆ غريب الحديث:

الحلقة: بإسكان اللام على اللغة الفصيحة المشهورة، والمراد حلقة باب المسجد ببيت المقدس. واللَّه أعلم.

عُرِج: صُعِد.

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لما كان ليلة أسري بي، ثم أصبحت بمكة، قال: قطعت بأمري، وعرفت أن الناس مكذبي، قال: فقعدت معتزلا حزينا، فمر بي عدو اللَّه أبو جهل، -فجاء حتى جلس إليه، فقال: له- كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: إني أسري بي الليلة قال: إلى أين؟ قال: إلى**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨-١٤٩)، ومسلم (١/ ١٤٥-١٤٧/ ١٦٢)، من طريق حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

بيت المقدس قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا له قومه. قال: إن دعوت إليك قومك أتحدثهم؟ قال: نعم. قال أبو جهل: معشر بني كعب بن لؤي هلم، فتنفضت المجالس، فجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك ما حدثتني، قال رسول اللَّه ﷺ: إني أسري بي الليلة، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قال: قالوا: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم. فمن بين مصدق، ومن بين واضع يده على رأسه مستعجبًا للكذب، قال: وفي القوم من سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجد قال: قالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد حتى وضع، قال: فنعت المسجد وأنا أنظر إليه، قال: وقد كان مع هذا حديث، فنسيته أيضًا، قال القوم: أما النعت فقد أصاب[1].

⋆ غريب الحديث:

قَطَعْتُ بِأَمْرِي: أي: قطعت بما يرجع إليه أمري من تكذيب الناس إياي.

فَتَنَفَّضْتُ: فرغت.

❋ عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلى اللَّه لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[2].**

⋆ غريب الحديث:

فجلّى: بتخفيف اللام وتشديدها، ومعناه: كشف وأظهر.

فطَفِقْت: طفق بمعنى: أخذ في الفعل.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣٤-٣٣٥/ ٣٦٥٧٢)، والبزار (كشف الأستار ١/ ٤٥-٤٦/ ٥٦)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٧-١٦٨/ ١٢٧٨٢) وفي الأوسط (٢/ ٢٢١-٢٢٢/ ٢٤٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧-٣٧٨/ ١١٢٨٥) وذكره الهيثمي (١/ ٦٤-٦٥) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ٢٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧٧)، والبخاري (٨/ ٤٩٩/ ٤٧١٠)، ومسلم (١/ ١٥٦/ ١٧٠)، والترمذي (٥/ ٢٨١/ ٣١٣٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٧/ ١١٢٨٢).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجل ضرب رَجِل كأنه من رجال شَنُوءَة، ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس، وأنا أشبه ولد إبراهيم ﷺ به، ثم أتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: أخذت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك**»[(١)].

⭑ غريب الحديث:

ضَرْبٌ: بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها موحدة، أي نحيف.

رَجِل: بفتح الراء وكسر الجيم، أي دهين الشعر مسترسله.

شَنُوءة: حي من اليمن.

رَبْعَة: هو بفتح الراء وسكون الموحدة ويجوز فتحها، وهو المربوع، والمراد أنه ليس بطويل جدًّا ولا قصير جدًّا بل وسط.

دِيماس: حمام، والديماس في اللغة السرب، ويطلق أيضًا على الكن، والحمام من جملة الكن.

⭑ فوائد الأحاديث:

قال ابن تيمية رحمه الله: «ونبينا ﷺ لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إنما أسري به ليرى من آيات ربه الكبرى، وهذا هو الذي كان من خصائصه أن مسراه كان هذا، كما قال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[(٣)] قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ ليلة أسري به، فهذا الذي كان من خصائصه، ومن أعلام نبوته، وأما مجرد قطع تلك المسافة فهذا يكون لمن تحمله الجن، وقد قال العفريت لسليمان: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٢)، والبخاري (٦/ ٥٢٩/ ٣٣٩٤)، ومسلم (١/ ١٥٤/ ١٦٨)، والترمذي (٥/ ٢٨٠/ ٣١٣٠).

(٢) النجم: الآيات (١٢-١٥).

(٣) الإسراء: الآية (٦٠).

﴿مَقَامِكَ﴾(١) وحملُ العرش من القصر من اليمن إلى الشام أبلغ من ذلك، و﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٢) فهذا أبلغ من قطع المسافة التي بين المسجدين في ليلة، ومحمد ﷺ أفضل من الذي عنده علم من الكتاب، ومن سليمان، فكان الذي خصه اللَّه به أفضل من ذلك، وهو أنه أسري به في ليلة ليريه من آياته، فالخاصة أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى كما ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾(٣) فهذا ما حصل مثله لا لسليمان ولا لغيره، والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء، وإراءته آيات ربه الكبرى، فكان ما آتاه اللَّه محمدا خارجا عن قدرة الجن والإنس وإنما كان الذي صحبه في معراجه جبريل الذي اصطفاه اللَّه لرسالته، واللَّه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وكان المقصود من الإسراء أن يريه ما رآه من آياته الكبرى، ثم يخبر به الناس، فلما أخبر به كذب به من كذب من المشركين، وصدق به الصِّدِّيق وأمثاله من المؤمنين، فكان ذلك ابتلاء ومحنة للناس، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٤) أي: محنة وابتلاء للناس ليتميز المؤمن عن الكافر.

وكان فيما أخبرهم به أنه رأى الجنة والنار وهذا مما يخوفهم به، قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾(٥) والرسول لما أخبرهم بما رآه كذبوه في نفس الإسراء، وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم وقد علموا أنه لم يره قبل ذلك وصدقه من رآه منهم؛ كان ذلك دليلا على صدقه في المسرى فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه، وأخبر اللَّه تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى؛ لأنهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك، وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعين ما رآه، وهو جبريل الذي رآه في صورته التي خلق عليها مرتين؛ لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته، ومما يبين أن الذي أتاه بالقرآن ملك لا شيطان كما قال

(١) النمل: الآية (٣٩).
(٢) النمل: الآية (٤٠).
(٣) النجم: الآيات (١٣-١٧).
(٤) الإسراء: الآية (٦٠).
(٥) الإسراء: الآية (٦٠).

في سورة (إذا الشمس كورت): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[١] ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]»[٣].

قال القرطبي: «تاريخ الإسراء وقد اختلف العلماء في ذلك أيضًا، واختلف في ذلك على ابن شهاب، فروى عن موسى بن عقبة أنه أسري به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة، وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: توفيت خديجة قبل أن تفرض الصلاة، قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبي ﷺ بسبعة أعوام، وروى عن الوقاصي قال: أسري به بعد مبعثه بخمس سنين، قال ابن شهاب: وفرض الصيام بالمدينة قبل بدر، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة، وحرمت الخمر بعد أحد. وقال ابن إسحاق: أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى -وهو بيت المقدس- وقد فشا الإسلام بمكة في القبائل. وروى عنه يونس بن بكير قال: صلت خديجة مع النبي ﷺ، وسيأتي. قال أبو عمر: وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بثلاث، وقيل بأربع، وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، على أن ابن شهاب قد اختلف عنه كما تقدم. وقال الحربي: أسري به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة. وقال أبو بكر محمد بن علي بن القاسم الذهبي في تاريخه: أسري به من مكة إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا، قال أبو عمر: لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يسند قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هذا العلم منهم، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم»[٤].

قال الحافظ: «وقد اختلف في وقت المعراج، فقيل: كان قبل المبعث، وهو شاذ إلا إن حمل على أنه وقع حينئذ في المنام كما تقدم. وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث، ثم اختلفوا، فقيل: قبل الهجرة بسنة، قاله بن سعد وغيره، وبه جزم

---

(١) التكوير: الآيات (١٩-٢١).

(٢) التكوير: الآيات (٢٢-٢٧).

(٣) النبوات (١/ ٥٣٠-٥٣٣).

(٤) الجامع (١٠/ ٢١٠).

النووي، وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه، وهو مردود، فإن في ذلك اختلافا كثيرا يزيد على عشرة أقوال، منها ما حكاه ابن الجوزي أنه كان قبلها بثمانية أشهر، وقيل: بستة أشهر، وحكى هذا الثاني أبو الربيع بن سالم، وحكى ابن حزم مقتضى الذي قبله لأنه قال: كان في رجب سنة اثنتي عشرة من النبوة، وقيل بأحد عشر شهرًا جزم به إبراهيم الحربي حيث قال: كان في ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، ورجحه بن المنير في شرح السيرة لابن عبدالبر، وقيل قبل الهجرة بسنة وشهرين، حكاه ابن عبدالبر، وقيل: قبلها بسنة وثلاثة أشهر، حكاه ابن فارس، وقيل: بسنة وخمسة أشهر، قاله السدي، وأخرجه من طريقه الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال أو في رمضان على إلغاء الكسرين منه ومن ربيع الأول، وبه جزم الواقدي، وعلى ظاهره ينطبق ما ذكره ابن قتيبة وحكاه ابن عبدالبر أنه كان قبلها بثمانية عشر شهرًا، وعند ابن سعد عن ابن أبي سبرة أنه كان في رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهرًا، وقيل: كان في رجب، حكاه ابن عبدالبر، وجزم به النووي في الروضة، وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين حكاه ابن الأثير، وحكى عياض وتبعه القرطبي والنووي عن الزهري أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين، ورجحه عياض ومن تبعه، واحتج بأنه لا خلاف أن خديجة صلت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة إما بثلاث أو نحوها، وإما بخمس، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء. قلت: في جميع ما نفاه من الخلاف نظر، أما أولًا فإن العسكري حكى أنها ماتت قبل الهجرة بسبع سنين، وقيل: بأربع، وعن ابن الأعرابي أنها ماتت عام الهجرة، وأما ثانيا فإن فرض الصلاة اختلف فيه، فقيل: كان من أول البعثة وكان ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، وإنما الذي فرض ليلة الإسراء الصلوات الخمس، وأما ثالثا فقد تقدم في ترجمة خديجة في الكلام على حديث عائشة في بدء الخلق أن عائشة جزمت بأن خديجة ماتت قبل أن تفرض الصلاة، فالمعتمد أن مراد من قال بعد أن فرضت الصلاة ما فرض قبل الصلوات الخمس إن ثبت ذلك، ومراد عائشة بقولها ماتت قبل أن تفرض الصلاة؛ أي: الخمس، فيجمع بين القولين بذلك، ويلزم منه أنها ماتت قبل الإسراء، وأما رابعا ففي سنة موت خديجة اختلاف آخر فحكى العسكري عن الزهري أنها ماتت لسبع مضين من البعثة، وظاهره أن ذلك قبل الهجرة بست سنين، فرعه العسكري على قول من قال إن المدة بين البعثة

والهجرة كانت عشرا»[١].

قلت: ومنه يتبين أن الخلاف في المسألة شديد، ومن خصص ليلة معينة ظنًّا منه أنها ليلة الإسراء والمعراج، فقد أبعد وأغرب.

وأما الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج فهو من البدع المنكرة التي لم يقم عليها دليل من كتاب اللَّه ولا من سنة رسول اللَّه ﷺ، **قال الشقيري**: «وقراءة قصة المعراج، والاحتفال لها في ليلة السابع والعشرين من رجب بدعة، وتخصيص بعض الناس لها بالذكر والعبادة بدعة، والأدعية التي تقال في رجب وشعبان ورمضان كلها مخترعة مبتدعة، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، والإسراء لم يقم دليل على ليلته، ولا على شهره، ومسألة ذهابه ﷺ ورجوعه ليلة الإسراء ولم يبرد فراشه لم تثبت؛ بل هي أكذوبة من أكاذيب الناس»[٢].

قال ابن القيم: «ولا يعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراء فضيلة على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يقصدون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمور، ولا يذكرونها. ولهذا لا يعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراء من أعظم فضائله ﷺ، ومع هذا فلم يشرع تخصيص ذلك الزمان، ولا ذلك المكان بعبادة شرعية، بل غار حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبل النبوة، لم يقصده هو ولا أحد من أصحابه بعد النبوة مدة مقامه بمكة، ولا خص اليوم الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرها، ولا خص المكان الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمان بشيء، ومن خص الأمكنة والأزمنة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان من جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمان أحوال المسيح مواسم وعبادات، كيوم الميلاد ويوم التعميد، وغير ذلك من أحواله»[٣].

قال ابن كثير بعد أن ذكر الروايات التي وردت في الإسراء: «وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) السنن والمبتدعات (ص: ١٤٣).

(٣) زاد المعاد (١/ ٥٨-٥٩).

عليه من مسرى رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ﷺ. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب.

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه ﷺ أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جدًّا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته الناس على التعدد والتكرر»[1].

قال ابن القيم: «وكان الإسراء مرة واحدة، وقيل: مرتين: مرة يقظة ومرة منامًا، وأرباب هذا القول كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرتين مرة قبل الوحي، لقوله في حديث شريك: وذلك قبل أن يوحى إليه، ومرة بعد الوحي كما دلت عليه سائر الأحاديث، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات: مرة قبل الوحي ومرتين بعده، وكل هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات جعلوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الروايات عددوا الوقائع. والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة،

ويا عجبا لهؤلاء الذين زعموا أنه مرارا كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تفرض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى، حتى تصير خمسًا، ثم يقول: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها عشرًا عشرًا»[2].

قال ابن كثير: «ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه ﷺ وروحه؟ أو

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩-٤٠).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٢).

بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا ينكر أن يكون رسول اللَّه ﷺ رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظمًا، ولَمَا بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولَمَا ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال -عز شأنه-: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[1] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ. رواه البخاري. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[2]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضًا فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، واللَّه أعلم»[3].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن اللَّه أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر اللَّه عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ، أن اللَّه حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات؛ ولا معنى لقول من قال: أسرى بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلًا على نبوّته، ولا حجة له على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكرا عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل؟ وبعد، فإن اللَّه إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزًا لأحد أن يتعدّى ما قال اللَّه إلى غيره. فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز، إذ كانت العرب تفعل ذلك في كلامها، كما قال قائلهم:

---

(١) الإسراء: الآية (٦٠). (٢) النجم: الآية (١٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠-٤١).

بيت المقدس هو القبلة الأولى وهو من أحد المواضع التي تعمل المطي إليه، فجعل له الإسراء من القبلتين واجتمعت له فيه الفضيلتان»[١].

قال القرطبي: «وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت، فلا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرج به إلى السماء، وذلك منصوص في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت»[٢].

قال ابن حجر: «ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة إلا ما كان وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد، وذهب الحربي إلى أن الصلاة كانت مفروضة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي، وذكر الشافعي عن بعض أهل العلم: إن صلاة الليل كانت مفروضة، ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٣] فصار الفرض قيام بعض الليل، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس، واستنكر محمد بن نصر المروزي ذلك، وقال: الآية تدل على أن قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ إنما نزل بالمدينة لقوله تعالى فيها: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والقتال إنما وقع بالمدينة لا بمكة، والإسراء كان بمكة قبل ذلك، اهـ.

وما استدل به غير واضح لأن قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ﴾ ظاهر في الاستقبال، فكأنه ﷻ امتن عليهم بتعجيل التخفيف قبل وجود المشقة التي عَلِم أنها ستقع لهم والله أعلم»[٤].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «رجح عياض أن شق الصدر كان وهو صغير عند مرضعته، وتعقبه السهيلي بأن ذلك وقع مرتين وهو الصواب، الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها هذا حظ الشيطان منك. والشق الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة»[٥].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتكلم على شق صدره ﷺ في صغره: «وهذا الشق هو خلاف الشق المذكور في حديث أبي ذر ومالك بن صعصعة، بدليل اختلاف الزمانين

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٢١٥).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٣٨).
(٣) المزمل: الآية (٢٠).
(٤) فتح الباري (١/ ٦١٣).
(٥) الفتح (١/ ٦٠٧) بتصرف.

قالها؟ فقالوا: نعم، فقال: الأمر كذلك. فلو بقي الأمر كذلك لكان الشك يدخل مع بعض المتأخرين من المؤمنين الذين ليست لهم تلك القوة في الإيمان، فلما أن أراد ﷻ إظهار ذلك حتى لم يبق فيه توهم ولا احتمال، جعل الأعداء سببًا للبيان والإيضاح؛ لأن بسؤالهم حصل العلم القطعي أن ما رأى ﷺ في اليقظة لا في المنام؛ لأنهم سألوا عن جزئيات في بيت المقدس كانوا يعلمونها، وهم يعلمون أنه ﷺ لم يكن قط دخل بيت المقدس، فلما أن أعلمهم بها تحققوا أنه أسري به إلى بيت المقدس، فتصحيح البعض دال على تصحيح الكل، وهو باقي الإسراء، فكان ذلك سببا لتقوية إيمان المؤمنين، ولمن ختم اللَّه ﷻ له بالسعادة من المشركين، فبان له الحق بتلك الآية، فنزع عن شركه وأسلم. ومن هذا القبيل أيضًا: طلبهم منه ﷺ انشقاق القمر، ومثل ذلك طلب فرعون من موسى ﷺ الآية، وكذلك جميع الأنبياء ﷺ مع أممهم، هذه عادة أجراها اللَّه تعالى أبدًا لهم، يظهر الحق على أيديهم، ويوضحه بسبب أعدائهم، وهذا فيما ظهر من حكم العادة الجارية من اللَّه ﷻ، مع أنه ﷻ قادر على إظهار الحق وبيانه، من غير منازع فيه ولا متوقف»[١].

وقال: «لقائل أن يقول: لِمَ سري -عليه الصلاة والسلام- من بيت المقدس ولم يسر به من مكة التي هي أشرف البقاع بمقتضى الأحاديث، والجواب: أنه إن قلنا أن ذلك من اللَّه تعالى بحكمة استأثر بها فيجب الإيمان به كما ورد الخبر به من غير تعليل، وإن قلنا إن الحكمة في ذلك معقولة فحينئذ نحتاج إلى إبدائها، فنقول: هي واللَّه أعلم لما ذكرناه آنفا، وهو أن يكون ذلك دالاً على صدق النبي ﷺ؛ لأنه لو عرج به -عليه الصلاة والسلام- من مكة لكان الكفار ينكرون ما يدعيه، ولا يجد ما يستدل عليهم، ويلحق بسبب ذلك لمن ضعف إيمانه الشك، فلما أن أسري به -عليه الصلاة والسلام- لذلك الموضع، وسأله الأعداء المنكرون عن جزئيات فيه كانوا يعلمونها وهو ﷺ لم يدخله قط حتى يعلم الجزئيات التي فيه، ثم أخبرهم ﷺ في الحال بكل ما سألوا عنه، فكان ذلك أكبر آية على تصديقه ﷺ فيما ادعاه، بخلاف أن لو كان الإسراء به ﷺ من موضعه الذي كان فيه؛ لأن البشر ليس له معرفة بالعالم العلوي حتى يعلموا ما فيه فيسألوا عنه. ولي وجه ثان أيضًا، وهو أن

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٢١٤-٢١٥).

وانظر تفسير سورة (النجم) فإن فيه مزيد بيان لهذه المسألة.

قال ابن كثير: «قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة في كتابه التنوير في مولد السراج المنير، وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد- ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبدالرحمن بن قُرْط، وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد اللّه بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]»[2].

قال ابن أبي جمرة: «لقائل أن يقول: لم كان شق البطن وحينئذ ملئ بما أملئ، واللّه عز وجل قادر على أن يوجد له ذلك في بطنه من غير أن يفعل به ما فعل، والجواب عنه: أنه عليه السلام لما أن أعطي كثرة الإيمان والحكمة، وقَوِيَ التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له قوة إيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، وبالمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات، فكمل له بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان باللّه عز وجل، وعدم الخوف مما سواه»[3].

وقال: «فيه دليل على أن اللّه عز وجل إذا أراد ظهور الحق جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده، حتى يكون ذلك سببًا لظهوره وإيضاحه؛ لأنه لما أن أخبر النبي ﷺ بالإسراء صدقه المؤمنون ابتداء من غير بحث ولا سؤال، كما قال أبو بكر رضي الله عنه حين قيل له: إن صاحبك ادعى أنه عُرج به البارحة إلى مكان كذا وكذا!، فقال: أو

(١) الصف: الآية (٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢).
(٣) بهجة النفوس (٣/ ١٨٥).

في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه -تبارك وتعالى- تلك الليلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد -رحمه اللَّه تعالى- وقال: نعم رآه حقا فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد، ولكن لم يقل أحمد -رحمه اللَّه تعالى-: إنه رآه بعيني رأسه يقظة ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرة: رآه ومرة قال: رآه بفؤاده فحكيت عنه روايتان وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك.

وأما قول ابن عباس: إنه رآه بفؤاده مرتين فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[١] ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ والظاهر أنه مستنده فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل رآه مرتين في صورته التي خلق عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، واللَّه أعلم.

وأما قوله تعالى في سورة (النجم): ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٢]فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة (النجم) هو دنو جبريل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[٣] وهو جبريل ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[٤] فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وهو ذو المرة أي: القوة وهو الذي استوى بالأفق الأعلى وهو الذي دنى فتدلى فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى، فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض ومرة عند سدرة المنتهى واللَّه أعلم»[٥].

قال القرطبي: «واختلف قديما وحديثا في جواز رؤية اللَّه تعالى، فأكثر المبتدعة على إنكار جوازها في الدنيا والآخرة، وأهل السلف والسنة على جوازها فيهما ووقوعها في الآخرة»[٦].

---

(١) النجم: الآية (١١).
(٢) النجم: الآية (٨).
(٣) النجم: الآية (٥).
(٤) النجم: الآيات (٦-٨).
(٥) زاد المعاد (٣/ ٣٦-٣٨).
(٦) المفهم (١/ ٤٠١).

أحدهما: أن هذه قضية أخرى غير الإسراء، على ما ذكره عكرمة، قال: هي رؤيا دخول المسجد الحرام، والفتنة: الصد بالحديبية.

الثاني: أن الرؤيا بمعنى: الرؤية والمعاينة، قاله ابن عباس في جماعة، والفتنة: ارتداد من أنكر ذلك.

وأما قوله: «**بينا أنا نائم**» يعني: في أول القصة، وذلك: أنه كان قد ابتدأ نومه، فأتاه الملك فأيقظه، وفي بعض ألفاظه: «**بينا أنا بين النائم واليقظان أتاني الملك**» وذكر الحديث: وقوله: ﷺ «**فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام**» يحتمل أن يكون استيقاظه من نوم نامه بعد الإسراء؛ لأن إسراءه لم يكن طول ليلته وإنما كان في بعضها، ويحتمل أن يكون بمعنى: أفقت، وذلك مما كان غمر باطنه من عجائب ما رأى وطالع من ملكوت السموات، وخامر باطنه من مشاهدة الملإ الأعلى، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1] فلم يستفق ويرجع إلى حال بشريته إلا وهو بالمسجد الحرام، والله أعلم»[2].

قال ابن القيم: «اختلف الصحابة: هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه وصح عنه أنه قال: رآه بفؤاده وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك وقالا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[3] إنما هو جبريل، وصح عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «**نور أنى أراه**»[4] أي: حال بيني وبين رؤيته النور كما قال في لفظ آخر: «**رأيت نورًا**»[5].

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وليس قول ابن عباس: إنه رآه مناقضا لهذا، ولا قوله: رآه بفؤاده. وقد صح عنه أنه قال: «**رأيت ربي -تبارك وتعالى-**»[6] ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم

---

(١) النجم: الآية (١٨).
(٢) المفهم (١/ ٣٨٤-٣٨٦).
(٣) النجم: الآيتان (١٣-١٤).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧) ومسلم (١/ ١٦١/ ١٧٨ [٢٩١]) والترمذي (٥/ ٣٦٩/ ٣٢٨٢).
(٥) أخرجه مسلم (١/ ١٦١/ ١٧٨ [٢٩٢]).
(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣) والترمذي (٥/ ٣٤٣-٣٤٤/ ٣٢٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح.

حَسِبْتُ بُغامَ رَاحِلَتِي عنَاقا وَمَا هِيَ وَيْبَ غيرِكِ بِالعَنَاقِ

يعني: حسبت بغام راحلتي صوت عناق، فحذف الصوت واكتفى منه بالعناق، فإن العرب تفعل ذلك فيما كان مفهومًا مراد المتكلم منهم به من الكلام. فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره، ولا يوصل إلى معرفة مراد المتكلِّم إلا ببيانه، فإنها لا تحذف ذلك؛ ولا دلالة تدلّ على أن مراد اللَّه من قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة، والأخبار المتتابعة عن رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه أسرى به على دابة يُقال لها البراق؛ ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدوابّ لا تحمل إلا الأجسام. إلا أن يقول قائل: إن معنى قولنا: أسرى بروحه: رأى في المنام أنه أسري بجسده على البراق، فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التي رُويت عن رسول اللَّه ﷺ، أن جبرئيل حمله على البراق؛ لأن ذلك إذا كان مناما على قول قائل هذا القول، ولم تكن الروح عنده مما تركب الدوابّ، ولم يحمل على البراق جسم النبيّ ﷺ، لم يكن النبيّ ﷺ على قوله حُمل على البراق لا جسمه ولا شيء منه، وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين، وذلك دفع لظاهر التنزيل، وما تتابعت به الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ، وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين»[1].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن الذي عليه معظم السلف والخلف أنه أسري بجسده وحقيقته في اليقظة، إلى آخر ما انطوى عليه الإسراء، وعليه يدل ظاهر الكتاب، وصحيح الأخبار، ومبادرة قريش لإنكار ذلك وتكذيبه، ولو كان منامًا لما أنكروه، ولما افتتن به من افتتن. إذ كثيرا ما يرى في المنام أمور عجيبة وأحوال هائلة، فلا يستبعد ذلك في النوم، وإنما يستبعد في اليقظة، ولا يعارض ما ذكرناه إلا ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[2] وألفاظ وقعت في بعض طرق أحاديث الإسراء؛ كقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**بينا أنا نائم**» وقوله: «**فاستيقظت**»، ونحو ذلك مما وقع في كتاب مسلم وغيره، وقد انفصل عن الآية بوجهين:

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٦-١٧). وانظر الشفا (١/ ٢٤٥-٢٤٩).

(٢) الإسراء: الآية (٦٠).

والمكانين والحالين، أما الزمانان: فالأول: في صغره، والثاني في كبره. وأما المكانان: فالأول: كان ببعض جهات مكة عند مرضعته، والثاني: عند البيت. أما الحالان: فالأول: نزع من قلبه ما كان يضره وغسل، وهو إشارة إلى عصمته، والثاني: غسل وملئ حكمة وإيمانا، وهو إشارة إلى التهيؤ إلى مشاهدته ما شاء اللَّه أن يشهده، ولا يلتفت إلى قول من قال: إن ذلك كان مرة واحدة في صغره، وأخذ يغلط بعض الرواة الذين رووا أحد الخبرين. فإن الغلط به أليق، والوهم منه أقرب، فإن رواة الحديثين أئمة مشاهير حفاظ، ولا إحالة في شيء مما ذكروه، ولا معارضة بينهما ولا تناقض، فصح ما قلناه، وبهذا قال جماعة من العلماء»[1].

قال الحافظ: «قوله: **«بالابن الصالح والنبي الصالح»** قيل: اقتصر الأنبياء على وصفه بهذه الصفة وتواردوا عليها لأن الصلاح صفة تشمل خلال الخير، ولذلك كررها كل منهم عند كل صفة، والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق اللَّه وحقوق العباد، فمن ثم كانت كلمة جامعة لمعاني الخير، وفي قول آدم: **«بالابن الصالح»** إشارة إلى افتخاره بأبوة النبي ﷺ»[2].

قوله: **«هي الفطرة التي أنت عليها»**؛ **قال القرطبي**: «وكأن معنى هذا الحديث: أنه لما مال إلى ما يتناول بالجبلة والطبع، وما لا ينشأ عنه مفسدة وهو اللبن، وعدل عما ليس كذلك مما يتوقع منه مفسدة أو من جنسه، وهي إذهاب العقل الموصل للمصالح، صوَّبَ الملكُ فعله ودعا له.. ويحتمل أن يكون ذلك من باب التفاؤل والتشبيه لما كان اللبن أوَّل شيء يدخل جوف الصبي، ويشق أمعاءه فسمي بذلك فطرة»[3].

قال الحافظ: «الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به رأى في تلك الليلة تعبُّد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع اللَّه له ولأمته تلك العبادات كلها في كل ركعة يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة، وقال في

---

(١) المفهم (١/ ٣٨٢-٣٨٣).
(٢) الفتح (٧/ ٢٦٦).
(٣) المفهم (١/ ٣٨٨).

اختصاص فرضيتها بليلة الإسراء إشارة إلى عظيم بيانها، ولذلك اختص فرضها بكونه بغير واسطة، بل بمراجعات تعددت على ما سبق بيانه»[١].

وقال: «قوله: «**فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي**» هذا من أقوى ما استدل به على أن اللَّه ﷻ كلم نبيه محمدًا ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة»[٢].

وقال: «وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: أن للسماء أبوابا حقيقة، وحفظة موكلين بها. وفيه إثبات الاستئذان، وأنه ينبغي لمن يستأذن أن يقول: أنا فلان، ولا يقتصر على أنا؛ لأنه ينافي مطلوب الاستفهام. وأن المار يسلم على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد.

وفيه استحباب تلقي أهل الفضل بالبشر والترحيب والثناء والدعاء، وجواز مدح الإنسان المأمون عليه الافتتان في وجهه.

وفيه جواز الاستناد إلى القبلة بالظهر وغيره، مأخوذ من استناد إبراهيم إلى البيت المعمور، وهو كالكعبة في أنه قبلة من كل جهة.

وفيه جواز نسخ الحكم قبل وقوع الفعل، وقد سبق البحث فيه في أول الصلاة.
وفيه فضل السير بالليل على السير بالنهار، لما وقع من الإسراء بالليل، ولذلك كانت أكثر عبادته ﷺ بالليل، وكان أكثر سفره ﷺ بالليل..

وفيه أن التجربة أقوى في تحصيل المطلوب من المعرفة الكثيرة؛ يستفاد ذلك من قول موسى عليه السلام للنبي ﷺ: إنه عالج الناس قبله وجربَهم.

ويستفاد منه تحكيم العادة، والتنبيه بالأعلى على الأدنى؛ لأن من سلف من الأمم كانوا أقوى أبدانا من هذه الأمة، وقد قال موسى في كلامه: إنه عالجهم على أقل من ذلك فما وافقوه، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة.

قال: ويستفاد منه أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم، ومقام التكليم مقام الإدلال والانبساط، ومن ثم استبد موسى بأمر النبي ﷺ بطلب التخفيف دون

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٧٤).
(٢) الفتح (٧/ ٢٧٤).

إبراهيم عليه السلام، مع أن للنبي ﷺ من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع في الملة.

وقال غيره: الحكمة في ذلك ما أشار إليه موسى عليه السلام في نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه في هذه العبادة بعينها، وأنهم خالفوه وعصوه.

وفيه أن الجنة والنار قد خلقتا لقوله في بعض طرقه التي بينتها: «**عرضت علي الجنة والنار**»، وقد تقدم البحث فيه في بدء الخلق.

وفيه استحباب الإكثار من سؤال اللَّه تعالى وتكثير الشفاعة عنده، لما وقع منه ﷺ في إجابته مشورة موسى في سؤال التخفيف.

وفيه فضيلة الاستحياء وبذل النصيحة لمن يحتاج إليها وإن لم يستشر الناصح في ذلك»[١].

* عن شريك بن عبد اللَّه بن أبي نمر سمعت أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة أسري بالنبي ﷺ من مسجد الكعبة: «.. جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه -وهو نائم في المسجد الحرام- فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، وقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك، فلم يرهم حتى جاؤوا ليلة أخرى، فيما يرى قلبه والنبي ﷺ نائمة عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فتولاه جبريل ثم عرج به إلى السماء»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «**فقال أولهم أيهم هو**» فيه إشعار بأنه كان نائمًا بين جماعة أقلهم اثنان، وقد جاء أنه كان نائمًا معه حينئذ حمزة بن عبد المطلب عمه، وجعفر ابن أبي طالب ابن عمه»[٣].

وقال: «قوله: «**فلم يرهم**» أي بعد ذلك حتى أتوه ليلة أخرى، ولم يعين المدة التي بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد أن أوحي إليه، وحينئذ

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٧٥-٢٧٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٧١٨-٧١٩/ ٣٥٧٠) ومسلم (١/ ١٤٨/ ١٦٢(٢٦٢)) من طريق شريك بن عبد اللَّه بن أبي نمر عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) فتح الباري (١٣/ ٥٨٧).

وقع الإسراء والمعراج، وقد سبق بيان الاختلاف في ذلك عند شرحه. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق في ذلك بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي كثيرة أو عدة سنين، وبهذا يرتفع الإشكال عن رواية شريك ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة، ويسقط تشنيع الخطابي وابن حزم وغيرهما بأن شريكًا خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وبالله التوفيق.

وأما ما ذكره بعض الشراح أنه كان بين الليلتين اللتين أتاه فيهما الملائكة سبع، وقيل ثمان، وقيل تسع، وقيل عشر، وقيل ثلاثة عشر، فيحمل على إرادة السنين لا كما فهمه الشارح المذكور أنها ليال، وبذلك جزم ابن القيم في هذا الحديث نفسه. وأقوى ما يستدل به أن المعراج بعد البعثة قوله في هذا الحديث نفسه أن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له: أَبُعِثَ؟، قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة، فيتعين ما ذكرته من التأويل»[1].

* عن أنس أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به ملجمًا مسرجًا فاستصعب عليه فقال له جبريل عليه السلام: أبمحمد ﷺ تفعل هذا؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقًا[2].

★ غريب الحديث:

فَارْفَضَّ عَرَقًا: جرى عرقه وسال.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه دلالة على أن البراق كان معدا لركوب الأنبياء خلافًا لمن نفى ذلك كابن دحية، وأَوَّلَ قول جبريل: «**فما ركبك أكرم على الله منه**» أي ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه، وقد جزم السهيلي أن البراق إنما استصعب عليه لبعد عهده بركوب الأنبياء قبله. قال النووي: قال الزبيدي في مختصر العين وتبعه صاحب التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٨٧-٥٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦٤)، والترمذي (٥/ ٢٨١/ ٣١٣١) وقال: حديث حسن غريب. وصححه ابن حبان (١/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٤٦).

قلت: قد ذكرت النقل بذلك، ويؤيده ظاهر قوله: «فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء»»[١].

وقال: «قال ابن المنير: إنما استصعب البراق تيها وزهوا بركوب النبي ﷺ عليه، وأراد جبريل استنطاقه فلذلك خجل وارفض عرقا من ذلك»[٢].

* عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن، فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة[٣].

★ فوائد الحديث:

قوله: «عرضت عليَّ الأمم»؛ قال الحافظ: «وقد بين عبثر بن القاسم في روايته عن حصين بن عبدالرحمن عند الترمذي والنسائي أن ذلك كان ليلة الإسراء..

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ روايات هذا الحديث وقال: «والحاصل من هذه الروايات أن الأنبياء يتفاوتون في عدد أتباعهم»[٤].

* عن عبد اللَّه بن عمرو عن رسول اللَّه ﷺ: «إن سليمان بن داود ﷺ لما بنى بيت المقدس سأل اللَّه ﷻ خلالًا ثلاثة: سأل اللَّه ﷻ حكمًا يصادف حكمه فأوتيه، وسأل اللَّه ﷻ ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل اللَّه ﷻ حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٦٢). (٢) فتح الباري (٧/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٧١)، والبخاري (١١/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠ [٣٧٥])، والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٩٦-٤٩٧).

كيوم ولدته أمه»[1].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: «**حكما يصادف حكمه**» أي يوافق حكم اللَّه تعالى، والمراد التوفيق للصواب في الاجتهاد وفصل الخصومات بين الناس»[2].

قال الحكيم الترمذي: «قوله: «**حكما يصادف حكمه**» معناه: أن يحكم بين عباد اللَّه بما يصادف حكم اللَّه تعالى؛ لأن أمور العباد في الغيب، وإنما أمروا أن يعملوا بالظاهر عندهم، بالشاهد أو اليمين، وربما كان شاهَدَ زورًا، وكان في يمينه كاذبًا، فليس على الحاكم إلا الحكم بما يظهر عندهم، ويكلهم فيما غاب عنهم إلى اللَّه تعالى»[3].

قال شيخ الإسلام: «واتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه كالصلاة والدعاء والذكر وقراءة القرآن والاعتكاف، وقد روي من حديث رواه الحاكم في صحيحه: «**إن سليمان ﷺ سأل ربه ثلاثًا ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله حكما يوافق حكمه، وسأله أنه لا يؤم أحد هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه إلا غفر له**»، ولهذا كان ابن عمر ﷺ يأتي إليه فيصلي فيه، ولا يشرب فيه ماء لتصيبه دعوة سليمان لقوله: «**لا يريد إلا الصلاة فيه**» فإن هذا يقتضي إخلاص النية في السفر إليه، ولا يأتيه لغرض دنيوي ولا بدعة»[4].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى**»[5].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وفيه ما يدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٦)، والنسائي (٢/ ٣٦٤/ ٦٩٢)، وابن ماجه (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ١٤٠٨)، والحاكم (١/ ٣٠-٣١) وصححه ووافقه الذهبي، وصححه أيضا ابن حبان (٤/ ٥١١-٥١٢/ ١٦٣٣) وابن خزيمة (٢/ ٢٨٨/ ١٣٣٤).

(٢) حاشية السندي على النسائي (٢/ ٣٦٤).

(٣) نوادر الأصول (١/ ٢٤٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٤)، والبخاري (٣/ ٨١/ ١١٨٩)، ومسلم (٢/ ١٠١٤/ ١٣٩٧)، وأبو داود (٢/ ٥٢٩/ ٢٠٣٣)، والنسائي (٢/ ٣٦٨/ ٦٩٩)، وابن ماجه (١/ ٤٥٢/ ١٤٠٩).

المساجد، لهذا قال العلماء: من نذر صلاةً في مسجد لا يصل إليه إلا برحلة وراحلة فلا يفعل، ويصلي في مسجده إلا في ثلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها»[١].

قال ابن تيمية: «ولهذا لم يكن الصحابة يسافرون إلى شيء من مشاهد الأنبياء، لا مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام ولا غيره، والنبي ﷺ ليلة المعراج صلى في بيت المقدس ركعتين، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، ولم يصل في غيره. وأما ما يرويه بعض الناس من حديث المعراج أنه صلى في المدينة، وصلى عند قبر موسى عليه السلام، وصلى عند قبر الخليل؛ فكل هذه الأحاديث مكذوبة موضوعة، وقد رخص بعض المتأخرين في السفر إلى المشاهد، ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية..

والعبادات المشروعة في المسجد الأقصى هي من جنس العبادات المشروعة في مسجد النبي ﷺ وغيره من سائر المساجد إلا المسجد الحرام، فإنه يشرع فيه زيادة على سائر المساجد الطواف بالكعبة، واستلام الركنين اليمانيين، وتقبيل الحجر الأسود، وأما مسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى وسائر المساجد فليس فيها ما يطاف به، ولا فيها ما يتمسح به، ولا ما يُقَبَّل، فلا يجوز لأحد أن يطوف بحجرة النبي ﷺ ولا بغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين، ولا بصخرة بيت المقدس، ولا بغير هؤلاء كالقبة التي فوق جبل عرفات وأمثالها، بل ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة. ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة، فإن النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صلى بالمسلمين ثمانية عشر شهرا إلى بيت المقدس، فكانت قبلة المسلمين هذه المدة، ثم إن اللّه حول القبلة إلى الكعبة وأنزل اللّه في ذلك القرآن كما ذكر في سورة البقرة، وصلى النبي ﷺ والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل، مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكانا يطاف به كما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٣٩).

يطاف بالكعبة، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه اللَّه بحال، وكذلك من قصد أن يسوق إليها غنما أو بقرا ليذبحها هناك ويعتقد أن الأضحية فيها أفضل، وأن يحلق فيها شعره في العيد، أو أن يسافر إليها ليعرف بها عشية عرفة، فهذه الأمور التي يشبه بها بيت المقدس في الوقوف والطواف والذبح والحلق من البدع والضلالات، ومن فعل شيئًا من ذلك معتقدا أن هذا قربة إلى اللَّه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، كما لو صلى إلى الصخرة معتقدا أن استقبالها في الصلاة قربة كاستقبال الكعبة، ولهذا بنى عمر بن الخطاب مصلى المسلمين في مقدم المسجد الأقصى.

فإن المسجد الأقصى اسم لجميع المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام، وقد صار بعض الناس يسمى الأقصى المصلى الذي بناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مقدَّمِه، والصلاة في هذا المصلى الذي بناه عمر للمسلمين أفضل من الصلاة في سائر المسجد؛ فإن عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس وكان على الصخرة زبالة عظيمة؛ لأن النصارى كانوا يقصدون إهانتها مقابلة لليهود الذين يصلون إليها، فأمر عمر رضي الله عنه بإزالة النجاسة عنها، وقال لكعب الأحبار: أين ترى أن نبني مصلى المسلمين؟ فقال: خلف الصخرة. فقال: يا ابن اليهودية! خالطتك يهودية، بل أبنيه أمامها، فإن لنا صدور المساجد. ولهذا كان أئمة الأمة إذا دخلوا المسجد قصدوا الصلاة في المصلى الذي بناه عمر، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه صلى في محراب داود»[1].

وقال: «وليس ببيت المقدس مكان يسمى حرمًا، ولا بتربة الخليل ولا بغير ذلك من البقاع إلا ثلاثة أماكن؛ أحدها: هو حرم باتفاق المسلمين وهو حرم مكة شرفها اللَّه تعالى، والثاني: حرم عند جمهور العلماء وهو حرم النبي ﷺ من عير إلى ثور، بريد في بريد فإن هذا حرم عند جمهور العلماء كمالك والشافعي وأحمد، وفيه أحاديث صحيحة مستفيضة عن النبي ﷺ، والثالث: «وج» وهو واد بالطائف، فإن هذا روي فيه حديث رواه أحمد في المسند وليس في الصحاح[2]، وهذا حرم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٩-١٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٥) وأبو داود (٢/ ٥٢٨/ ٢٠٣٢) من حديث الزبير رضي الله عنه، وفيه محمد بن عبد اللَّه بن إنسان الثقفي، قال فيه الحافظ في التقريب: ليِّن.

عند الشافعي لاعتقاده صحة الحديث، وليس حرما عند أكثر العلماء، وأحمد ضعف الحديث المروي فيه فلم يأخذ به، وأما ما سوى هذه الأماكن الثلاثة فليس حرما عند أحد من علماء المسلمين، فإن الحرم ما حرم اللَّه صيده ونباته، ولم يحرم اللَّه صيد مكان ونباته خارجا عن هذه الأماكن الثلاثة»[١].

وقال: «والمساجد الثلاثة لها فضل على ما سواها، فإنها بناها أنبياء، ودعوا الناس إلى السفر إليها. فالخليل دعا إلى المسجد الحرام، وسليمان دعا إلى بيت المقدس، ونبينا دعا إلى الثلاثة: إلى مسجده والمسجدين، ولكن جعل السفر إلى المسجد الحرام فرضًا، والآخرين تطوعا، وإبراهيم وسليمان لم يوجبا شيئًا، ولا أوجب الخليل الحج، ولهذا لم يكن بنو إسرائيل يحجون، ولكن حج موسى ويونس وغيرهما»[٢].

قلت: وخلاصة ما تقدم من المباحث في الإسراء والمعراج:

أولًا: أن الإسراء آية من آيات النبوة، ودليل من الأدلة على نبوته ﷺ.

ثانيًا: أن رواية أحاديث الإسراء والمعراج بلغت حد التواتر.

ثالثًا: تحديد مكان الإسراء والمعراج، وأن الأول كان من مكة.

رابعًا: خصوصية جبريل عليه السلام في قيادة النبي ﷺ.

خامسًا: تهييء الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا لتلقي العلوم من عند رب العالمين.

سادسًا: فضيلة نبينا محمد ﷺ في الصلاة بالأنبياء والرسل وإمامتهم.

سابعًا: ذكر العلماء والدعاة لأهميتهم، ولأنهم كانوا أصحاب رسالات.

ثامنًا: الاستئذان في كل دخول؛ لأن طلب الإذن فيه كمال الدلالة على البراءة من كل سوء، وأن المأذون له آمن مطمئن يقدم له أحسن الضيافات، ويستقبل أحسن استقبال بالترحيب والتبجيل والتقدير.

تاسعًا: آداب المستأذِن والمستأذَن عليه.

عاشرًا: اختلاف عوالم السموات على عوالم الأرض، وأن لكل واحدة منهما ميزتها، وأن عوالم السموات مستقر الملائكة، وعوالم الأرض مستقر بني آدم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٤-١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٦٤).

حادي عشر: الكل يسعى لتحقيق العبودية، وأن الملائكة جبلوا على العبادة، وبنو آدم يتروضون عليها كل بحسبه، وأكملهم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

ثاني عشر: العلو فيه إشارة إلى تفاوت المنازل بين الدعاة الموجودين في السماوات.

ثالث عشر: منهاج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هو الخُلُق الكامل، وما يصدر منهم من لين القول والفعل هو نفحات الخير، وذلك في تحيتهم جميعا بعضهم لبعض في البدء والرد.

رابع عشر: خصوصية هذه الأمة بالعفو من اللَّه تعالى، وأن منهم من يدخل الجنة بغير حساب، وأنهم أكثر أهل الجنة.

خامس عشر: فيه فضيلة مكة وبيت المقدس.

سادس عشر: فضيلة اللبن على غيره من الأشربة وأنه نافع. وفيه إشارة إلى فضيلة رسالة رسول اللَّه ﷺ وأنها أفضل وأيسر الرسالات أجمعها؛ كما أن اللبن جامع لكل ما يحتاجه الإنسان، فهو نافع وسهل ويسير.

سابع عشر: الذي يتتبع الروايات لا يربط الإسراء والمعراج بتاريخ معين محدد، ومن ثم من حده بالسابع والعشرين من رجب فقد افترى على اللَّه الكذب.

ثامن عشر: لا يجوز لمسلم أن يعظم يومًا من السنة يجعله مناسبة أو عيدًا إلا ما جاء الشرع به؛ كيوم الجمعة، أو العيدين الفطر والأضحى، أو العشر الأواخر من رمضان، أو شهر رمضان على العموم، أو صيام يوم الإثنين والخميس وعرفة والتاسع والعاشر من محرم. فمن خصص يومًا بصيام أو عبادة أو احتفال أو زيارة مكان معين؛ فهو مبتدع ضال.

تاسع عشر: لا يجوز شد الرحال ولا الطواف بمكان أو تقبيل حجر إلا بيت اللَّه الحرام والحجر الأسود، وما سوى ذلك فهو بدعة وشرك وضلال. فهذه الأمكنة هي التي تشد إليها الرحال: بيت اللَّه الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، وبيت المقدس حرره اللَّه وأبعد عنه إخوان القردة والخنازير، وهيأ المسلمين لتحريره وإبعاد كل من يدنسه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لما بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عظم شأن نبيه محمد ﷺ، ذكر عظم شأن موسى بالكتاب العظيم، الذي أنزله إليه، وهو التوراة. مبينًا أنه جعله هدىً لبني إسرائيل. وكرر -جل وعلا- هذا المعنى في القرآن، كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[2]. الآية، وقوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[4] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

اعلم أن هذا الحرف قرأه جمهور القراء ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ بالتاء على وجه الخطاب. وعلى هذا فـ«أن» هي المفسرة، فجعل التوراة هدى لبني إسرائيل مفسر بنهيهم عن اتخاذ وكيل من دون اللَّه؛ لأن الإخلاص كله في عبادته هو ثمرة الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات اللَّه عليهم وسلامه. وعلى هذه القراءة فـ«لا» في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ ناهية. وقرأه أبو عمرو من السبعة ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ بالياء على الغيبة، وعلى هذه القراءة فالمصدر المنسبك من «أن» وصلتها مجرور بحرف التعليل المحذوف؛ أي: وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأجل ألا يتخذوا من

---

(١) السجدة: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٢) القصص: الآية (٤٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٥٤).
(٤) الأعراف: الآية (١٤٥).

دوني وكيلًا؛ لأن اتخاذ الوكيل الذي تسند إليه الأمور، وتفوض من دون اللَّه ليس من الهدى. فمرجع القراءتين إلى شيء واحد، وهو أن التوكل إنما يكون على اللَّه وحده لا على غيره.

وكرر هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[٢]. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٤]، وقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٥]، وقوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾[٦] الآية، وقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٧]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[٨] الآية، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[٩]. الآية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾[١٠] الآية، وقوله: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[١١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا.

والوكيل: فعيل من التوكل. أي متوكلًا عليه، تفوضون إليه أموركم. فيوصل إليكم النفع، ويكف عنكم الضر. وقال الزمخشري: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ربًا تكلون إليه أموركم. وقال ابن جرير: حفيظًا لكم سواي»[١٢].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات اللَّه وسلامه عليه، عطف بذكر موسى عبده وكليمه ﷺ أيضًا، فإنه تعالى كثيرًا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد ﷺ وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء:

---

(١) المزمل: الآية (٩).
(٢) الملك: الآية (٢٩).
(٣) التوبة: الآية (١٢٩).
(٤) الطلاق: الآية (٣).
(٥) إبراهيم: الآيتان (١١و١٢).
(٦) هود: الآية (٥٦).
(٧) يونس: الآية (٧١).
(٨) الأحزاب: الآية (٣).
(٩) الفرقان: الآية (٥٨).
(١٠) هود: الآية (١٢٣).
(١١) آل عمران: الآية (١٧٣).
(١٢) أضواء البيان (٥/ ١١-١٢).

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدًى﴾ أي هاديًا ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي وليًا ولا نصيرًا ولا معبودًا دوني ؛ لأن اللَّه تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له»[1].

وقال السعدي : «كثيرا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ ونبوة موسى ﷺ وبين كتابيهما وشريعتيهما لأن كتابيهما أفضل الكتب وشريعتيهما أكمل الشرائع ونبوتيهما أعلى النبوات وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي : وقلنا لهم ذلك وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ليعبدوا اللَّه وحده وينيبوا إليه ويتخذوه وحده وكيلا ومدبرا لهم في أمر دينهم ودنياهم ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا ولا ينفعونهم بشيء»[2].

قال الرازي : «قوله : ﴿وَكِيلًا﴾ أي ربًا تكلون أموركم إليه . أقول : حاصل الكلام في الآية : أنه تعالى ذكر تشريف محمد ﷺ بالإسراء، ثم ذكر عقيبه تشريف موسى -عليه الصلاة والسلام- بإنزال التوراة عليه، ثم وصف التوراة بكونها هدى، ثم بين أن التوراة إنما كان هدى لاشتماله على النهي عن اتخاذ غير اللَّه وكيلًا، وذلك هو التوحيد، فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غارقًا في بحر التوحيد، وأن لا يعول في أمر من الأمور إلا على اللَّه، فإن نطق، نطق بذكر اللَّه، وإن تفكر، تفكر في دلائل تنزيه اللَّه تعالى، وإن طلب طلب من اللَّه، فيكون كله لله وبالله»[3].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٥٥-١٥٦).

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ذكر -جلَّ وعلا- في هذه الآية الكريمة من حملهم مع نوح تنبيهًا على النعمة التي نجاهم بها من الغرق. ليكون في ذلك تهييج لذرياتهم على طاعة اللَّه؛ أي: يا ذرية من حملنا مع نوح، فنجيناهم من الغرق، تشبهوا بأبيكم، فاشكروا نعمنا. وأشار إلى هذا المعنى في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[1] الآية.

وبين في مواضع أخر الذين حملهم مع نوح من هم؟ وبين الشيء الذي حملهم فيه، وبين من بقي له نسل وعقب منهم، ومن انقطع ولم يبق له نسل ولا عقب.

فبين أن الذين حملهم مع نوح: هم أهله ومن آمن معه من قومه في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾[2].

وبين أن الذين آمنوا من قومه قليل بقوله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[3].

وبين أن ممن سبق عليه القول من أهله بالشقاء امرأته وابنه. قال في امرأته: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[4]، وقال في ابنه: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[5]، وقال فيه أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾[6] الآية، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ أي الموعود بنجاتهم في قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾[7] الآية، ونحوها من الآيات.

---

(١) مريم: الآية (٥٨).
(٢) هود: الآية (٤٠).
(٣) هود: الآية (٤٠).
(٤) التحريم: الآية (١٠).
(٥) هود: الآية (٤٣).
(٦) هود: الآية (٤٦).
(٧) المؤمنون: الآية (٢٧).

وبين أن الذي حملهم فيه هو السفينة في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾[1] الآية، أي السّفينة، وقوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية. أي أدخل فيها -أي السفينة- ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

وبين أن ذرية من حمل مع نوح لم يبق منها إلا ذرية نوح في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[2]، وكان نوح يحمد الله على طعامه وشرابه، ولباسه وشأنه كله، فسّماه الله عبدًا شكورًا»[3].

قال ابن القيم: «وقد أثنى الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ وفي تخصيص نوح ههنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته، إشارة إلى الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر، فإنه كان عبدا شكورا.

وقد أخبر سبحانه أنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[4]»[5].

قال ابن عاشور: واعلم أن في اختيار وصفهم بأنهم ذرية من حمل مع نوح عليه السلام؛ معانيَ عظيمة من التذكير والتحريض والتعريض؛ لأن بني إسرائيل من ذرية سام بن نوح، وكان سام ممن ركب السفينة.

وإنما لم يقل ذرية نوح مع أنهم كذلك؛ قصدًا لإدماج التذكير بنعمة إنجاء أصولهم من الغرق.

وفيه تذكير بأن الله أنجى نوحًا ومن معه من الهلاك بسبب شكره وشكرهم، تحريضًا على الائتساء بأولئك.

وفيه تعريض بأنهم إن أشركوا ليُوشكن أن ينزل بهم عذاب واستئصال، كما في قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

---

(١) هود: الآية (٤٠). (٢) الصافات: الآية (٧٧).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٣).
(٤) البقرة: الآية (١٧٢). (٥) عدة الصابرين (ص: ١٩٠).

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

وفيه أن ذرية نوح كانوا شقين: شق بار مطيع، وهم الذين حملهم معه في السفينة، وشق متكبر كافر وهو ولده الذي غرق، فكان نوح عليه السلام مثلًا لأبي فريقين، وكان بنو إسرائيل من ذرية الفريق البار، فإن اقتدوا به نَجَوا، وإن حادوا فقد نزعوا إلى الفريق الآخر، فيوشك أن يهلكوا. وهذا التماثل هو نكتة اختيار ذكر نوح من بين أجدادهم الآخرين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، لفوات هذا المعنى في أولئك.

وقد ذكر في هذه السورة استئصال بني إسرائيل مرتين بسبب إفسادهم في الأرض، وعلوهم مرتين، وأن ذلك جزاء إهمالهم وعْدَ اللهِ نوحًا عليه السلام حينما نجاه»[٢].

قال الرازي: «فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ما وجه ملائمته لما قبله؟

قلنا: التقدير كأنه قال: لا تتخذوا من دوني وكيلًا ولا تشركوا بي؛ لأن نوحًا -عليه الصلاة والسلام- كان عبدًا شكورًا، وإنما يكون العبد شكورًا لو كان موحدًا لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل اللَّه، وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام، كما أن آباءكم اقتدوا به، واللَّه أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العبد الشكور هو نوح عليه السلام

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول اللَّه ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع- وكانت تعجبه- فنهس منها نهسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»، الحديث وفيه: «**فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح! إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاك اللَّه عبدًا شكورا**»[٤].

(١) هود: الآية (٤٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٦-٢٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥) والبخاري (٨/ ٥٠٤/ ٤٧١٢)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ٣٢٧) والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦).

★ **غريب الحديث:**

فَنَهَسَ: النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «في الحديث رد على من زعم أن الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ لموسى ﷺ»[1].

* عن سلمان ﷺ قال: كان نوح إذا طعم طعاما أو لبس ثوبا حمد الله فسمي عبدا شكورا[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عطية: «ووصفه بـ«الشكر» لأنه كان يحمد الله في كل حال وعلى كل نعمة على المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ، قاله سلمان الفارسي وسعد بن مسعود وابن أبي مريم وقتادة»[3].

قال ابن القيم: «ولله -تبارك وتعالى- على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما: أحدهما: أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه، والثاني: شكر نعمه التي أنعم بها عليه، فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه، وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه، وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يداركه بذلك هلك، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم، وشهوده لتقصيره أعظم، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله»[4].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه: ابن جرير (١٥/ ١٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١١٣/ ٤٤٧١)، وابن أبي حاتم في التفسير (٧/ ٢٣٠٩/ ١٣١٨٢)، كلهم من طرق عن سفيان عن التيمي عن أبي عثمان عن سلمان. وفي الباب عن سعد بن مسعود الثقفي: أخرجه: ابن جرير (١٥/ ١٩)، والطبراني (٦/ ٣٢/ ٥٤٢٠).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٧).

(٤) عدة الصابرين (ص: ٢٤٦).

يأكل الأكلة، فيحمده عليها، ويشرب الشربة، فيحمده عليها»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «الحمد هنا بمعنى الشكر، وقد قدمنا أن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وفيه دلالة على أن شكر النعمة، وإن قَلَّت سبب نيل رضا اللَّه تعالى، الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة، وسيأتي قول اللَّه ﷻ لأهل الجنة حين يقولون: أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: ما هو؟ ألم تبيض وجوهنا، وتدخلنا الجنة، وتزحزحنا عن النار؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا[٢]، وإنما كان الشكر سببا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، بإيصالها إلى المنعم عليه تفضلا من المنعم، وكرما ومنة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمن ذلك معرفة حق اللَّه وفضله، وحق العبد وفاقته وفقره، فجعل اللَّه تعالى جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة»[٣].

قال المناوي: «وفيه أن أصل سنة الحمد تحصل بأي لفظ اشتق من مادة (ح م د) بل بما يدل على الثناء على اللَّه، والأولى كما كان المصطفى ﷺ يحمد به، وسيأتي. وهذا تنويه عظيم بمقام الشكر حيث رتب هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٤] في مقابلة شكره بالحمد. وعبر بالمرة إشعارا بأن الأكل والشرب يستحق الحمد عليه وإن قل جدا، أو أنه يتعين علينا أن لا نحتقر من اللَّه شيئًا وإن قل. وفيه ندب الدعاء عقبها»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٠) ومسلم (٤/ ٢٠٩٥/ ٢٧٣٤) والترمذي (٤/ ٢٣٣/ ١٨١٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٠٢/ ٦٨٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٨) والبخاري (١١/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٦٥٤٩) ومسلم (٤/ ٢١٧٦/ ٢٨٢٩) والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٥) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٦/ ٧٧٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) المفهم (٧/ ٦٠-٦١).

(٤) التوبة: الآية (٧٢).

(٥) فيض القدير (٢/ ٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

★ غريب الآية:

قَضَينا: أي أعلمنا وأوحينا وحيا جزما.

لتعْلُنَّ: لتطغَوُنَّ ولتعظُمُنَّ.

فَجَاسُوا: أي دخلوا وتوسطوا ووطئوا، وقيل الجوس: طلب الشيء باستقصاء.

خِلاَلَ الدِّيَارِ: أي وسطها، والخلال: جمع، واحده خلل، نحو جبل وجبال، والخلل: الفرجة بين الشيئين.

الْكَرَّةَ: أي الغلبة والظفر، وأصل الكر: العطف على الشيء والعود عليه بالذات أو بالفعل.

نَفِيرًا: أي جمعا وعددا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ أي: تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علوّا كبيرًا؛ أي: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾[1] أي: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

(١) الحجر: الآية (٦٦).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلطنا عليكم جندًا من خلقنا أولي بأس شديد؛ أي: قوة وعدة وسلطة شديدة ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ أي: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم؛ أي: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجَزَريّ وجنوده، سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضًا، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيرًا مقعدًا ضعيفًا يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقًا كثيرًا من بني إسرائيل.

وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولا، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي، رَحِمَهُ اللَّهُ، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص اللَّه تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا اللَّه ولا رسوله إليهم. وقد أخبر اللَّه تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا

من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابن جرير: حدثني يونس بن عبدالأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُختنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلي على كِبًا، فسألهم: ما هذا الدم؟ فقالوا أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين وغيرهم، فسكن.

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقًا منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم»[1].

قلت: هذه كلمة ذهبية من الإمام الحافظ ابن كثير في نقل الرواية الضعيفة والموضوعة، وأن التوثيق ضروري لما كان المنقول في التفسير له مكانة معنوية، فلا يجوز الاعتماد على الموضوعات والساقطات التي تنسب إلى النبي ﷺ أو غيره زورًا وبهتانًا. فهذا منهاج العلم الرصين الذي ينبغي أن يتمثل في كل كتابات المسلم، بل في كلامه وخطبه ومحاضراته ودروسه، بل لأهله وأبنائه وتلامذته، فنرجو الله أن يحيي هذا المنهاج المبارك في أوساط شبابنا وشاباتنا وأبنائنا وبناتنا. اللهم ارض عن أئمة الجرح والتعديل بداية بعصر الصحابة، ومرورًا بكل العصور، وختامًا بشيخنا محمد ناصر الدين الألباني، وببقية العلماء والمشايخ والباحثين والحفاظ في كل إقليم وعصر ومصر من عرب وعجم، فالكل يخدم هدف الإسلام النقي الطاهر الذي لا أحاديث ضعيفة فيه ولا موضوعة، ولا خرافة، ولا شرك، ولا بدعة، والحمد لله رب العالمين.

قال ابن عطية: «ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرسل والكتب وغير ذلك، وأنه سيرسل عليهم أمة تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣-٤٤).

ويجعل لهم الكرّة ويردهم إلى حالهم الأولى من الظهور، فيقع منهم المعاصي وكفر النعم والظلم والقتل والكفر باللَّه من بعضهم، فيبعث اللَّه عليهم أمة أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاء مبرحًا»[1].

قلت: هذا خبر من اللَّه صدق وحق، وأن بني إسرائيل سيقع بهم ما أخبر اللَّه به، فإن كان مر ما أخبر اللَّه -تبارك وتعالى- به -والعلم عند الله- فهو حق وصدق، وإن كان لا يزال هذا الخبر سيقع فيما يستقبل من الزمان، فسيتحقق فيهم وأن الدائرة عليهم لا محالة كما أخبر اللَّه، ولعل واقع اليهود في الوقت الحاضر يصدُق عليه ذلك؛ فإن الغالب عليهم الزندقة والكفر، وهم بعيدون كل البعد عن دين موسى وعيسى وجميع أنبياء بني إسرائيل؛ فسيكون -بإذن الله- جزاؤهم على يد رجل مجاهد يشتت شملهم، ويبيد جمعهم، ويجعل أموالهم وذراريهم غنيمة للمسلمين، هذا مع ملاحظة حال المسلمين اليوم؛ من التنكب عن دينهم طورًا، ومفارقتهم له بالقول أو الفعل طورًا آخر، فأحيانًا ينكر المعلوم منه بالضرورة كالحجاب، وأحيانًا الصلاة والزكاة، وأحيانًا الحدود كحد الزنى والسرقة والقتل. فعلامة الفلاح والصلاح هو الطاعة والانقياد للَّه ولرسوله ولكتابه، وإلا فالغلبة للأقوى والأكثر عدة وعددًا. فنرجو اللَّه أن يهدي ضالهم، وأن يردهم جميعًا ردًّا جميلًا.

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٣٨).

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من أحسن -أي بالإيمان والطاعة- فإنه إنما يحسن إلى نفسه؛ لأن نفع ذلك لنفسه خاصة. وأن من أساء -أي بالكفر والمعاصي- فإنه إنما يسيء على نفسه؛ لأن ضرر ذلك عائد إلى نفسه خاصة.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[1] الآية، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]، وقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لبني إسرائيل فيما قضى إليهم في التوراة ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل، فأطعتم اللَّه وأصلحتم أمركم، ولزمتم أمره ونهيه ﴿أَحْسَنتُمْ﴾ وفعلتم ما فعلتم من ذلك ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأنكم إنما تنفعون بفعلتكم ما تفعلون من ذلك أنفسكم في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا فإن اللَّه يدفع عنكم من بغاكم سوءا، وينمي لكم أموالكم، ويزيدكم إلى قوّتكم قوّة. وأما في الآخرة فإن اللَّه تعالى يثيبكم به جنانه ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ يقول: وإن عصيتم اللَّه وركبتم ما نهاكم عنه حينئذ، فإلى أنفسكم تسيئون؛ لأنكم تسخطون بذلك على أنفسكم ربكم، فيسلط عليكم في الدنيا عدوّكم، ويمكّن منكم من بغاكم سوءا، ويخلدكم في الآخرة في العذاب المهين. وقال جلّ ثناؤه ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ والمعنى: فإليها كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[5]

---

(١) فصلت: الآية (٤٦).

(٢) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).

(٣) الروم: الآية (٤٤).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١٤).

(٥) الزلزلة: الآية (٥).

والمعنى: أوحى إليها»(١).

قال ابن تيمية: «الإحسان ضد الإساءة، وهو فعل الحسن سواء كان لازما لصاحبه أو متعديا إلى الغير، ومنه قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾(٢) ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾(٣) فالكاظم للغيظ والعافي عن الناس قد أحسن إلى نفسه وإلى الناس، فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه، كما يروى عن بعض السلف أنه قال: ما أحسنت إلى أحد وما أسأت إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي وأسأت إلى نفسي، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾(٤) ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحسانا إلى المحسن يعود نفعه عليه لكان فاعلا إثما أو ضررا، فإن العمل الذي لا يعود نفعه على فاعله إما حيث لم يكن فيه فائدة، وإما شر من العبث إذا ضر فاعله»(٥).

قال ابن القيم: «وأما العباد فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾(٦) فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلى بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلا أو آجلا، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان لنفسه، وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقا إلى حصول نفع ذلك الإحسان إليه، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره، فهو أيضًا إنما يحسن إليه ليحصل له منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من اللَّه تعالى في الآخرة، فهو أيضًا محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولم يعجز عنه، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾(٧)

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٣١).
(٢) النمل: الآية (٨٩).
(٣) الأنعام: الآية (١٦٠).
(٤) فصلت: الآية (٤٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٤-٣٦٥).
(٦) محمد: الآية (٣٨).
(٧) الإسراء: الآية (٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[١] وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «**يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد اللّه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه**»[٢][٣].

قلت: رحمة اللّه على هؤلاء العلماء الذين بينوا هذه الآية أحسن بيان، ووضحوها أحسن توضيح، فكل خير يعمله المسلم فهو راجع إليه عاجلًا أو آجلًا، فالإحسان لا يضيع مهما أنكره المحسَن إليه، واللّه -تبارك وتعالى- يحفظ لعباده كل معروف، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو حيوان أو إنسان؛ إلا كان له به صدقة**»[٤]. فالذين يقومون بحفر العيون والآبار، وإحياء الموات وغرس الأشجار، وإحياء القرآن والسنن، وبناء دور الفقراء والأيتام، وإكرام العجزة والمعوقين؛ فإن هؤلاء إن أخلصوا وصدقوا؛ فقد فقهوا الحياة بحق، وعلموا ما للإحسان من أثر. فنرجو اللّه أن يجعلنا ممن أحسن إلى الخلق ولم يسئ إلى أحد مهما قل أو عظم شأنه.

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٧٢).

(٢) جزء من حديث أبي ذر ﷺ الطويل؛ أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧) من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٦٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٨-٢٢٩)، والبخاري (٥/ ٣/ ٢٣٢٠)، ومسلم (٣/ ١١٨٩/ ١٥٥٣)، والترمذي (٣/ ٦٦٦/ ١٣٨٢) وقال: «حسن صحيح»، كلهم من حديث أنس بن مالك ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

★ غريب الآية:

ليُتَبِّرُوا: التبار: الهلاك، وتَبَّرَه يُتَبِّره: بالغ في هلاكه.

حصيرا: أي مكانا ضيقا حاجزا لهم، من حصرته أي ضيقت عليه ومنعته من التصرف، وقيل الحصير: السجن لما فيه من الضيق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة أي: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتۡبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدۡنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقرًا ومحصرًا وسجنًا لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَصِيرًا﴾ أي: سجنًا.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط اللَّه عليهم هذا الحي، محمد ﷺ

وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون»[(١)].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾؛ لما بين -جل وعلا- أن بني إسرائيل قضى إليهم في الكتاب أنهم يفسدون في الأرض مرتين، وأنه إذا جاء وعد الأولى منهما: بعث عليهم عبادًا له أولي بأس شديد، فاحتلوا بلادهم وعذبوهم. وأنه إذا جاء وعد المرة الآخرة: بعث عليهم قومًا ليسوءوا وجوههم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾.

وبين أيضًا: أنهم إن عادوا للإفساد المرة الثالثة فإنه -جل وعلا- يعود للانتقام منهم بتسليط أعدائهم عليهم. وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ولم يبين هنا: هل عادوا للإفساد المرة الثالثة أو لا؟ ولكنه أشار في آيات أخر إلى أنهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسول ﷺ، وكتم صفاته ونقض عهوده، ومظاهرة عدوه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد الله -جل وعلا- للانتقام منهم تصديقًا لقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فسلط عليهم نبيه ﷺ، والمسلمين. فجرى على بني قريظة والنضير، وبني قينقاع وخيبر، ما جرى من القتل، والسبي، والإجلاء، وضرب الجزية على من بقي منهم، وضرْب الذلة والمسكنة.

فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفساد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾[(٤)] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على أنه تعالى عاد للانتقام منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٥).
(٢) البقرة: الآيتان (٨٩و٩٠).
(٣) البقرة: الآية (١٠٠).
(٤) المائدة: الآية (١٣).

وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ﴾[2] الآية، ونحو ذلك من الآيات»[3].

قال ابن جرير: «قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾؛ يقول -تعالى ذكره-: لعلّ ربكم يا بني إسرائيل أن يرحمكم بعد انتقامه منكم بالقوم الذين يبعثهم اللَّه عليكم ليسوء مبعثه عليكم وجوهكم، ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فيستنقذكم من أيديهم، وينتشلكم من الذلّ الذي يحله بكم، ويرفعكم من الخمولة التي تصيرون إليها، فيعزّكم بعد ذلك، وعسى من الله: واجب، وفعل اللَّه ذلك بهم، فكثر عددهم بعد ذلك، ورفع خَساستهم، وجعل منهم الملوك والأنبياء، فقال جلّ ثناؤه لهم: وإن عدتم يا معشر بني إسرائيل لمعصيتي وخلاف أمري، وقتل رسلي، عدنا عليكم بالقتل والسِّباء، وإحلال الذلّ والصَّغار بكم، فعادوا، فعاد اللَّه عليهم بعقابه وإحلال سخطه بهم»[4].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، في قوله: ﴿حَصِيرًا﴾ في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير معروفان عند العلماء، كل منهما يشهد لمعناه قرآن.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية قد يكون فيها وجهان أو أوجه وكلها صحيح ويشهد له قرآن. فنورد جميع ذلك لأنه كله حق:

الأول: أن الحصير: المحبس والسجن، من الحصر وهو الحبس؛ قال الجوهري: يقال حصره يحصره حصرًا: ضَيَّق عليه، وأحاط به. وهذا الوجه يدل له قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[5]، ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) الحشر: الآيات (٢-٤).
(٢) الأحزاب: الآيتان (٢٦-٢٧).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٥-١٦).
(٤) جامع البيان (١٥/ ٤٤).
(٥) الفرقان: الآية (١٣).

الوجه الثاني: أن معنى ﴿حَصِيرًا﴾ أي فراشًا ومهادًا، من الحصير الذي يفرش؛ لأن العرب تسمي البساط الصغير حصيرًا؛ قال الثعلبي: وهو وجه حسن، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1] الآية، ونحو ذلك من الآيات. والمهاد: الفراش»[2].

قال السعدي: «وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنة اللَّه واحدة لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب اللَّه وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض ونصرهم على أعدائهم»[3].

* * *

---

(١) الأعراف: الآية (٤١).
(٢) أضواء البيان (٣/ ١٦-١٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين -جل وعلا- ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. أي الطريق التي هي أسد وأعدل وأصوب.. وهذه الآية الكريمة أجمل اللَّه -جل وعلا- فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، لو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة»[١].

قال ابن عاشور: «وقد جاءت هذه الآية تنفيسًا على المؤمنين من أثر القصص المهولة التي قُصت عن بني إسرائيل، وما حل بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخشية من أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، فأُخبروا بأن في القرآن ما يعصمهم عن الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل، ولذلك ذكر مع الهداية بشارة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ونذارة الذين لا يؤمنون بالآخرة»[٢].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع الأمور، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٤٠).

﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والنذارة وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة وهو الإيمان والعمل الصالح والتي تستحق بها النذارة وهو ضد ذلك»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ يرشد ويسدّد من اهتدى به ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله الذي بعث به أنبياءه وهو الإسلام، يقول جلّ ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به...

وقوله: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: ويبشر أيضًا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله به، وينتهون عما نهاهم عنه بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ من الله على إيمانهم وعملهم الصالحات ﴿كَبِيرًا﴾ يعني ثوابا عظيما، وجزاء جزيلا وذلك هو الجنة التي أعدّها الله تعالى لمن رضي عمله...

وقوله: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يقول -تعالى ذكره-:

وأن الذين لا يصدّقون بالمعاد إلى الله، ولا يقرّون بالثواب والعقاب في الدنيا، فهم لذلك لا يتحاشون من ركوب معاصي الله ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ يقول: أعددنا لهم، لقدومهم على ربهم يوم القيامة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني موجعا، وذلك عذاب جهنم»[2].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيهًا على أن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٤).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٤٦-٤٧).

طاعة اللَّه توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى على القرآن فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾»[١].

وقال: «أما قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: أنه يهدي للتي هي أقوم، وقد مر تفسيره.

والصفة الثانية: أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديًا إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو الأجر الكبير لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل»[٢].

قال أبو السعود: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاءِ، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسبِ بين أعمالهم وجزائِها الذي أنبأ عنه قولُه ﷻ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذابُ جهنمَ أي أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجودَه من الآخرة عذابًا أليمًا، وهو أبلغُ في الزجر لما أن إتيانَ العذابِ من حيث لا يُحتسب أفظعُ وأفجعُ»[٣].

قلت: وصدق اللَّه العظيم في وصف كتابه بالهداية لأكمل الأمور وأفضلها، فمن تعلق به ودعا إليه؛ كان على مثل ما وصف الرب به كتابه، ومن تخلف عنه أو على شيء منه؛ فتتخلف فضيلته، وينقص خيره، وإن خالف التي هي أقوم انحرف وضل وغوى، وبقدر ما يخالف بقدر ما يصيبه من الضلال والهلاك والانحراف، والتاريخ وواقع المسلمين في كل عصر ومصر أكبر شاهد على ذلك، فالصدر الأول

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٦٢).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٦٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٥٨).

الذين أقاموا كتاب اللَّه مكن اللَّه لهم، وجعل هيبتهم في صدور عدوهم، وفتح بهم البلاد والعباد، ووصلوا إلى ما لم يصل إليه أصحاب الصواريخ والتكنولوجيات الحديثة، وسما خلقهم واعتقادهم، وفاقوا كل الأمم سابقيها ولاحقيها، وهاهي الأمم المعاصرة التي تزعم لنفسها الحضارة تنزل في هوة سحيقة، ويكثر فيها قتل الإنسان نفسه لأتفه الأسباب وأقلها، وربما لا لشيء إلا أنه لا يجد للحياة طعمًا ولا لذة، فيقضي على نفسه ويقتلها، والمسلم يعيش بفضل اللَّه أسعد اللحظات، ويتمتع بكامل العافية والنشاط مهما قلّت أمواله وضاقت حيله وتكالب عليه أعداؤه من كل فج وجهة، وهاهي الأمم المعاصرة التي تزعم الحضارة تنتكس وترتكس في أرذل الأخلاق التي لم يسمع بها في التاريخ إلا قوم شذاذ وصفهم اللَّه بأقبح الأوصاف، فوصفهم بالعدو، ووصفهم بأنهم قوم سوء، ووصفهم بأنهم فاسقون، ووصفهم بكل خيانة ودناءة، وهكذا تخبطهم في الأموال، فتجد الواحد منهم لا يأكل درهمًا من الحلال، وإنما يملأ بطنه بالحرام الواضح المقيت.

فيا أهل القرآن! إنكم أوتيتم كنزًا لا نهاية له، ولا فناء له، ولا مثيل له، تزيده الأيام نصاعة وصدقًا وصحة، وتحبه الفطر والنفوس السليمة، يستلذ بسماعه ويشتهى، ويزيده التكرار حلاوة ولذة، وفقهه نعمة وشرف وعزة، والعمل به صحة ومتانة، والدولة إذا قامت عليه حماها اللَّه من كل عدو ومتربص، والتفريط فيه هلاك ودمار وعقوق وانحراف، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: « ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ كأن يدعو على نفسه أو ولده بالهلاك عند الضجر من أمر، فيقول اللهم أهلكني، أو أهلك ولدي، فيدعو بالشر دعاء لا يحب أن يستجاب له. وقوله ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر كما يدعو بالخير فيقول عند الضجر: اللهم أهلك ولدي، كما يقول في غير وقت الضجر: اللهُم عافه، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب اللَّه دعاءه بالشر لهلك، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[١] أي: لو عجّل لهم الإجابة بالشر كما يعجل لهم الإجابة بالخير لقضي إليهم أجلهم أي لهلكوا وماتوا، فالاستعجال بمعنى التعجيل»[٢].

قال ابن كثير: « يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «**لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من اللَّه ساعة إجابة يستجيب فيها**».

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾»[٣].

قال السعدي: «وهذا من جهل الإنسان وعجلته حيث يدعو على نفسه وأولاده

---

(١) يونس: الآية (١١).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٥٤-٥٥).

(٣) التفسير (٥/ ٤٥-٤٦).

بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن اللَّه -من لُطفه- يستجيب له في الخير ولا يستجيب له بالشر، ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن الدعاء بالشر وأن العقل التام والفطرة التامة وحكمة الشرع في بني آدم طلب الخير للنفس وللأبناء ولكل أحد

* عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من اللَّه ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم»**[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «وعن جابر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تدعوا»** أي دعاء سوء، **«على أنفسكم»** أي: بالهلاك ومثله، **«ولا تدعوا على أولادكم»** أي: بالعمى ونحوه، **«ولا تدعوا على أموالكم»** أي: من العبيد والإماء بالموت وغيره، **«لا توافقوا»** نهي للداعي وعلة للنهي؛ أي: لا تدعوا على من ذكر لئلا توافقوا **«من اللَّه ساعة»** أي: ساعة إجابة، **«يسئل»** أي: اللَّه **«فيها عطاء»** بالنصب على أنه مفعول ثان، وفي نسخة بالرفع على أنه نائب الفاعل ليسئل؛ أي: ما يعطى من خير أو شر، كثر استعماله في الخير **«فيستجيب»** بالرفع عطفا على يسأل، أو التقدير: فهو يستجيب **«لكم»** أي: فتندموا..

وقال بعض الشراح: أي: لئلا تصادفوا ساعة إجابة فتستجاب دعوتكم السوء، وفي **«يسأل»** ضمير يرجع إلى اللَّه، وهو صفة ساعة، وكذا فيستجيب وهو منصوب لأنه جواب: لا توافقوا»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٤).
(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٢٣٠٤/ ٣٠٠٩)، وأبو داود (٢/ ١٨٥/ ١٥٣٢).
(٣) مرقاة المفاتيح (٥/ ١١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

★ غريب الآية:

فَمَحَونا: فطمسنا، وأصل المحو: إزالة الأثر وإذهابه.

مُبْصِرَة: مضيئة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه جعل الليل والنهار آيتين، أي علامتين دالتين على أنه الرب المستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره. وكرر تعالى هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[7]، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ

(١) فصلت: الآية (٣٧).
(٢) يس: الآية (٣٧).
(٣) يونس: الآية (٦).
(٤) آل عمران: الآية (١٩٠).
(٥) البقرة: الآية (١٦٤).
(٦) المؤمنون: الآية (٨٠).
(٧) الفرقان: الآية (٦٢).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾[1]، وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[4] الآية، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[5] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾، يعني أنه جعل الليل مظلمًا مناسبًا للهدوء والراحة، والنهار مضيئًا مناسبًا للحركة والاشتغال بالمعاش في الدنيا. فيسعون في معاشهم في النهار، ويستريحون من تعب العمل بالليل. ولو كان الزمن كله ليلًا لصعب عليهم العمل في معاشهم، ولو كان كله نهارًا لأهلكهم التعب من دوام العمل. فكما أن الليل والنهار آيتان من آياته -جل وعلا-، فهما أيضًا نعمتان من نعمه -جل وعلا-.

وبين هذا المعنى المشار إليه هنا في مواضع أخر، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]. فقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في الليل، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: في النهار، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾[7]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[8]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾[9]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[10]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) الزمر: الآية (٥).
(٢) الأنعام: الآية (٩٦).
(٣) الشمس: الآيات (١-٤).
(٤) الليل: الآيتان (١و٢).
(٥) الضحى: الآيتان (١و٢).
(٦) القصص: الآيات (٧١-٧٣).
(٧) النبأ: الآيات (٩-١١).
(٨) الفرقان: الآية (٤٧).
(٩) الروم: الآية (٢٣).
(١٠) الأنعام: الآية (٦٠).

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾، بين فيه نعمة أخرى على خلقه، وهي معرفتهم عدد السنين والحساب؛ لأنهم باختلاف الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون بذلك يوم الجمعة ليصلوا فيه صلاة الجمعة، ويعرفون شهر الصوم، وأشهر الحج، ويعلمون مضي أشهر العدة لمن تعتد بالأشهر المشار إليها في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾[2]، ويعرفون مضي الآجال المضروبة للديون والإجارات، ونحو ذلك.

وبين -جل وعلا- هذه الحكمة في مواضع أخر، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[3]، وقوله -جل وعلا-: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات»[5].

قال الشوكاني: «لما ذكر سبحانه دلائل النبوة والتوحيد، أكدها بدليل آخر من عجائب صنعه، وبدائع خلقه، فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ وذلك لما فيهما من الإظلام والإنارة مع تعاقبهما، وسائر ما اشتملا عليه من العجائب التي تحار في وصفها الأفهام، ومعنى كونهما آيتين أنهما يدلان على وجود الصانع وقدرته، وقدّم الليل على النهار لكونه الأصل»[6].

قال ابن كثير: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عرف شيء

---

(١) الطلاق: الآية (٤).
(٢) البقرة: الآية (٢٣٤).
(٣) يونس: الآية (٥).
(٤) البقرة: الآية (١٨٩).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٥٥-٥٧).
(٦) فتح القدير (٣/ ٣٠٠).

من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٦].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية؛ أي: علامة يعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٧] إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٨]، وكما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[٩].

قال ابن جُرَيْج، عن عبد اللَّه بن كثير في قوله: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار.

وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خلقه اللَّه تعالى.

---

(١) القصص: الآيات (٧١-٧٣).
(٢) الفرقان: الآيتان (٦١و٦٢).
(٣) المؤمنون: الآية (٨٠).
(٤) الزمر: الآية (٥).
(٥) الأنعام: الآية (٩٦).
(٦) يس: الآيتان (٣٧-٣٨).
(٧) يونس: الآية (٥).
(٨) يونس: الآية (٦).
(٩) البقرة: الآية (١٨٩).

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ السواد الذي في القمر»[١].

قال الشنقيطي: «وقوله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ فيه وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير: وجعلنا نيرَى الليل والنهار، أي الشمس والقمر آيتين.

وعلى هذا القول فآية الليل هي القمر، وآية النهار هي الشمس، والمحو الطمس. وعلى هذا القول فمحو آية الليل قيل معناه: السواد الذي في القمر، وبهذا قال علي رضي الله عنه، ومجاهد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: معنى ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي لم نجعل في القمر شعاعًا كشعاع الشمس ترى به الأشياء رؤية بينة. فنقص نور القمر عن نور الشمس هو معنى الطمس على هذا القول.

وهذا أظهر عندي لمقابلته تعالى له بقوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ والقول بأن معنى محو آية الليل: السواد الذي في القمر ليس بظاهر عندي وإن قال به بعض الصحابة الكرام، وبعض أجلاء أهل العلم»[٢].

قال القنوجي: «وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي كل ما تفتقرون إليه في أمر دينكم ودنياكم بيناه تبيينا واضحا لا يلتبس، فهو كقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤]، وإنما ذكر المصدر وهو قوله: تفصيلا لأجل تأكيد الكلام وتقريره، فكأنه قال: فصلناه حقا على الوجه الذي لا مزيد عليه، وعند ذلك تنزاح العلل وتزول الأعذار ليهلك من هلك عن بينة»[٥].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٦-٤٧).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٥٧).

(٣) الأنعام: الآية (٣٨).

(٤) النحل: الآية (٨٩).

(٥) فتح البيان (٧/ ٣٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ: أي جعلناه لازما له، واللزوم هو عدم الانفكاك، وقيل: هو طول مُكْث الشيء مع غيره.

طَائِرَهُ: أي عمله الذي طار عنه من خير وشر.

مَنْشُورًا: أي مبسوطا، بُسِطَ له لِيَظْهَرَ ما فيه من أعمال العباد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «في قوله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ وجهان معروفان من التفسير:

الأول: أن المراد بالطائر: العمل من قولهم: طار له سهم إذا خرج له، أي ألزمناه ما طار له من عمله.

الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم اللَّه من شقاوة أو سعادة. والقولان متلازمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة. . .

أما على القول الأول بأن المراد بطائره عمله، فالآيات الدالة على أن عمل الإنسان لازم له كثيرة جدًا؛ كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[3]، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[4]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن

---

(١) النساء: الآية (١٢٣).
(٢) الطور: الآية (١٦).
(٣) الانشقاق: الآية (٦).
(٤) فصلت: الآية (٤٦).

﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾(١). والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا.

وأما على القول بأن المراد بطائره نصيبه الذي طار له في الأزل من الشقاوة أو السعادة، فالآيات الدالة على ذلك أيضًا كثيرة، كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٣) أي لـلاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾(٤)، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾(٥)، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي جعلنا عمله أو ما سبق له من شقاوة في عنقه، أي لازمًا له لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه، ومنه قول العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا الأمر ربقة في رقبته. ومنه قول الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا طَوقتها طَوْقَ الحَمَامَه

فالمعنى في ذلك كله: اللزوم وعدم الانفكاك.

وقوله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن ذلك العمل الذي ألزم الإنسان إياه يخرجه له يوم القيامة في كتاب يلقاه منشورًا، أي مفتوحًا يقرؤه هو وغيره.

وبين أشياء من صفات هذا الكتاب الذي يلقاه منشورًا في آيات أخر. فبين أن من صفاته أن المجرمين مشفقون أي خائفون مما فيه، وأنه لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنهم يجدون فيه جميع ما عملوا حاضرًا ليس منه شيء غائبًا، وأن اللَّه -جل وعلا- لا يظلمهم في الجزاء عليه شيئًا؛ وذلك في قوله -جل وعلا-: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٦).

وبين في موضع آخر أن بعض الناس يؤتى هذا الكتاب بيمينه -جعلنا اللَّه وإخواننا المسلمين منهم- وأن من أوتيه بيمينه يحاسب حسابًا يسيرًا، ويرجع إلى

(١) الزلزلة: الآيتان (٧و٨).
(٢) التغابن: الآية (٢).
(٣) هود: الآية (١١٩).
(٤) الأعراف: الآية (٣٠).
(٥) الشورى: الآية (٧).
(٦) الكهف: الآية (٤٩).

أهله مسرورًا، وأنه في عيشة راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[2].

وبين في موضع آخر: أن من أوتيه بشماله يتمنى أنه لم يؤته، وأنه يؤمر به فيصلى الجحيم، ويسلك في سلسلة من سلاسل النار ذرعها سبعون ذراعًا. وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[3] أعاذنا الله وإخواننا المسلمين من النار، ومما قرب إليها من قول وعمل.

وبين في موضع آخر: أن من أوتي كتابه وراء ظهره يصلى السعير، ويدعو الثبور؛ وذلك في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[5] يعني أن نفسه تعلم أنه لم يظلم، ولم يكتب عليه إلا ما عمل؛ لأنه في ذلك الوقت يتذكر كل ما عمل في الدنيا من أول عمره إلى آخره، كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[6].

وقد بين تعالى في مواضع أخر أنه إن أنكر شيئًا من عمله شهدت عليه جوارحه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[7]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[8]، وقوله -جل وعلا-: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[9]»[10].

---

(١) الانشقاق: الآيات (٧-٩).
(٢) الحاقة: الآيات (١٩-٢٣).
(٣) الحاقة: الآيات (٢٥-٣٢).
(٤) الانشقاق: الآيات (١٠-١٢).
(٥) الإسراء (١٤).
(٦) القيامة: الآية (١٣).
(٧) يس: الآية (٦٥).
(٨) فصلت: الآيات (٢١-٢٣).
(٩) القيامة: الآيتان (١٤و١٥).
(١٠) أضواء البيان (٣/ ٦٠-٦٢).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه. . .

وقال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[1] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ قد عدل -والله- عليك من جعلك حسيب نفسك. هذا من حَسَنِ كلام الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عقبة بن عامر رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال: **«ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب عز وجل: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»**[3].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: قوله **«وهو يختم عليه»**: أي يصلح أن يختم على مثله إذا مرض وهو عليه، ومعنى الختم على مثله أن يقرر ذلك عملا له فيكتب له ذلك وإن لم يعمل، والمقصود الحث على تحسين عمل كل يوم، حيث يحتمل أن يكون مختوما عليه»[4].

---

(١) ق: الآية (١٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٧-٤٩).
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٦) والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٤/ ٧٨٢) وفي الأوسط (٤/ ١٤٨/ ٣٢٥٧) والحاكم (٤/ ٢٦٠) و(٤/ ٣٠٨-٣٠٩) والبغوي (٥/ ٢٤٠/ ١٤٢٨) من طرق عن عقبة بن عامر به، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٣٠٣): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه ابن لهيعة وفيه كلام»، قلت: رواه عنه عبد الله بن المبارك عند أحمد، قال ابن كثير في التفسير (٥/ ٤٩) بعد أن ساق الحديث من رواية الإمام أحمد: «إسناده جيد قوي ولم يخرجوه».
(٤) حاشية المسند (٢٨/ ٥٥٤).

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن من اهتدى فعمل بما يرضي اللّٰه -جل وعلا-، أن اهتداءه ذلك إنما هو لنفسه لأنه هو الذي ترجع إليه فائدة ذلك الاهتداء، وثمرته في الدنيا والآخرة، وأن من ضل عن طريق الصواب فعمل بما يسخط ربه -جل وعلا-، أن ضلاله ذلك إنما هو على نفسه؛ لأنه هو الذي يجني ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة، فيخلد به في النار.

وبين هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[1] الآية، وقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[2] وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[3] وقوله: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[4]، والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا»[5].

قال القنوجي: «بين سبحانه أن ثواب العمل الصالح وعقاب ضده يختصان بفاعلهما لا يتعديان منه إلى غيره، فمن اهتدى بفعل ما أمره اللّٰه به وترك ما نهاه اللّٰه عنه وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام، فإنما تعود منفعة ذلك إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لم يهتد.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق فلم يفعل ما أمر به ولم يترك ما نهي عنه، ﴿فَإِنَّمَا

---

(١) فصلت: الآية (٤٦).
(٢) الروم: الآية (٤٤).
(٣) الأنعام: الآية (١٠٤).
(٤) يونس: الآية (١٠٨).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٦٣-٦٤).

يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾، أي فإن وبال ضلاله واقع على نفسه لا يجاوزها فكل أحد محاسب عن نفسه مجزي بطاعته معاقب بمعصيته، وهذا حاصل ما تقدم من بيان كون القرآن هاديا لأقوم الطريق، ولزوم الأعمال لصاحبها»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من استقام على طريق الحقّ فاتبعه، وذلك دين اللَّه الذي ابتعث به نبيه محمدا ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ يقول: فليس ينفع بلزومه الاستقامة، وإيمانه باللَّه ورسوله غير نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن جار عن قصد السبيل، فأخذ على غير هدى، وكفر باللَّه وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عند اللَّه من الحقّ، فليس يضرّ بضلاله وجوره عن الهدى غير نفسه؛ لأنه يوجب لها بذلك غضب اللَّه وأليم عذابه.. وإنما عنى بقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ فإنما يكسب إثم ضلاله عليها لا على غيرها»[2].

* * *

---

(١) فتح البيان (٧/ ٣٦٦).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٥٣-٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه لا تحمل نفس ذنب أخرى، بل لا تحمل نفس إلا ذنبها، فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل، من وزر يزر إذا حمل، ومنه سمي وزير السلطان لأنه يحمل أعباء تدبير شؤون الدولة، والوزر: الإثم. يقال: وَزِرَ يَزِرُ وِزْرًا، إذا أثم، والوزر أيضًا: الثقل المثقل؛ أي: لا تحمل نفس وازرة؛ أي: آثمة، وزر نفس أخرى؛ أي: إثمها، أو حملها الثقيل؛ بل لا تحمل إلا وزر نفسها.

وهذا المعنى جاء في آيات أخر؛ كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في سورة (النحل) بإيضاح أن هذه الآيات لا يعارضها قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[4] الآية، ولا قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5] لأن المراد بذلك أنهم حملوا أوزار ضلالهم في أنفسهم، وأوزار إضلالهم غيرهم؛ لأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا»[6].

وقال: «يرد على هذه الآية الكريمة سؤالان:

الأول: ما ثبت في الصحيح عن ابن عمر ﵄ من أن الميت يعذب ببكاء أهله

(١) فاطر: الآية (١٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٣) البقرة: الآية (١٣٤).
(٤) العنكبوت: الآية (١٣).
(٥) النحل: الآية (٢٥).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٦٤).

عليه فيقال: ما وجه تعذيبه ببكاء غيره، إذ مؤاخذته ببكاء غيره قد يظن من لا يعلم أنها من أخذ الإنسان بذنب غيره؟

السؤال الثاني: إيجاب دية الخطأ على العاقلة، فيقال: ما وجه إلزام العاقلة الدية بجناية إنسان آخر؟

والجواب عن الأول هو أن العلماء حملوه على أحد أمرين:

الأول: أن يكون الميت أوصى بالنوح عليه، كما قال طرفة بن العبد في معلقته:

إِذَا مِتُّ فَانْعِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ

لأنه إذا كان أوصى بأن يناح عليه: فتعذيبه بسبب إيصائه بالمنكر، وذلك من فعله لا فعل غيره.

الثاني: أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته مع أنه يعلم أنهم سينوحون عليه؛ لأن إهماله نهيهم تفريط منه، ومخالفة لقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] فتعذيبه إذا بسبب تفريطه، وتركه ما أمر اللَّه به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ الآية وهذا ظاهر كما ترى.

وعن الثاني: بأن إيجاب الدية على العاقلة ليس من تحميلهم وزر القاتل، ولكنها مواساة محضة أوجبها اللَّه على عاقلة الجاني؛ لأن الجاني لم يقصد سوءًا، ولا إثم عليه البتة؛ فأوجب اللَّه في جنايته خطأ الدية بخطاب الوضع، وأوجب المواساة فيها على العاقلة.

ولا إشكال في إيجاب اللَّه على بعض خلقه مواساة بعض خلقه. كما أوجب أخذ الزكاة من مال الأغنياء وردها إلى الفقراء، واعتقد من أوجب الدية على أهل ديوان القاتل خطأ كأبي حنيفة وغيره أنها باعتبار النصرة، فأوجبها على أهل الديوان.

ويؤيد هذا القول ما ذكره القرطبي في تفسيره قال: وأجمع أهل السير والعلم أن الدية كانت في الجاهلية تحملها العاقلة، فأقرها رسول اللَّه ﷺ في الإسلام، وكانوا يتعاقلون بالنصرة، ثم جاء الإسلام فجرى الأمر على ذلك. حتى جعل عمر الديوان. واتفق الفقهاء على رواية ذلك والقول به. وأجمعوا أنه لم يكن في زمن

---

(١) التحريم: الآية (٦).

رسول اللَّه ﷺ، ولا زمن أبي بكر ديوان، وأن عمر جعل الديوان، وجمع بين الناس، وجعل أهل كل ناحية يدًا، وجعل عليهم قتال من يليهم من العدو»[١].

قال ابن كثير: «أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[٢].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٤]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئًا. وهذا من عدل اللَّه ورحمته بعباده»[٥].

قال ابن عاشور: «والمعنى أن وزر أحد لا يحمله غيره، فإذا كان قد تسبب بوزره في إيقاع غيره في الوزر حُمل عليه وزر بوزر غيره؛ لأنه متسبب فيه، وليس ذلك بحمل وزر الغير عليه، ولكنه حمل وزر نفسه عليها، وهو وزر التسبب في الأوزار. وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[٦]، وكذلك وزر من يَسُنّ للناس وزرًا لم يكونوا يعملونه من قبل»[٧].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه

* عن ابن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وإني لجالس بينهما، أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي، فقال عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**».

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك، ثم حدَّث، قال:

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٦٤-٦٥).
(٢) فاطر: الآية (١٨).
(٣) العنكبوت: الآية (١٣).
(٤) النحل: الآية (٢٥).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٩).
(٦) النحل: الآية (٢٥).
(٧) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٠).

صدرت مع عمر ﷺ من مكة، حتى إذا كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سمرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب؟ قال: فنظرت فإذا صهيب، فأخبرته فقال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب، فقلت: ارتحل فالْحَقْ بأمير المؤمنين، فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وا أخاه! وا صاحباه! فقال عمر ﷺ: يا صهيب أتبكي عليّ، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه**».

قال ابن عباس ﷺ: فلما مات عمر ﷺ ذكرت ذلك لعائشة ﷺ فقالت: رحم اللَّه عمر، واللَّه ما حدث رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن اللَّه ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه**». وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قال ابن عباس ﷺ عند ذلك: واللَّه هو أضحك وأبكى. قال ابن أبي مليكة: واللَّه ما قال ابن عمر ﷺ شيئا»[1].

★ فوائد الحديث:

انظر فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ من سورة الأنعام.

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٩٤-١٩٥/ ١٢٨٦-١٢٨٨) ومسلم (٢/ ٦٤١-٦٤٢/ ٩٢٧-٩٢٩) من طريق ابن جريج عن ابن أبي مليكة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ظاهر هذه الآية الكريمة: أن اللَّه -جل وعلا- لا يعذب أحدًا من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة حتى يبعث إليه رسولًا ينذره ويحذره فيعصي ذلك الرسولَ، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١) فصرح في هذه الآية الكريمة: بأنه لا بد أن يقطع حجة كل أحد بإرسال الرسل، مبشرين من أطاعهم بالجنة، ومنذرين من عصاهم النار.

وهذه الحجة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين. بينها في آخر سورة (طه) بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(٢).

وأشار لها في سورة (القصص) بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)، وقوله -جل وعلا-: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾(٤)، وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾(٥) الآية، وكقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ۝١٥٦ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾(٦) الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) النساء: الآية (١٦٥).
(٢) طه: الآية (١٣٤).
(٣) القصص: الآية (٤٧).
(٤) الأنعام: الآية (١٣١).
(٥) المائدة: الآية (١٩).
(٦) الأنعام: الآيات (١٥٥-١٥٧).

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن اللَّه -جل وعلا- لا يعذب أحدًا إلا بعد الإنذار والإعذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام تصريحه -جل وعلا- في آيات كثيرة بأنَّه لم يدخل أحدًا النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، فمن ذلك قوله -جل وعلا-: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾[1] الآية.

ومعلوم أن قوله -جل وعلا-: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾[2] يعم جميع الأفواج الملقين في النار.

قال أبو حيان في «البحر المحيط» في تفسير هذه الآية التي نحن بصددها ما نصه: و﴿كُلَّمَآ﴾ تدل على عموم أزمان الإلقاء فتعم الملقين، ومن ذلك قوله -جل وعلا-: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]، وقوله في هذه الآية: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عام لجميع الكفار»[4].

وقال: «فقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عام في جميع الكفار. وهو ظاهر في أن جميع أهل النار قد أنذرتهم الرسل في دار الدنيا، فعصوا أمر ربهم كما هو واضح.

ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾[5].

فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ﴾ عام أيضًا

---

(١) الملك: الآيتان (٨و٩).

(٢) الملك: الآية (٨).

(٣) الزمر: الآية (٧١).

(٤) أضواء البيان (٣/ ٦٥-٦٧).

(٥) فاطر: الآيتان (٣٦-٣٧).

في جميع أهل النار، كما تقدم إيضاحه قريبًا. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۝ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا.

وهذه الآيات التي ذكرنا وأمثالها في القرآن تدل على عذر أهل الفترة بأنهم لم يأتهم نذير ولو ماتوا على الكفر. وبهذا قالت جماعة أهل العلم.

وذهبت جماعة أخرى من أهل العلم إلى أن كل من مات على الكفر فهو في النار ولو لم يأته نذير، واستدلوا بظواهر آيات من كتاب اللَّه، وبأحاديث عن النبي ﷺ؛ فمن الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[٤]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٦]، وقوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[٧] الآية، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنها لم تخصص كافرًا دون كافر، بل ظاهرها شمول جميع الكفار.

ومن الأحاديث الدالة على أن الكفار لا يعذرون في كفرهم بالفترة ما أخرجه مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أنَّ رجلًا قال: يا رسول اللَّه، أين أبي؟ قال: «في النَّار» فلما قفى دعاه فقال: «إنَّ أبي وأباك في النَّار»[٩] اهـ.

---

(١) غافر: الآيتان (٤٩-٥٠).
(٢) النساء: الآية (١٨).
(٣) البقرة: الآية (١٦١).
(٤) آل عمران: الآية (٩١).
(٥) النساء: الآية (٤٨).
(٦) الحج: الآية (٣١).
(٧) المائدة: الآية (٧٢).
(٨) الأعراف: الآية (٥٠).
(٩) أخرجه مسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٣).

وقال مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه أيضًا: حدثنا يَحْيَى بن أيوب، ومحمد بن عباد واللفظ ليحيى قالا: حدثنا مروان بن معاوية، عن يزيد يعني ابن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي**»[1] حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير ابن حرب قالا: حدثنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النَّبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «**استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكِّر الموت**»[2] اهـ. إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عدم عذر المشركين بالفترة.

وهذا الخلاف مشهور بين أهل الأصول: هل المشركون الذين ماتوا في الفترة وهم يعبدون الأوثان في النار لكفرهم، أو معذورون بالفترة؟ وعقده في «مراقي السعود» بقوله:

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع

ومن ذهب إلى أن أهل الفترة الذين ماتوا على الكفر في النار النووي في شرح مسلم، وحكى عليه القرافي في شرح التنقيح الإجماع، كما نقله عنه صاحب نشر البنود.

وأجاب أهل هذا القول عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ من أربعة أوجه:

الأول: أن التعذيب المنفي في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الآية، وأمثالها من الآيات، إنما هو التعذيب الدنيوي كما وقع في الدنيا من العذاب بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى وأمثالهم، وإذن فلا ينافي ذلك التعذيب في الآخرة.

ونسب هذا القول القرطبي، وأبو حيان، والشوكاني وغيرهم في تفاسيرهم إلى الجمهور.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١/ ٩٧٦ [١٠٧]).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧١/ ٩٧٦ [١٠٨]).

والوجه الثاني: أن محل العذر بالفترة المنصوص في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الآية وأمثالها في غير الواضح الذي لا يخفى على أدنى عاقل. أما الواضح الذي لا يخفى على من عنده عقل كعبادة الأوثان فلا يعذر فيه أحد؛ لأن الكفار يقرون بأن اللَّه هو ربهم، الخالق الرازق، النافع، الضار. ويتحققون كل التحقق أن الأوثان لا تقدر على جلب نفع ولا على دفع ضر، كما قال عن قوم إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[1] وكما جاءت الآيات القرآنية بكثرة بأنهم وقت الشدائد يخلصون الدعاء لله وحده. لعلمهم أن غيره لا ينفع ولا يضر؛ كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[4] الآية، إلى غير ذلك من الآيات، ولكن الكفار غالطوا أنفسهم لشدة تعصبهم لأوثانهم، فزعموا أنها تقربهم إلى اللَّه زلفى، وأنها شفعاؤهم عند اللَّه، مع أن العقل يقطع بنفي ذلك.

الوجه الثالث: أن عندهم بقية إنذار مما جاءت به الرسل الذين أرسلوا قبل نبينا محمد ﷺ، كإبراهيم وغيره، وأن الحجة قائمة عليهم بذلك. وجزم بهذا النووي في «شرح مسلم»، ومال إليه العبادي في «الآيات البينات».

الوجه الرابع: ما جاء من الأحاديث الصحيحة عن النّبي ﷺ، الدالة على أن بعض أهل الفترة في النار، كما قدمنا بعض الأحاديث الواردة بذلك في صحيح مسلم وغيره.

وأجاب القائلون بعذرهم بالفترة عن هذه الأوجه الأربعة، فأجابوا عن الوجه الأول، وهو كون التعذيب في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إنما هو التعذيب الدنيوي دون الأخروي من وجهين:

الأول: أنه خلاف ظاهر القرآن.

لأن ظاهر القرآن انتفاء التعذيب مطلقًا، فهو أعم من كونه في الدنيا، وصرف

---

(١) الأنبياء: الآية (٦٥).

(٢) العنكبوت: الآية (٦٥).

(٣) لقمان: الآية (٣٢).

(٤) الإسراء: الآية (٦٧).

القرآن عن ظاهره ممنوع إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

الوجه الثاني: أن القرآن دل في آيات كثيرة عن شمول التعذيب المنفي في الآية للتعذيب في الآخرة؛ كقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1] وهو دليل على أن جميع أفواج أهل النار ما عذبوا في الآخرة إلى بعد إنذار الرسل، كما تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية.

وأجابوا عن الوجه الثاني -وهو أن محل العذر بالفترة في غير الواضح الذي لا يخفى على أحد- بنفس الجوابين المذكورين آنفًا؛ لأن الفرق بين الواضح وغيره مخالف لظاهر القرآن، فلا بد له من دليل يجب الرجوع إليه، ولأن الله نص على أن أهل النار ما عذبوا بها حتى كذبوا الرسل في دار الدنيا، بعد إنذارهم من ذلك الكفر الواضح، كما تقدم إيضاحه.

وأجابوا عن الوجه الثالث الذي جزم به النووي، ومال إليه العبادي وهو قيام الحجة عليهم بإنذار الرسل الذين أرسلوا قبله ﷺ بأنه قول باطل بلا شك؛ لكثرة الآيات القرآنية المصرحة ببطلانه؛ لأن مقتضاه أنهم أنذروا على ألسنة بعض الرسل والقرآن ينفي هذا نفيًا باتًا في آيات كثيرة؛ كقوله في (يس): ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] و(مَا) في قوله: ﴿أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ نافية على التحقيق، لا موصولة، وتدل لذلك الفاء في قوله ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وكقوله في (القصص): ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[3] الآية، وكقوله في (سبأ): ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾[4]، وكقوله في (ألم السجدة): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[5] الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

وأجابوا عن الوجه الرابع -بأن تلك الأحاديث الورادة في صحيح مسلم وغيره أخبار آحاد يقدم عليها القاطع، وهو قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾،

---

(١) الملك: الآيتان (٨و٩).

(٢) يس: الآية (٦).

(٣) القصص: الآية (٤٦).

(٤) سبأ: الآية (٤٤).

(٥) السجدة: الآية (٣).

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[1]، ونحو ذلك من الآيات.

وأجاب القائلون بالعذر بالفترة أيضًا عن الآيات التي استدل بها مخالفوهم كقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾[2]، إلى آخر ما تقدم من الآيات -بأن محل ذلك فيما إذا أرسلت إليهم الرسل فكذبوهم بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾.

وأجاب القائلون بتعذيب عبدة الأوثان من أهل الفترة عن قول مخالفيهم: إن القاطع الذي هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب بعض أهل الفترة، كحديثي مسلم في صحيحه المتقدمين -بأن الآية عامة، والحديثين كلاهما خاص في شخص معين.

والمعروف في الأصول أنه لا يتعارض عام وخاص؛ لأن الخاص يقضي على العام كما هو مذهب الجمهور، خلافًا لأبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما بيناه في غير هذا الموضع.

فما أخرجه دليل خاص خرج من العموم، وما لم يخرجه دليل خاص بقي داخلًا في العموم، كما تقرر في الأصول.

وأجاب المانعون بأن هذا التخصيص يبطل حكمه العام؛ لأن الله -جل وعلا- تمدح بكمال الإنصاف، وأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في دار الدنيا، وأشار أن ذلك الإنصاف الكامل، والإعذار الذي هو قطع العذر علة لعدم التعذيب. فلو عذب إنسانًا واحدًا من غير إنذار لاختلت تلك الحكمة التي تمدح الله بها، ولثبتت لذلك الإنسان الحجة التي أرسل الله الرسل لقطعها، كما بينه بقوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[3] الآية، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾[4]»[5].

---

(١) الملك: الآيتان (٨و٩).

(٢) النساء: الآية (١٨).

(٣) النساء: الآية (١٦٥).

(٤) طه: الآية (١٣٤).

(٥) أضواء البيان (٣/ ٦٧-٧١).

وقال: «الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي: هل يعذر المشركون بالفترة أو لا؟ هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن اللَّه يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها. فمن اقتحمها دخل الجنة وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا. ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن اللَّه يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق في هذه المسألة لأمرين:

الأول: أن هذا ثبت عن رسول اللَّه ﷺ، وثبوته عنه نص في محل النزاع. فلا وجه للنزاع البتة مع ذلك. .

الأمر الثاني: أن الجمع بين الأدلة واجب متى ما أمكن بلا خلاف؛ لأن إعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما. ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول بالعذر والامتحان. فمن دخل النار فهو الذي لم يمتثل ما أمر به عند ذلك الامتحان، ويتفق بذلك جميع الأدلة، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[2]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن اللَّه تعالى لا يدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه»[5].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٧٣-٧٥).
(٢) الملك: الآيتان (٨و٩).
(٣) الزمر: الآية (٧١).
(٤) فاطر: الآية (٣٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٠).

قال السعدي: «والله تعالى أعدل العادلين لا يعذب أحدا حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة أو لم تبلغه حجة الله تعالى فإن الله تعالى لا يعذبه.

استدل بهذه الآية على أن أهل الفترات وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولا لأنه منزه عن الظلم»[١].

قال الشوكاني: «لما ذكر سبحانه اختصاص المهتدي بهدايته، والضالّ بضلاله، وعدم مؤاخذة الإنسان بجناية غيره، ذكر أنه لا يعذب عباده إلاّ بعد الإعذار إليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، فبين سبحانه أنه لم يتركهم سدًى، ولا يؤاخذهم قبل إقامة الحجة عليهم، والظاهر أنه لا يعذبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ بعد الإعذار إليهم بإرسال الرسل، وبه قالت طائفة من أهل العلم. وذهب الجمهور إلى أن المنفي هنا هو عذاب الدنيا لا عذاب الآخرة»[٢].

قال ابن كثير: «ولما كان الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، روي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد ابن الحنفية وغيرهم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أهل الفترة ومن كان في حكمهم من الولدان والشيوخ ومن لم تبلغهم الرسالة

* عن الأسود بن سريع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، فأما الأصم، فيقول: يا رب، لقد جاء الإسلام، وما أسمع شيئًا، وأما الأحمق، فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب، ما آتاني لك رسول. فيأخذ**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٦).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٠٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٨).

مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولًا أن ادخلوا النار. قال: فوالذي نفسي بيده، لو دخلوها كانت عليهم بردًا وسلامًا»[1].

★ غريب الحديث:

الفترة: الفترة ما بين الرسولين من رسل اللَّه تعالى من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يعذب اللَّه أحدًا حتى يبعث إليه رسولًا، وكما أنه لا يعذبه فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه، فمن لم تبلغه الدعوة فى الدنيا امتحن في الآخرة، ولا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان، فمن لا ذنب له لا يدخل النار، ولا يعذب اللَّه بالنار أحدًا إلا بعد أن يبعث إليه رسولًا، فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه كالصغير والمجنون، والميت في الفترة المحضة، فهذا يمتحن في الآخرة كما جاءت بذلك الآثار»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «نعم قد يشكل على كثير من الناس نصوص لا يفهمونها، فتكون مشكلة بالنسبة إليهم لعجز فهمهم عن معانيها، ولا يجوز أن يكون في القرآن ما يخالف صريح العقل والحس إلا وفي القرآن بيان معناه، فإن القرآن جعله اللَّه شفاءً لما في الصدور، وبيانًا للناس، فلا يجوز أن يكون بخلاف ذلك؛ لكن قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة، حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ. إما ألا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعًا، كالفتن التي تحدث السيف، فالفتن القولية والعملية هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، كما قال مالك بن أنس: إذا قَلَّ العِلْمُ ظهر الجفَاءُ، وإذا قلت الآثار

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٤)، والطبراني (١/ ٢٨٧/ ٨٤١)، والبزار (الكشف ٣/ ٣٣/ ٢١٧٤)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٧٣٥٧). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٥-٢١٦) وقال: رجال أحمد في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار فيهما.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٧).

ظهرت الأهواء.

ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم؛ ولهذا قال أحمد في خطبته: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة بقايا من أهل العلم. فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1]، فأهل الهدى والفلاح هم المتبعون للأنبياء وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان. وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء، يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء.

فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر، لكن اللَّه يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2]، وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[4]، فهؤلاء لا يهلكهم اللَّه ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا. وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا، فإنه يُبْعَثُ إليه رسولٌ يوم القيامة في عَرَصَات القيامة»[5].

قال ابن القيم: «إن اللَّه ﷻ لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[8]، وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب

---

(١) طه: الآية (١٢٣).
(٢) الإسراء: الآية (١٥).
(٣) النساء: الآية (١٦٥).
(٤) القصص: الآية (٥٩).
(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).
(٦) الملك: الآيتان (٨ و ٩).
(٧) الملك: الآية (١١).
(٨) الأنعام: الآية (١٣٠).

الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١]، والظالم من عرف ما جاءَ به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول، وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى اللَّه التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة اللَّه على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أُخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على اللَّه بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال اللَّه ﷻ تابعة لحكمته التي لا يخل بها سبحانه، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات الذي عليه تبنى مع تلقي أحكامها من نصوص الكتاب والسنة، لا من آراء الرجال وعقولهم، ولا يدري عدد الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، واللَّه الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلًا، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ

---

(١) النحل: الآية (١١٨).

يُسْـَٔلُونَ﴾[1]، وهو الفعال لما يريد، وصدق اللَّه وهو أصدق القائلين: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياءَ مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم»[2].

قال النووي معلقًا على حديث أنس أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما قضى دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[3]: «**فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقربين، وفيه أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو من أهل النار، وليس هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء صلوات اللَّه تعالى وسلامه عليهم**»[4].

قال الشيخ الألباني: «إن أهل الجاهلية الذين ماتوا قبل بعثته -عليه الصلاة والسلام- معذبون بشركهم وكفرهم، وذلك يدل على أنهم ليسوا من أهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نبي، خلافًا لما يظنه بعض المتأخرين، إذ لو كانوا كذلك لم يستحقوا العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾»[5].

* عن ابن عباس عن الصعب بن جثامة قال: سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين؟ يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم، فقال: «**هم منهم**»[6].

⋆ غريب الحديث:

الذراري: النساء والصبيان.

يبيتون: أي: يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من المرأة والصبي.

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) طريق الهجرتين (ص: ٤١٣-٤١٤).

(٣) مسلم (رقم ٢٠٣).

(٤) شرح مسلم (٣/ ٦٧).

(٥) الصحيحة (١/ ٢٩٧).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧-٣٨)، والبخاري (٦/ ١٨٠/ ٣٠١٢)، ومسلم (٣/ ١٣٦٤/ ١٧٤٥) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ١٢٣-١٢٤/ ٢٦٧٢)، والترمذي (٤/ ١١٦/ ١٠٧٠) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٥/ ٨٦٢٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٧/ ٢٨٣٩).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين فقال: **«اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»**[(١)].

* عن عائشة ﷺ قالت: دعي رسول اللَّه ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار. فقلت: يا رسول اللَّه طوبى لهذا. عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. قال: **«أو غير ذلك، يا عائشة! إن اللَّه خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»**[(٢)].

* عن أبي رجاء العطاردي قال: سمعت ابن عباس وهو يقول على المنبر: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يزال أمر هذه الأمة موائمًا -أو مقاربًا- ما لم يتكلموا في الولدان والقدر»**[(٣)].

⋆ فوائد الأحاديث:

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وأما اختلاف العلماء في الأطفال، فقالت طائفة: أولاد الناس كلهم المؤمنين منهم والكافرين إذا ماتوا أطفالًا صغارًا لم يبلغوا في مشيئة اللَّه ﷻ يصيرهم إلى ما شاء من رحمة أو عذاب، وذلك كله عدل منه، وهو أعلم بما كانوا عاملين. وقال آخرون: -وهم الأكثر- أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار في المشيئة، وقال آخرون: حكم الأطفال كلهم كحكم آبائهم في الدنيا والآخرة؛ هم مؤمنون بإيمان آبائهم، وكافرون بكفر آبائهم، فأطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار في النار. وقال آخرون: أولاد المسلمين وأولاد الكفار إذا ماتوا صغارًا جميعًا في الجنة. وقال آخرون: أولاد المشركين خدم أهل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٤)، والبخاري (٣/ ٣١٤/ ١٣٨٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٩/ ٢٦٥٩)، والنسائي (٤/ ٣٦٠/ ١٩٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤١)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٠/ ٢٦٦٢[٣١]) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ٨٦/ ٤٧١٣)، والنسائي (٤/ ٣٥٩/ ١٩٤٦)، وابن ماجه (١/ ٣٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه: ابن حبان (الإحسان ١٥/ ١١٨-١١٩/ ٦٧٢٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٦٢/ ١٢٧٦٤)، وفي الأوسط (٥/ ٥٦/ ٤٠٩٨) والحاكم (١/ ٣٣) وصححه ووافقه الذهبي. البزار (الكشف ٣/ ٣٥-٣٦/ ٢١٨٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢) وقال: «رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح».

الجنة. وقال آخرون: يمتحنون في الآخرة. وروت كل طائفة فيما ذهبت إليه من ذلك آثارا وقفت عندها ودانت بها لصحتها لديها»[١].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الآثار التي استدل بها أصحاب القول الأول، وقال: «بهذه الآثار وما كان مثلها احتج من ذهب إلى الوقوف عن الشهادة لأطفال المسلمين أو المشركين بجنة أو نار، وإليها ذهب جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث؛ منهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم. وهو يشبه ما رسمه مالك في أبواب القدر في موطئه، وما أورد في ذلك من الأحاديث، وعلى ذلك أكثر أصحابه، وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال الكفار خاصة في المشيئة لآثار وردت في ذلك»[٢].

قال ابن القيم: «فذهبت طائفة من أهل العلم إلى التوقف في جميع الأطفال، سواء كان آباؤهم مسلمين أو كفارًا، وجعلوهم بجملتهم في المشيئة. . .

واحتج أرباب التوقف بما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبد اللَّه بن مسعود وأنس بن مالك وغيرهما: **«إن اللَّه وكل بالرحم ملكًا، فإذا أراد اللَّه أن يقضي خلقه قال الملك: يا رب، أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك وهو في بطن أمه»**[٣]؛ وكذلك قوله في حديث ابن مسعود: **«ثم يرسل إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد»** متفق على صحته[٤].

ووجه الدلالة من ذلك أن جميع من يولد من بني آدم -إذا كتب السعداء منهم والأشقياء قبل أن يخلقوا- وجب علينا التوقف في جميعهم؛ لأنا لا نعلم هذا الذي توفي منهم هل هو ممن كتب سعيدًا في بطن أمه أو كتب شقيًّا.

واحتجت هذه الطائفة بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

---

(١) فتح البر (٢/ ٢٢٣). (٢) فتح البر (٢/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١١٦-١١٧) والبخاري (١١/ ٥٨٣/ ٦٥٩٥) ومسلم (٤/ ٢٠٣٨/ ٢٦٤٦).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٢) والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣) وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

قالت: دُعي رسول اللَّه ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول اللَّه طوبى لهذا! عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه! قال: «**أَوَغيرَ ذلك يا عائشة؟ إن اللَّه خلق للجنة أهلًا: خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا: خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»؛ وفي لفظ آخر: «**وما يدريك يا عائشة؟**». قَالوا: فهذا الحديث صحيح صريح في التوقف فيهم، فإن الصبي كان من أولاد المسلمين، ودعي النبي ليصلي عليه كما جاء ذلك منصوصًا عليه»[(١)].

ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الأحاديث التي استدل بها أصحاب القول الثاني وقال: «وهذه الأحاديث أكثرها في الصحيح وكلها صحيحة، وهذا القول في أطفال المسلمين هو المعروف من قواعد الشرع حتى إن الإمام أحمد أنكر الخلاف فيه، وأثبت بعضهم الخلاف، وقال: إنما الإجماع على أولاد الأنبياء خاصة»[(٢)].

وقال ابن عبدالبر بعد ذكر حديث أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم**»[(٣)]، وفي بعض طرق الحديث: «**لم يبلغوا الحنث**».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ففي قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «لم يبلغوا الحنث»** ومعناه عند أهل العلم: لم يبلغوا الحلم، ولم يبلغوا أن يلزمهم حنث، دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة لا محالة واللَّه أعلم؛ لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم من أجلهم استحال أن يرحموا من أجل من ليس بمرحوم، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**بفضل رحمته إياهم**» فقد صار الأب مرحومًا بفضل رحمتهم، وهذا على عمومه لأن لفظه ﷺ في هذه الأحاديث لفظ عموم. وقد أجمع العلماء على ما قلنا من أن أطفال المسلمين في الجنة، فأغنى ذلك عن كثير من الاستدلال، ولا أعلم عن جماعتهم في ذلك خلافا إلا فرقة شذت من المجبرة، فجعلتهم في المشيئة، وهو قول شاذ مهجور مردود بإجماع الجماعة، وهم الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغلط في مثل هذا»[(٤)].

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٧١-١٠٧٢). (٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (١١/ ٦٦٣/ ٦٦٥٦) ومسلم (٤/ ٢٠٢٨/ ٢٦٣٢) والترمذي (٣/ ٣٧٤/ ١٠٦٠) والنسائي (٤/ ٣٢٥/ ١٨٧٤) وابن ماجه (١/ ٥١٢/ ١٦٠٣).

(٤) فتح البر (٦/ ٣١٠-٣١١).

قال ابن القيم: «وأبو عمر اضطرب في النقل في هذا الباب، فقال عند كلامه على تأويل الفطرة: قد أجمع المسلمون من أهل السنة وغيرهم إلا المجبرة على أن أولاد المؤمنين في الجنة؛ ثم لما ذكر الأخبار التي احتج بها من قال: إن الأطفال جميعهم في المشيئة. قال: فذكر كلامه المتقدم.. فتأمل كيف ذكر الإجماع على أن أطفال المسلمين في الجنة، وأنه لا يعلم في ذلك نزاعًا، وجعل القَول بالمشيئة فيهم قولًا شاذًا مهجورًا، ونسبه في الباب الآخر إلى الحمَّادَين وابن المبارك وإسحاق بن راهويه وأكثر أصحاب مالك، وهذا من السهو الذي هو عرضة للإنسان، ورب العالمين هو الذي لا يضل ولا ينسى»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما أولاد المشركين فاختلف أهل العلم فيهم على عشرة مذاهب نحن نذكر أدلتها، ونبين راجحها من مرجوحها بحول اللَّه وقدرته وتوفيقه.

المذهب الأول: الوقف في أمرهم ولا نحكم لهم بجنة ولا نار ونكل علمهم إلى اللَّه. وهذا قد يعبر عنه بمذهب الوقف، وقد يعبر عنه بمذهب المشيئة، وأنهم تحت مشيئة اللَّه يحكم فيهم بما يشاء، ولا يدرى حكمه فيهم ما هو. واحتج أرباب هذا القول بحجج منها..»، فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث الفطرة وأحاديث هذا الباب وقال: «وفي استدلال هذه الفرقة على ما ذهبت إليه من الوقف بهذه النصوص نظر، فإن النبي ﷺ لم يُجِب فيهم بالوقف وإنما وَكَلَ علم ما كانوا يعملون لو عاشوا إلى اللَّه، والمعنى «اللَّه أعلم بما كانوا يعملون لو عاشوا».

فهو سبحانه يعلم القابل منهم للهدى العامل به لو عاش، والقابل منهم للكفر المؤثر له لو عاش، ولكن لا يدل هذا على أنه سبحانه يجزيهم بمجرد علمه فيهم بلا عمل يعملونه، وإنما يدل هذا على أنه يعلم من يؤمن ومن يكفر، بتقدير الحياة. وأما المجازاة على العلم فلم يتضمنها جوابه ﷺ».

وفي صحيح أبي عوَانة الأسفراييني عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: كان النبي ﷺ في بعض مغازيه، فسأله رجل: ما تقول في اللاهين؟ فسكت عنه، فلما فرغ من غزوة الطائف إذا هو بصبي يبحث في الأرض، فأمر مناديه فنادى: أين السائل عن اللاهين؟ فأقبل الرجل، فنهى رسول اللَّه ﷺ عن قتل

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٨٣-١٠٨٥).

الأطفال وقال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»[(١)].

فقوله: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**» عقيب نهيه عن قتلهم يكشف لك المعنى ويوضحه ويبيّن أن اللَّه سبحانه يعلم -لو أدركوا- ما كانوا يعملون، وأنتم لا تعلمون ذلك، فلعل أحدهم إذا أدرك يعمل بطاعة اللَّه ويكون مسلمًا. فهذا أحد الوجهين في جوابه ﷺ.

والوجه الثاني: أنه خرج جوابًا لهم حين أخبرهم «أنهم من آبائهم» فقالوا: بلا عمل؟ فقال: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**».

كما في السنن من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول اللَّه، ذراري المؤمنين؟ فقال: «**هم من آبائهم**»، فقلت: يا رسول اللَّه، بلا عمل؟ قال: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**»، قلت: يا رسول اللَّه، فذراري المشركين؟ قال: «**هم من آبائهم**»، قلت: يا رسول اللَّه، بلا عمل. قال: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**»[(٢)].

ففي هذا الحديث ما يدل على أن الذين يلحقون بآبائهم منهم هم الذين علم اللَّه أنهم -لو عاشوا- لاختاروا الكفر وعملوا به، فهؤلاء مع آبائهم.

ولا يقتضي أن كل واحد من الذرية مع أبيه في النار، فإن كان الكلام في هذا الجنس سؤالًا وجوابًا إنما يدل على التفصيل، فإن قوله: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**» يدل على أنهم متباينون في التبعية بحسب تباينهم في معلوم اللَّه تعالى فيهم.

يبقى أن يقال: فالحديث يدل على أنهم يلحقون بآبائهم من غير عمل، ولهذا فهمت منه عائشة رضي الله عنها ذلك فقالت: «**بلا عمل؟**» فأقرها عليه وقال: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**».

ويجاب عن هذا بأن الحديث إنما دل على أنهم يلحقون بهم بلا عمل في أحكام الدنيا، وهو الذي فهمته عائشة رضي الله عنها، ولكن لا ينفي هذا أن يلحقوا بهم في الآخرة بأسباب أخَر كامتحانهم في عرَصات القيامة، كما سنذكره إن شاء اللَّه تعالى،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٠/ ١١٩٠٦) وفي الأوسط (٣/ ١٥-١٦/ ٢٠١٨) والبزار (٣/ ٣٢-٣٣/ ٢١٧٣-الكشف) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٨): «رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه هلال بن خباب وهو ثقة، وفيه خلاف وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٨٤) وأبو داود (٥/ ٨٥/ ٤٧١٢).

فحينئذ يلحقون بآبائهم ويكونون معهم بلا عمل عملوه في الدنيا.

وأم المؤمنين ﵂ إنما استشكلت لحاقهم بهم بلا عمل عملوه مع الآباء، وأجابها النبي ﷺ بأن الله يعلم منهم ما هم عاملوه، ولم يقل لها: إنه يعذب بمجرد علمه فيهم، وهذا ظاهر بحمد الله»[١].

وقال: «المذهب الثاني: أنهم في النار، وهذا قول جماعة من المتكلمين، وأهل التفسير، وأحد الوجهين لأصحاب أحمد، وحكاه القاضي نصًا عن أحمد، وغلطه شيخنا كما سيأتي بيان ذلك.

واحتج هؤلاء بحجج: منها حديث أبي عقيل يحيى بن المتوكل عن بهيّة عن عائشة ﵂ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن أولاد المسلمين: أين هم؟ قال: «**في الجنة**» وسألته عن أولاد المشركين: أين هم يوم القيامة؟ قال: «**في النار**»، فقلت: لم يدركوا الأعمال، ولم تجرِ عليهم الأقلام، قال: «**ربك أعلم بما كانوا عاملين، والذي نفسي بيده لئن شئت أسمعتكِ تضاغيهم في النار**»[٢].

ولكن هذا الحديث قد ضعّفه جماعة من الحفاظ»[٣].

قال أبو عمر: «وهذا الحديث لو صح أيضًا احتمل من الخصوص ما احتمل غيره في هذا الباب، ومما يدل على أنه خصوص لقوم من المشركين قوله: «**لو شئت أسمعتك تضاغيهم في النار**»، وهذا لا يكون إلا فيمن قد مات وصار في النار، وقد عارض هذا الحديث ما هو أقوى منه من الآثار والحمد لله.

ومما احتج به من ذهب إلى القول بظاهر آثار هذا الباب: قول الله ﷿: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[٤] وقوله ﷿ لنوح نبيه ﵇: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[٥] فلما قيل لنوح ذلك وعلم أنهم لا يؤمنون، وأنهم على كفرهم يموتون، دعا عليهم بهلاك جميعهم فقال:

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٨٦-١٠٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠٨) وقال الحافظ في الفتح (٣/ ٣١٥): «وهو حديث ضعيف جدا لأن في إسناده أبا عقيل مولى بهيّة وهو متروك».

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ١٠٩٢-١٠٩٣).

(٤) الطور: الآية (٢١). (٥) هود: الآية (٣٦).

﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] فأخبر أنهم لكفرهم لا يلدون إلا كفارا، وقال ﷺ: «**هم من آبائهم**»»[2].

وقال ابن القيم: «واحتجوا أيضًا بقول اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[3]، وهذا يدل على أن ذرية الكافرين تلحق بهم ولا يلحقون بالمؤمنين وذرياتهم، فإن اللَّه تعالى شرط في الإلحاق إيمان الآباء.

وهذا لا حجة فيه؛ لأن اللَّه تعالى إنما أخبر عن إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم، ولم يخبر عن ذرية الكفار بشيء؛ بل الآية حجة على نقيض ما ادعوه من وجهين: أحدهما: إخباره أنه لم ينقص الآباء بهذا الإلحاق من أعمالهم شيئًا، فكيف يعذب هذه الذرية بلا ذنب؟ الثاني: أنه سبحانه نبه على أن هذا الإلحاق مختص بأهل الإيمان، وأما الكفار فلا يؤاخذون إلا بكسبهم، فقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[4].

واحتجوا أيضًا بقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[5] والفاجرُ والكفّارُ من أهل النار. وهذا لا حجة فيه؛ لأنه إنما أراد به كفار أهل زَمانه قطعًا، وإلا فمنْ بعدهم من الكفار قد ولد بعضهم الأنبياء، كما ولد آزر إبراهيم الخليل.

وأيضًا، فقوله: ﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ حال مقدرة، أي من إذا عاش كان فاجرًا كفارًا، ولم يرد به أن أطفالهم حال سقوطهم يكونون فجرة كفرة...

المذهب الثالث: أنهم في الجنة، وهذا قول طائفة من المفسرين والفقهاء والمتكلمين والصوفية، وهو اختيار أبي محمد بن حزم وغيره. واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جنْدب رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم رؤيا؟**». **قال: فيقص عليه من شاء اللَّه أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة**: «**إنه أتاني الليلة آتيان**» وذكر الحديث.

وفيه: «**فأتينا على روضة مُعْتَمة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري**

---

(١) نوح: الآيتان (٢٦و٢٧).
(٢) فتح البر (٢/ ٢٤٢-٢٤٣).
(٣) الطور: الآية (٢١).
(٤) الطور: الآية (٢١).
(٥) نوح: الآية (٢٧).

الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولًا، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط». ثم قال: «وأمّا الولدان حوله فكل مولود مات على الفطرة»، فقال بعض المسلمين: يا رسول اللَّه، وأولاد المشركين؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«وأولاد المشركين»**[1]. قالوا: فهذا الحديث الصحيح الصريح هو فصل الخطاب. . .

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾[2].

واحتجوا بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[3].

واحتجوا بقوله ﷺ حاكيًا عن ربه تعالى أنه قال: **«إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»**[4].

واحتجوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ﴾[5] الآية، وبقوله في النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[6]، وبقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾[7]، الآية، وبقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[8] الآية، وبقوله لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[9] الآية.

قالوا: والقرآن مملوء من الأخبار بأن دخول النار إنما يكون بالأعمال، بقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[10] وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[11] الآية، وبقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[12]، وقوله: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[13] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَٱدْعُوا وَمَا دُعَٰٓؤُا ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٨-٩) والبخاري (١٢/ ٥٤٢-٥٤٤/ ٧٠٤٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩١-٣٩٢/ ٧٦٥٨).

(٢) الأعراف: الآية (١٧٢).

(٣) الروم: الآية (٣٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٢) ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار ﷺ.

(٥) الليل: الآيتان (١٤و١٥).

(٦) آل عمران: الآية (١٣١).

(٧) الإسراء: الآية (١٥).

(٨) النساء: الآية (١٦٥).

(٩) الأعراف: الآية (١٨).

(١٠) النمل: الآية (٩٠).

(١١) البقرة: الآية (٢٨١).

(١٢) الزخرف: الآية (٧٦).

(١٣) الزخرف: الآيتان (٧٧و٧٨).

ضَلَـٰلٍ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[٢] وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٣]. ونظير ذلك في القرآن كثير.

وأيضًا، فالدار دار جزاء، فلا يدخلها من لا ذنب له، وما ثَم إلا دار الثواب أو دار العقاب. فإذا لم يدخلوا النار دخلوا الجنة.

قالوا: وإذا كان اللَّه ينشئ للجنة خلقًا آخرين يدخلهم إياها بلا عمل، فالأطفال الذين ولدوا في الدنيا أولى بها.

قالوا: وإذا كان كل مولود يولد على الفطرة إلى أن يغيّر أبواه فطرته، فإذا مات قبل التغيير مات على الفطرة، فكان من أهل الجنة.

قالوا: وقد أخبر تعالى أنه خلق عباده حنفاء مسلمين وأن الشياطين اجتالتهم عن دينهم، فمن مات قبل اجتيال الشياطين مات على الحنيفية، فيكون من أهل الجنة.

ودليل ذلك ما روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**إني خلقت عبادي حنفاء**...» الحديث»[٤].

وقال: «وأخباره ﷺ لا تتعارض، فيكون كلامه دالًا على أن بعض هذا الجنس في الجنة وبعضه في النار، وهذا هو الحق كما سيأتي بيانه -إن شاء اللَّه تعالى-»[٥].

قال ابن عبدالبر: «وآثار هذا الباب معارضة لحديث: «**الوائدة والموؤودة في النار**»[٦] وما كان مثله، وإذا تعارضت الآثار وجب سقوط الحكم بها، ورجعنا إلى أن الأصل أنه لا يعذب أحد إلا بذنب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٧]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[٨]، وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى. على أني أقول: إن اللَّه ليس بظلام للعبيد، ولو عذبهم لم يكن ظالمًا لهم، ولكن جَلَّ من تسمى بالغفور الرحيم الرؤوف الحكيم أن تكون صفاته إلا حقيقةً، لا إله

---

(١) غافر: الآيتان (٤٩و٥٠). (٢) سبأ: الآية (١٧).

(٣) المدثر: الآية (٣٨).

(٤) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٠٩-١١١٥).

(٥) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٢١-١١٢٢).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٧٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٧/ ١١٦٤٩) من حديث سلمة بن يزيد الجعفي، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١١٩): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٧) الإسراء: الآية (١٥). (٨) الزمر: الآية (٧١).

إلا هو، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون»[١].

قال ابن القيم: «المذهب الرابع: أنهم في منزلة بين الجنة والنار، فإنهم ليس لهم إيمان يدخلون به الجنة، ولا لآبائهم إيمان يتبعهم أطفالهم فيه تكميلًا لثواب وزيادة في نعيم، وليس لهم من الأعمال ما يستحقون به دخول النار، ولا من الإيمان ما يدخلون به الجنة، والجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، والنار لا يدخلها إلا نفس كافرة، وهذا قول طائفة من المفسرين.

قالوا: وهم أهل الأعراف. قال عبدالعزيز بن يحيي الكناني: هم الذين ماتوا في الفترة، وأطفال المشركين.

وأرباب هذا القول إن أرادوا أن هذا المنزل مستقرهم أبدًا فباطل، فإنه لا مستقر إلا الجنة أو النار.

وإن أرادوا أنهم يكونون فيه مدة، ثم يصيرون إلى دار القرار، فهذا ليس بممتنع.

والصحيح في أهل الأعراف أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم حسناتهم عن النار، وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، فبقوا بين الجنة والنار.

كذا قال غير واحد من الصحابة: منهم حذيفة وأبو هريرة وغيرهما»[٢].

إلى أن قال: «المذهب الخامس: أنهم مردودون إلى محض مشيئة اللَّه تعالى بلا سبب ولا عمل، فيجوز أن يعمهم جميعهم برحمته، وأن يدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار. ولا سبيل لنا إلى إثبات شيء من هذه الأقسام إلا بخبر يجب المصير إليه، وكلها جائزة بالنسبة إلى اللَّه، وإنما يترجح بعضها على بعض بمجرد المشيئة.

وهذا قول الجبرية نفاة الحكمة والتعليل.

وقد ظن كثير من هؤلاء أن هذا جواب النبي ﷺ حين سئل عنهم فقال: **«اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»**، وهذا الفهم غلط على رسول اللَّه ﷺ، وجوابه لا يدل على ذلك أصلًا. بل هو حجة عليهم، فإنه لم يقل: هم في مشيئة اللَّه، يفعل فيهم ما يشاء بلا سبب ولا عمل.

---

(١) الاستذكار (٨/ ٤٠٢-٤٠٣).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٢٤-١١٢٥).

بل أخبر أن اللَّه يعلم أعمالهم التي يستحقون بها الثواب أو العقاب لو عاشوا.

وقد دلت الآثار التي سنذكرها على ظهور معلومه فيهم -في الدار الآخرة- الذي يقع عليه الثواب والعقاب. وهذا المذهب مبني على أصول الجبرية المنكرين للأسباب والحكم والتعليل، وهو مذهب مخالف للعقل والفطرة والقرآن والسنة وجميع ما جاءت به الرسل.

المذهب السادس: أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم، معهم بمنزلة أرقائهم ومماليكهم في الدنيا، وهذا مذهب سَلْمان»[١].

قال ابن حجر: «فيه حديث عن أنس ضعيف أخرجه أبو داود الطيالسي وأبو يعلى[٢]، وللطبراني والبزار من حديث سمرة مرفوعا: «**أولاد المشركين خدم أهل الجنة**»[٣] وإسناده ضعيف»[٤].

قال ابن القيم: «المذهب السابع: أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة، فلا يفردون عنهم بحكم في الدارين: فكَما أنهم منهم في الدنيا فهم منهم في الآخرة.

والفرق بين هذا المذهب ومذهب من يقول: هم في النار؛ أن صاحب هذا المذهب يجعلهم معهم تبعًا لهم، حتى لو أسلم الأبوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لأفراطهما بالنار. وصاحب القول الآخر يقول: هم في النار، لكونهم ليسوا بمسلمين، ولم يدخلوا النار تبعًا»[٥].

وذكر أدلة أصحاب هذا القول وقال: «أما حديث عائشة فالصحيح فيه ما تقدم ذكره، وجواب النبي ﷺ لها بقوله: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**».

وأما حديثها الآخر -وهو قوله: «**هم في النار**»- فلا يصح، وقد تقدم الكلام عليه.

وأما قوله: «**هم من آبائهم**» فليس فيه تعرّض للعذاب، وإنما فيه أنهم منهم في الحكم، وأنهم إذا أصيبوا في البيات لم يضمنوا. وهذا مصرح به في حديث

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٢٦-١١٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢١١١) وأبو يعلى (٧/ ١٣٠-١٣١/ ٤٠٩٠).

(٣) أخرجه البزار (٣/ ٣١-٣٢/ ٢١٧٢-الكشف)، والطبراني (٧/ ٢٤٤/ ٦٩٩٣).

(٤) فتح الباري (٣/ ٣١٥).

(٥) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٣١-١١٣٢).

الصعب والأسود بن سريع أنه في الجهاد.

وأيضًا، فالنبي ﷺ إنما قال: «**هم من آبائهم**» ولم يقل: هم مع آبائهم، وفرق بين اللفظين.

وكونهم «**منهم**» لا يقتضي أن يكونوا «**معهم**» في الآخرة، بخلاف كونهم «**منهم**» فإنه يقتضي أن تثبت لهم أحكَام الآباء في الدنيا من التوارث والحضانة والولاية وغير ذلك من أحكام الإيلاد.

واللَّه تعالى يخرج الطيب من الخبيث، والمؤمن من الكافر. والحديث إنما دل على أنهم «**من آبائهم**»، وهذا لا شك فيه أنهم يولدون منهم.

ولم يرد النبي ﷺ الإخبار بمجرد ذلك وإنما أراد أنهم «**منهم في الحكم**»، وهو لم يقل: على دين آبائهم.

فإن قيل: لو لم يكونوا على دينهم، وكانوا على الحنيفية، كما ذكرتم، لوجب أن يصلى عليهم إذا ماتوا، وأن يدفنوا في مقابر المسلمين، وأن يرثهم أقاربهم المسلمون، وألا يُمَكَّن أبواهم من تهويدهم وتنصيرهم: إذ لا يجوز تمكين الكافر من تهويد المسلم وتنصيره، فدل انتفاء هذا كله على أنهم «**منهم في الدين**»، وأنهم تبع لهم فيه، كما أن أطفال المسلمين منهم في الدين، وأنهم تبع لهم فيه.

قيل: هذا وما نقول سواء إذا لم يكن الطفل مع أبويه أو مع كافله من أقاربه عملًا بمقتضى الفطرة والحنيفية التي خلقوا عليها. وأما إذا كان الطفل بين أبويه فإن الذي خلقه على الفطرة والحنيفية أقر أبويه على تربيته وتهويده وتنصيره، وذلك لضرورة بقاء نوع الكفار في الأرض: إذ لو منع من ذلك مانع - فالآباء يموتون، والأطفال يحكم لهم بحكم الإسلام - لانقطع الكفر من الأرض، وكان الدين كله دين الإسلام، وبطل الجهاد.

والحكمة الإلهية اقتضت أن يكون في الأرض الكفار والمسلمون، والأبرار والفجار إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها؛ وليس في ترك الصلاة عليهم ما يوجب أن يكونوا كفارًا مخلدين، فالشهداء هم من أفاضل المسلمين ولا يصلى عليهم.

وأما انقطاع التوارث بينهم وبين أقاربهم المسلمين فلا يقتضي أيضًا أن يكونوا كفارًا في أحكام الآخرة، فالعبد المسلم لا يرث ولا يورث. وكثير من العلماء

يورث المسلم مال المرتد إذا مات على ردته، وهذا القول هو الصحيح، وهو اختيار شيخنا.

وهذا معاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، ومسروق بن الأجدع، وخلق من الصحابة والتابعين، وإسحاق بن راهويه وغيره من الأئمة يورثون المسلمين من أقاربهم الكفار إذا ماتوا.

وأما حديث ابن مسعود: «**الوائدة والموءُودة في النار**»[١] فقد تقدم أن هذا الحديث إنما يدل على أن بعض الأطفال في النار، ولا يدل على أن كل موءُودة في النار. وقد تقدم جواب أبي محمد بن حزم وما فيه[٢].

وأحسن من هذين الجوابين أن يقال: هي في النار ما لم يوجد سبب يمنع دخولها النار: ففرق بين كون الوأد «مانعًا» من دخول النار وكونه: «غير مانع».

فالنبي ﷺ أخبر أن الموءودة في النار: أي كونها موءودة غير مانع لها من دخول النار بسبب يقتضي الدخول»[٣].

قال: «المذهب الثامن: أنهم يكونون يوم القيامة ترابًا، حكاه أرباب المقالات عن ثمامة بن أشرس، وهذا قول لعله اخترعه من تلقاء نفسه، فلا يعرف عن أحد من السلف.

وكأن قائله رأى أنهم لا ثواب لهم ولا عقاب، فألحقهم بالبهائم، والأحاديث الصحاح والحسان وآثار الصحابة تكذب هذا القول، وترد عليه قوله..

المذهب التاسع: مذهب الإمساك، وهو ترك الكلام في المسألة نفيًا وإثباتًا بالكلية، وجعلها مما استأثر اللَّه بعلمه وطوى معرفته عن الخلق.

قال إسحاق بن راهويه: حدثنا يحيى بن آدم حدثنا جرير بن حازم، عن أبي رجاء العطاردي؛ سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «**لا يزال أمر هذه الأمة موائمًا أو مقاربًا- حتى يتكلموا أو ينظروا في الولدان والقدر**»، وفي لفظ: «**في الأطفال والقدر**».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/ ٨٩-٩٠/ ٤٧١٧) وصححه ابن حبان (١٦/ ٥٢١-٥٢٢/ ٧٤٨٠).

(٢) انظر أحكام أهل الذمة (٢/ ١١١٩).

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٣٢-١١٣٥).

قال يحيى بن آدم: فذكرته لابن المبارك فقال: أيسكت الإنسان على الجهل؟ قلت: فتأمر بالكلام؟ فسكت.

وقال محمد بن نصر: حدثنا عمرو بن زرارة. أخبرنا إسماعيل ابن عُلية عن ابن عون قال: كنت عند القاسم بن محمد إذ جاءه رجل فقال: ما كان بين قتادة وبين حفص بن عمر في أولاد المشركين؟ قال: وتكلم ربيعة الرأي في ذلك فقال القاسم: إن اللَّه انتهى عند شيء فانتهوا وقفوا عنده قال: فكأنما كانت نار فأطفئت!»[1].

قال: «المذهب العاشر: أنهم يمتحنون في الآخرة ويرسل إليهم اللَّه -تبارك وتعالى- رسولًا وإلى كل من لم تبلغه الدعوة: فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار. وعلى هذا، فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار.

وهذا قول جميع أهل السنة والحديث: حكاه الأشعري عنهم في كتاب "الإبانة" الذي اتفق أصحابه على أنه تأليفه، وذكره ابن فُورَك، وذكره أبو القاسم ابن عساكر في تصانيفه، وذكر لفظه في حكايته قول أهل السنة والحديث، وطعن بذلك على من بَدَّعَ الأشعري وضلله.

قال فيه: «وجملة قولنا أن نقر باللَّه -تبارك وتعالى-، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء من عنده، وما روى لنا الثقات عن رسول اللَّه ﷺ لا نرد من ذلك شيئًا»، إلى أن قال: «وقولنا في الأطفال -أطفال المشركين- أن اللَّه ﷻ يؤجج لهم نارًا في الآخرة»، ثم يقول: «اقتحموها» كما جاءت الرواية بذلك».

هذا قوله في الإبانة، وهو من آخر كتبه. وقال في كتاب المقالات: «وإن الأطفال أمرهم إلى اللَّه، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كما يريد»[2].

وذكر رحمه الله أدلة أصحاب هذا المذهب.

قال ابن عبدالبر: «وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٣٥-١١٣٧).
(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٣٧-١١٣٩).

المخلوقين، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يخلو أمر من مات في الفترة من أن يموت كافرا أو غير كافر إذا لم يكفر بكتاب الله ولا رسولٍ، فإن كان قد مات كافرًا جاحدا فإن الله قد حرم الجنة على الكافرين، فكيف يمتحنون وإن كان معذورا بأن لم يأته نذير ولا أرسل إليه رسول، فكيف يؤمر أن يقتحم النار وهي أشد العذاب، والطفل ومن لا يعقل أحرى بأن لا يمتحن بذلك، وإنما أدخل العلماء في هذا الباب النظر لأنه لم يصح عندهم فيه الأثر، وبالله التوفيق لا شريك له»[١].

قال ابن القيم: «فإن قيل: هذه الأحاديث -مع ضعفها- مخالفة لكتاب الله ولقواعد الشريعة، فإن الآخرة ليست دار تكليف، وإنما هي دار جزاء؛ ودار التكليف هي دار الدنيا، فلو كانت الآخرة دار تكليف لكان ثَم دار جزاء غيرها . . .

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن أحاديث هذا الباب قد تضافرت وكثرت بحيث يشد بعضها بعضًا، وقد صحح الحفاظ بعضها كما صحح البيهقي وعبد الحق وغيرهما حديث الأسود بن سريع.

وحديث أبي هريرة إسناده صحيح متصل، ورواية معمر له عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفًا لا تضره، فإنا إن سلكنا طريق الفقهاء والأصوليين في الأخذ بالزيادة من الثقة فظاهر، وإن سلكنا طريق الترجيح -وهي طريقة المحدثين- فليس مَن رَفعهُ بدونِ من وَقفه في الحفظ والإتقان.

الوجه الثاني: أن غاية ما يقدر فيه أنه موقوف على الصحابي، ومثل هذا لا يقدم عليه الصحابي بالرأي والاجتهاد، بل يجزم بأن ذلك توقيف لا عن رأي.

الوجه الثالث: أن هذه الأحاديث يشد بعضها بعضًا، فإنها قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، فيبعد كل البعد أن تكون باطلة على رسول الله ﷺ لم يتكلم بها، وقَد رواها أئمة الإسلام ودونوها ولم يطعنوا فيها.

الوجه الرابع: أنها هي الموافقة للقرآن وقواعد الشرع، فهي تفصيل لما أخبر به القرآن أنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه، وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله في

---

(١) الاستذكار (٨/ ٤٠٤).

الدنيا، فلا بد أن يقيم حجته عليهم، وأحق المواطن أن تقام فيه الحجة يوم يقوم الأشهاد، وتسمع الدعاوى، وتقام البينات، ويختصم الناس بين يدي الرب، وينطق كل أحد بحجته ومعذرته، فلا تنفع الظالمين معذرتهم وتنفع غيرهم.

الوجه الخامس: أن القول بموجبها هو قول أهل السنة والحديث كما حكاه الأشعري عنهم في المقالات، وحكى اتفاقهم عليه وإن كان قد اختار هو فيها أنهم مردودون إلى المشيئة، وهذا لا ينافي القولَ بامتحانهم، فإن ذلك هو موجب المشيئة.

الوجه السادس: أنه قد صح -بذلك- القول بها عن جماعة من الصحابة، ولم يصح عنهم إلا هذا القول. والقول بأنهم خدم أهل الجنة صح عن سلمان، وفيه حديث مرفوع قد تقدم؛ وأحاديث الامتحان أكثر وأصح وأشهر.

الوجه السابع: قوله: «وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب»، جوابه أنه - وإن أنكرها بعضهم- فقد قبلها الأكثرون، والذين قبلوها أكثر من الذين أنكروها وأعلم بالسنة والحديث. وقد حكى فيه الأشعري اتفاق أهل السنة والحديث، وقد بينا أنه مقتضى قواعد الشرع.

الوجه الثامن: أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة، وقالوا: لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف.

الوجه التاسع: ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وأبي سعيد ﵄ في الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولًا إليها: أن اللَّه تعالى يأخذ عهوده ومواثيقه ألا يسأله غير الذي يعطيه، وأنه يخالفه ويسأله غيره، فيقول اللَّه له: ما أغدرك! وهذا الغدر منه لمخالفته العهد الذي عاهده ربه عليه، وهذه معصية منه.

الوجه العاشر: قد ثبت أنه سبحانه يأمرهم في القيامة بالسجود، ويحول بين المخالفين وبينه: وهذا تكليف بما ليس في الوسع قطعًا، فكيف ينكر التكليف بدخول النار اختيارًا؟

الوجه الحادي عشر: أنه قد ثبت امتحانهم في القبور وسؤالهم وتكليفهم الجواب: وهذا تكليف بعد الموت برد الجواب.

الوجه الثاني عشر: أن أمرهم بدخول النار ليس عقوبة لهم، وكيف يعاقبهم على غير ذنب؟ وإنما هو امتحان واختبار لهم: هل يطيعونه أو يعصونه؟ فلو أطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت عليهم بردًا وسلامًا، فلما عصوه وامتنعوا من دخولها استوجبوا عقوبة مخالفة أمره.

والملوك قد تمتحن من يظهر طاعتهم هل هو منطو عليها بباطنه، فيأمرونه بأمر شاق عليه في الظاهر هل يوطن نفسه عليه أم لا، فإن أقدم عليه ووطن نفسه على فعله أعفوه منه، وإن امتنع وعصى ألزموه به أو عاقبوه بما هو أشد منه.

وقد أمر اللَّه سبحانه الخليل بذبح ولده ولم يكن مراده سوى توطين نفسه على الامتثال والتسليم وتقديم محبة اللَّه على محبة الولد، فلما فعل ذلك رفع عنه الأمر بالذبح.

وقد ثبت أن الدجال يأتي معه بمثال الجنة والنار وهي نار في رأي العين ولكنها لا تحرق، فمن دخلها لم تضره: فلو أن هؤلاء يوطنون أنفسهم على دخول النار التي أمروا بدخولها طاعة لله ومحبةً له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه بتحمل ما يؤلمهم لكان هذا الإقدام والقصد منهم لمرضاته ومحبته يقلب تلك النار بردًا وسلامًا، كما قَلَب قصْدُ الخليل -التقرب إلى ربه وإيثار محبته ومرضاته وبذل نفسه وإيثاره إياه على نفسه- تلك النار بأمر اللَّه بردًا وسلامًا.

فليس أمره سبحانه إياهم بدخول النار عقوبة ولا تكليفًا بالممتنع، وإنما هو امتحان واختبار لهم هل يوطنون أنفسهم على طاعته، أو ينطوون على معصيته ومخالفته. وقَد علم سبحانه ما يقع منهم، ولكنه لا يجازيهم على مجرد علمه فيهم ما لم يحصل معلومُه الذي يترتب عليهم به الحجة، فلا أحسن من هذا يفعله بهم، وهو محض العدل والحكمة.

الوجه الثالث عشر: أن هذا مطابق لتكليفه عباده في الدنيا، فإنه سبحانه لم يستفد بتكليفهم منفعة تعود إليه، ولا هو محتاج إليه، وإنما امتحنهم وابتلاهم ليتبين من يؤثر رضاه ومحبته ويشكره ممّن يكفر به ويؤثر سخطه: قد علم منهم من يفعل هذا وهذا، ولكنه بالابتلاء ظهر معلومه الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وتقوم عليهم به الحجة. وكثير من الأوامر التي أمرهم بها في الدنيا نظير الأمر بدخول

النار، فإن الأمر بإلقاء نفوسهم بين سيوف أعدائهم ورماحهم، وتعريضهم لأسرهم لهم وتعذيبهم واسترقاقهم، لعله أعظم من الأمر بدخول النار.

وقد كلف اللَّه بني إسرائيل قتل أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وإخوانهم لما عبدوا العجل لما لهم في ذلك من المصلحة؛ وهذا قريب من التكليف بدخول النار.

وكلف على لسان رسوله المؤمنين إذا رأوا نار الدجال أن يقعوا فيها -لما لهم في ذلك من المصلحة- وليست في الحقيقة نارًا وإن كانت في رأي العين نارًا؛ وكذلك النار التي أمروا بدخولها في الآخرة إنما هي برد وسلام على من دخلها، فلو لم يأتِ بذلك أثر لكان هذا هو مقتضى حكمته وعدله، وموجب أسمائه وصفاته.

الوجه الرابع عشر: أن القائل قائلان: قائل إنه سبحانه يفعل بمحض المشيئة والإرادة من غير تعليل ولا غاية مطلوبة بالفعل، وقائل بمراعاة الحكم والغايات المحمودة والمَصالح. وعلى المذهبين فلا يمتنع الامتحان في عَرَصات القيامة. بل على القول الأول هو ممكن جائز لا يتوقف العلم به على أمر غير إخبار الصادق.

وعلى المذهب الثاني هو الذي لا يليق بالرب سواه ولا تقتضي أسماؤه وصفاته غيره، فهو متعين.

الوجه الخامس عشر: قوله: وليس ذلك في وسع المخلوقين؛ جوابه من وجهين: أحدهما: أنه في وسعهم وإن كان يشق عليهم، وهؤلاء عباد النار يتهافتون فيها ويلقون أنفسهم فيها طاعة للشيطان، ولم يقولوا: «ليس في وسعنا»، مع تألمهم بها غاية الألم، فعباد الرحمن إذا أمرهم أرحم الراحمين بطاعته باقتحامهم النار كيف لا يكون في وسعهم وهو إنما يأمرهم بذلك لمصلحتهم ومنفعتهم؟ والثاني: أنهم لو وطنوا أنفسهم على اتباع طاعته ومرضاته لكانت عين نعيمهم ولم تضرهم شيئًا.

الوجه السادس عشر: أن أمرهم باقتحام النار المفضية بهم إلى النجاة منها بمنزلة الكي الذي يحسم الداء، وبمنزلة تناول الدواء الكريه الذي يعقب العافية، وليس من باب العقوبة في شيء.

فإن اللَّه سبحانه اقتضت حكمته وحمده وغناه ورحمته ألا يعذب من لا ذنب له، بل يتعالى ويتقدس عن ذلك كما يتعالى عما يناقض صفات كماله.

فالأمر باقتحام النار للخلاص منها هو عين الحكمة والرحمة والمصلحة: حتى لو أنهم بادروا إليها طوعًا واختيارًا ورضىً حيث علموا أن مرضاته في ذلك قبل أن يأمرهم به لكان ذلك عين صلاحهم وسبب نجاتهم؛ فلم يفعلوا ذلك ولم يمتثلوا أمره وقد تيقنوا وعلموا أن فيه رضاه وصلاحهم، بل هان عليهم أمره وعزت عليهم أنفسهم أن يبذلوا له منها هذا القدر الذي أمرهم به رحمة وإحسانًا لا عقوبة.

الوجه السابع عشر: أن أمرهم باقتحام النار كأمر المؤمنين بركوب الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف. ولا ريب أن ركوبه من أشق الأمور وأصعبها حتى إن الرسل لتشفق منه، وكل منهم يسأل اللَّه السلامة! فركوب هذا الجسر الذي هو في غاية المشقة كاقتحام النار، وكلاهما طريق إلى النجاة.

الوجه الثامن عشر: قوله: «ولا يخلو من مات في الفترة من أن يكون كافرًا أو غير كافر، فإن كان كافرًا فإن اللَّه حرم الجنة على الكافرين، وإن كان معذورًا بأنه لم يأته رسول فكيف يؤمر باقتحام النار؟»؛ جوابه من وجوه: أحدها: أن يقال: هؤلاء لا يحكم لهم بكفر ولا إيمان، فإن الكفر هو جحود ما جاء به الرسول، فشرط تحققه بلوغ الرسالة، والإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، وهذا أيضًا مشروط ببلوغ الرسالة، ولا يلزم من انتفاء أحدهما وجود الآخر إلا بعد قيام سببه، فلما لم يكن هؤلاء في الدنيا كفارًا ولا مؤمنين كان لهم في الآخرة حكم آخر غير حكم الفريقين.

فإن قيل: فأنتم تحكمون لهم بأحكام الكفار في الدنيا من التوارث والولاية والمناكَحَة.

قيل: إنما نحكم لهم بذلك في أحكام الدنيا لا في الثواب والعقاب، كما تقدم بيانه.

الوجه الثاني: سلمنا أنهم كفار، لكن انتفاء العذاب عنهم لانتفاء شرطه وهو قيام الحجة عليهم، فإن اللَّه تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه حجته.

الوجه الثالث: قوله: «وإن كان معذورًا كيف يؤمر أن يقتحم النار، وهي أشد العذاب؟» فالذي قال هذا يوهم أن هذا الأمر عقوبة لهم، وهذا غلط، وإنما هو تكليف واختبار، فإن بادروا إلى الامتثال لم تضرهم النار شيئًا.

الوجه التاسع عشر: قوله: «كيف يمتحن الطفل ومن لا يعقل؟»، كلام فاسد فإن اللَّه سبحانه يوم القيامة ينشئهم عقلاء بالغين، ويمتحنهم في هذه الحال، ولا يقع الامتحان بهم وهم على الحالة التي كانوا عليها في الدنيا. فالسنة وأقوال الصحابة وموجب قواعد الشرع وأصوله لا تُرَدُّ بمثل ذلك. واللَّه أعلم»[1].

وقال ابن كثير: «وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ النقاد»[2].

وقال ابن تيمية: «وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ، وعن الصحابة والتابعين بأنه في الآخرة يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه الرسالة في الدنيا، وهذا تفسير قوله: «**اللَّه أعلم بما كانوا عاملين**»، وهذا هو الذي ذكره الأشعري في المقالات عن أهل السنة والحديث، وذكر أنه يذهب إليه. وهذا التفصيل يذهب الخصومات التي كره الخوض فيه لأجلها من كرهه، فإن من قطع لهم بالنار كلهم جاءت نصوص تدفع قوله، ومن قطع لهم بالجنة كلهم جاءت نصوص تدفع قوله، ثم إذا قيل: هم مع آبائهم لزم تعذيب من لم يذنب وانفتح باب الخوض في الأمر والنهي والوعد والوعيد والقدر والشرع والمحبة والحكمة والرحمة»[3].

قلت: وهذا مبحث طويل تنازعته الأدلة وأقوال السلف والخلف، والصحيح ما ذهب إليه العلامة ابن القيم وقبله شيخه شيخ الإسلام من الامتحان في الدار الآخرة لكل من لم تبلغه الدعوة، ومن لم يبلغ سن التكليف من أولاد المشركين، ولا شك أن الآخرة دار جزاء، وليست دار امتحان؛ ولكن اللَّه يفعل ما يشاء، فبرحمته وعدله وفضله لا يظلم أحدًا ولا يحمله ما لا يطيق، فهو الرؤوف الرحيم، والمسلم ليس له

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٤٨-١١٥٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٤).

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٠١-٤٠٢).

من الأخبار التي تثبت إلا التصديق، وما صححه علماء الإسلام من نصوص الامتحان لا يمكن رده وتكذيبه، فنقول: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير، فلقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، لا إله إلا أنت، ترفع من تشاء، وتذل من تشاء، وترحم من تشاء، وتعذب من تشاء، ورحمتك سبقت غضبك، وفضلك ظاهر على عبدك، فتعامل عبادك بلطفك ورحمتك، ترحم أطفالهم وجهالهم وشيوخهم وعجزهم، فأنت الواسع الوهاب، سبحانك ما أعظم شأنك، وما أدق حكمك، فعلمك واسع لا نهاية له، وحكمتك بالغة لا تناقض فيها، وشرعك مكتمل وشامل لا نقص فيه ولا خلل.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

مُتْرَفِيهَا: جمع مترف، وهو المتنعم بضروب النعم المتوسع فيها، لا هم له سوى تتبعها.

دَمَّرْنَا: أي: أهلكنا، والتضعيف فيه للتعدية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «في معنى قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ في هذه الآية الكريمة ثلاثة مذاهب معروفة عند علماء التفسير:

الأول: وهو الصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء، أن الأمر في قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره. والمعنى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بطاعة اللَّه وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوا به ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ أي خرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي وجب عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاكًا مستأصلًا. وأكد فعل التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم.

وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة. كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1]. فتصريحه -جل وعلا- بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟﴾ أي أمرناهم بالطاعة فعصوا. وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن اللَّه لا يأمر بالفحشاء.

(١) الأعراف: الآية (٢٨).

ومن الآيات الدالة على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[١]، فقوله في هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾، لفظ عام في جميع المترفين من جميع القرى أن الرسل أمرتهم بطاعة اللَّه فقالوا لهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وتبجحوا بأموالهم وأولادهم. والآيات بمثل ذلك كثيرة. . .

القول الثاني في الآية: هو أن الأمر في قوله ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمر كوني قدري، أي قدرنا عليهم ذلك وسخرناهم له؛ لأن كلًّا ميسر لما خلق له. والأمر الكوني القدري كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[٣]، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٥].

القول الثالث في الآية: أن ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى أكثرنا. أي أكثرنا مترفيها ففسقوا. وقال أبو عبيدة: ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى أكثرنا لغة فصيحة كآمرنا بالمد»[٦].

وقال: «في هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن اللَّه أسند الفسق فيها لخصوص المترفين دون غيرهم في قوله ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ مع أنه ذكر عموم الهلاك للجميع؛ المترفين وغيرهم في قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ يعني القرية، ولم يستثن منها غير المترفين؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن غير المترفين تبع لهم. وإنما خص بالذكر المترفين الذين هم سادتهم وكبراؤهم؛ لأن غيرهم تبع لهم. كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[٧]، وكقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[٨]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾[٩]، وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا

---

(١) سبأ: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٢) القمر: الآية (٥٠).
(٣) البقرة: الآية (٦٥).
(٤) يونس: الآية (٢٤).
(٥) يس: الآية (٨٢).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٧٥-٧٦).
(٧) الأحزاب: الآية (٦٧).
(٨) البقرة: الآية (١٦٦).
(٩) الأعراف: الآية (٣٨).

كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[(٢)] إلى غير ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أن بعضهم إن عصى اللَّه وبغى وطغى ولم ينههم الآخرون فإن الهلاك يعم الجميع. كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[(٣)]»[(٤)].

قال ابن كثير: «اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرًا قدريًا، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾[(٥)]، فإن اللَّه لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضًا.

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا) قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[(٦)]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العَوْفِي عن ابن عباس: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا»[(٧)].

قال ابن جرير: «وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ: ﴿أَمَرْنَا

---

(١) إبراهيم: الآية (٢١).
(٢) غافر: الآية (٤٧).
(٣) الأنفال: الآية (٢٥).
(٤) أضواء البيان (٣/ ٧٨-٧٩).
(٥) يونس: الآية (٢٤).
(٦) الأنعام: الآية (١٢٣).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٥٨).

﴿مُتْرَفِيهَا﴾ بقصر الألف من أمرنا، وتخفيف الميم منها لإجماع الحجة من القراء على تصويبها دون غيرها، وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة؛ فأولى التأويلات به تأويل من تأوله: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها فحق عليهم القول؛ لأن الأغلب من معنى أمرنا: الأمر الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام اللَّه جل ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه أولى ما وجد إليه سبيل من غيره.

ومعنى قوله ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾: فخالفوا أمر اللَّه فيها، وخرجوا عن طاعته ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ يقول: فوجب عليهم بمعصيتهم اللَّه وفسوقهم فيها، وعيد اللَّه الذي أوعد من كفر به، وخالف رسله، من الهلاك بعد الإعذار والإنذار بالرسل والحجج ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ يقول: فخرّبناها عند ذلك تخريبا، وأهلكنا من كان فيها من أهلها إهلاكا»[1].

قال ابن عاشور: «والمترفون هم أهل النعمة، وسعة العيش، وهم معظم أهل الشرك بمكة. وكان معظم المؤمنين يومئذٍ ضعفاء قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[2].

وتعليق الأمر بخصوص المترفين -مع أن الرسل يخاطبون جميع الناس- لأن عصيانهم الأمرَ الموجه إليهم هو سبب فسقهم وفسق بقية قومهم، إذ هم قادة العامة، وزعماء الكفر، فالخطاب في الأكثر يتوجه إليهم، فإذا فسقوا عن الأمر اتبعهم الدهماء، فعم الفسق أو غلب على القرية، فاستحقت الهلاك»[3].

قال القاسمي: «قال القاشاني: إن لكل شيء في الدنيا زوالا، وزواله بحصول استعداد يقتضي ذلك، وكما أن زوال البدن بزوال الاعتدال، وحصول انحراف يبعده عن بقائه وثباته، فكذلك هلاك المدينة وزوالها، بحدوث انحراف فيها عن الجادة المستقيمة التي هي صراط اللَّه، وهي الشريعة الحافظة للنظام، فإذا جاء وقت إهلاك قرية، فلا بد من استحقاقها للإهلاك، وذلك بالفسق والخروج عن طاعة اللَّه، فلما تعلقت إرادته بإهلاكها، تقدمه أولا بالضرورة فسق مترفيها من

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٧).
(٢) المزمل: الآية (١١).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٥٥).

أصحاب الترف والتنعم بطرًا وأشرًا بنعمة اللَّه، واستعمالًا لها فيما لا ينبغي، وذلك بأمر من اللَّه وقدر منه، لشقاوة كانت تلزم استعداداتهم، وحينئذ وجب إهلاكهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن مسعود ﷺ قال: «**كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية: أَمِر بنو فلان**»، وفي رواية: «**أَمَرَ**»[٢].

★ غريب الحديث:

أَمِر: كثر، تقول العرب: أَمِرَ بنو فلان؛ أي: كثروا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «ذكر فيه حديث عبد اللَّه -وهو ابن مسعود-: «**كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية: أمر بنو فلان**» ثم ذكره عن شيخ آخر عن سفيان، يعني بسنده. قال: أمر، فالأولى بكسر الميم، والثانية بفتحها، وكلاهما لغتان، وأنكر ابن التين فتح الميم في أمر بمعنى كثر، وغفل في ذلك، ومن حفظه حجة عليه كما سأوضحه، وضبط الكرماني أحدهما بضم الهمزة، وهو غلط منه، وقراءة الجمهور بفتح الميم، وحكى أبو جعفر عن ابن عباس أنه قرأها بكسر الميم، وأثبتها أبو زيد لغة، وأنكرها الفراء، وقرأ أبو رجاء في آخرين بالمد وفتح الميم، ورويت عن أبي عمرو وابن كثير وغيرهما، واختارها يعقوب، ووجهها الفراء بما ورد من تفسير ابن مسعود، وزعم أنه لا يقال أمرنا بمعنى كثرنا إلا بالمد»[٣].

وقال: «وقرأ أبو عثمان النهدي كالأول، لكن بتشديد الميم بمعنى الإمارة، واستشهد الطبري بما أسنده من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال: سلطنا شرارها، ثم ساق عن أبي عثمان وأبي العالية ومجاهد أنهم قرءوا بالتشديد، وقيل التضعيف للتعدية، والأصل أَمَرْنَا بالتخفيف: أي كَثَّرْنَا

(١) محاسن التأويل (١٠/ ٢١٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٠٣/ ٤٧١١).

(٣) فتح الباري (٨/ ٥٠٣).

كما وقع في هذا الحديث الصحيح . . ويقال أمر بنو فلان أي كثروا ، وأمرهم اللَّه كثرهم ، وأمروا أي كثروا»[١] .

* عن زينب بنت جحش ﵂ أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول : «**لا إله إلا اللَّه ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» . وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها . فقالت زينب بنت جحش : فقلت : يا رسول اللَّه ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «**نعم إذا كثر الخبث**»[٢] .

★ غريب الحديث:

رَدْم : الردم : السد الذي بناه ذو القرنين .

الخبث : بفتح المعجمة والموحدة ثم مثلثة ، فسروه بالزنا ، وبأولاد الزنا ، وبالفسوق والفجور .

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي : «وفائدة قوله : «**نعم**» في هلاك الصالح مع الطالح البيان بأن الخَيِّرَ يهلك بهلاك الشِّرِّير ، وفيه وجهان : أحدهما : أنه إذا لم يغير عليه خبثه ، أو إذا غير لكنه لم ينفع التغيير ، بل كثر المنكر بعد النكير ، فيهلك حينئذ القليل والكثير ، ويحشر كل أحد على نيته ، عدل اللَّه في حكمه بحكمته»[٣] .

قال ابن عبد البر : «دخل هذا في معنى قول اللَّه ﷿ : ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾[٤] . فلم يذكر في النجاة إلا من نهى وسكت عمن لم ينه ، أما من رضي فليس فيه اختلاف ، قال ﷺ في الأمراء : «**ولكن من رضي وتابع**»[٥] ومعلوم أن العقوبة إنما تستوجب بفعل ما نهي عنه ، وترك فعل ما أمر به ، وقد لزم النهي عن المنكر كل

---

(١) فتح الباري (٨/ ٥٠٤) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢٨) والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٦) ومسلم (٤/ ٢٢٠٧/ ٢٨٨٠) والترمذي (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢١٨٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ١١٣١١) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥/ ٣٩٥٣) من طرق عن زينب بنت جحش ﵂ .

(٣) عارضة الأحوذي (٩/ ٣٦) .

(٤) الأعراف : الآية (١٦٥) .

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٥) ومسلم (٣/ ١٤٨٠/ ١٨٥٤) وأبو داود (٥/ ١١٩/ ٤٧٦٠) والترمذي (٤/ ٤٥٨/ ٢٢٦٥) من حديث أم سلمة ﵂ .

مستطيع بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[١] ومن مكن في الأرض لم يضعف عن ذلك، ومن ضعف لزمه التغيير بقلبه، فإذا لم يغير بقلبه فقد رضي وتابع.

وقال عمر بن عبد العزيز: كان يقال إن اللَّه لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا صنع المنكر جهارًا استحقوا العقوبة. ذكره مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم عن عمر بن عبدالعزيز، وهذا معناه إذا قدروا وكانوا في عز وامتناع من الأذى واللَّه أعلم»[٢].

* * *

(١) الحج: الآية (٤١).

(٢) التمهيد (فتح البر- ٢/ ٤١١-٤١٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أهلك كثيرًا من القرون من بعد نوح؛ لأن لفظة «كم» في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾، خبرية، معناها الإخبار بعدد كثير. وأنه -جل وعلا- خبير بصير بذنوب عباده. وأكد ذلك بقوله: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ﴾. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحته آيات أخر من أربع جهات:

الأولى: أن في الآية تهديدًا لكفار مكة، وتخويفًا لهم من أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم من الأمم التي كذبت رسلها. أي أهلكنا قرونًا كثيرة من بعد نوح بسبب تكذيبهم الرسل، فلا تكذبوا رسولنا لئلا نفعل بكم مثل ما فعلنا بهم. والآيات التي أوضحت هذا المعنى كثيرة؛ كقوله في قوم لوط: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وكقوله فيهم أيضًا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[2]، وقوله فيهم أيضًا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[4]، وقوله بعد ذكره -جل وعلا- إهلاكه لقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب في سورة (الشعراء): ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5]، وقوله في قوم موسى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ﴾[7]، وقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة عل تخويفهم بما وقع لمن قبلهم.

---

(١) الصافات: الآيتان (١٣٧-١٣٨).
(٢) الحجر: الآيتان (٧٥-٧٦).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٥).
(٤) محمد: الآية (١٠).
(٥) الشعراء: الآية (٨).
(٦) النازعات: الآية (٢٦).
(٧) هود: الآية (١٠٣).
(٨) الدخان: الآية (٣٧).

الجهة الثانية: أن هذه القرون تعرضت لبيانها آيات أخر. فبينت كيفية إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه من قوم موسى، وذلك مذكور في مواضع متعددة معلومة من كتاب اللّٰه تعالى. وبين أن تلك القرون كثيرة في قوله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾[1]، وبين في موضع آخر: أن منها ما لا يعلمه إلا اللّٰه -جل وعلا-، وذلك في قوله في سورة (إبراهيم): ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]. وبين في موضعين آخرين أن رسلهم منهم من قص خبره على نبينا ﷺ، ومنهم من لم يقصصه عليه. وهما قوله في سورة (النساء): ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[3]، وقوله في سورة (المؤمن): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[4]، الآية...

الجهة الرابعة: أن قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾، فيه أعظم زجر عن ارتكاب ما لا يرضي اللّٰه تعالى.

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جدًّا. كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[5]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن جرير: «وهذا وعيد من اللّٰه -تعالى ذِكره- مكذّبي رسوله محمد ﷺ من مشركي قريش، وتهديدهم لهم بالعقاب، وإعلام منه لهم، أنهم إن لم ينتهوا عما هم عليه مقيمون من تكذيبهم رسوله ﷺ، أنه محلّ بهم سخطه، ومنزل بهم من عقابه ما أنزل بمن قبلهم من الأمم الذين سلكوا في الكفر باللّٰه، وتكذيب رسله سبيلهم.

---

(١) الفرقان: الآية (٣٨).
(٢) إبراهيم: الآية (٩).
(٣) النساء: الآية (١٦٤).
(٤) غافر: الآية (٧٨).
(٥) ق: الآية (١٦).
(٦) هود: الآية (٥).
(٧) أضواء البيان (٣/ ٧٩-٨١).

يقول اللّٰه -تعالى ذكره-: وقد أهلكنا أيها القوم من قبلكم من بعد نوح إلى زمانكم قرونا كثيرة كانوا من جحود آيات اللّٰه والكفر به، وتكذيب رسله، على مثل الذي أنتم عليه، ولستم بأكرم على اللّٰه تعالى منهم؛ لأنه لا مناسبة بين أحد وبين اللّٰه جلّ ثناؤه، فيعذّب قوما بما لا يعذّب به آخرين، أو يعفو عن ذنوب ناس فيعاقب عليها آخرين.

يقول -جلّ ثناؤه-: فأنيبوا إلى طاعة اللّٰه ربكم، فقد بعثنا إليكم رسولا ينبهكم على حججنا عليكم، ويوقظكم من غفلتكم، ولم نكن لنعذّب قوما حتى نبعث إليهم رسولًا منبها لهم على حجج اللّٰه، وأنتم على فسوقكم مقيمون، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: يقول: وحسبك يا محمد باللّٰه خابرًا بذنوب خلقه عالمًا، فإنه لا يخفى عليه شيء من أفعال مشركي قومك هؤلاء، ولا أفعال غيرهم من خلقه، هو بجميع ذلك عالم خابر بصير، يقول: يبصر ذلك كله فلا يغيب عنه منه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر»[1].

قال الشوكاني: «﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ قال الفراء: إنما يجوز إدخال الباء في المرفوع إذا كان يُمدح به صاحبه أو يُذم به، كقولك: كفاك، وأكرم به رجلًا، وطاب بطعامك طعامًا، ولا يقال: قام بأخيك، وأنت تريد: قام أخوك.

وفي الآية بشارة عظيمة لأهل الطاعة، وتخويف شديد لأهل المعصية؛ لأن العلم التام، والخبرة الكاملة، والبصيرة النافذة، تقتضي إيصال الجزاء إلى مستحقه بحسب استحقاقه، ولا ينافيه مزيد التفضل على من هو أهل لذلك، والمراد بكونه سبحانه ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أنه محيط بحقائق الأشياء ظاهرًا وباطنًا، لا تخفى عليه منه خافية»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٧-٥٨).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾

⋆ غريب الآية:

العَاجِلَة: الدنيا.

يَصْلاَهَا: يدخلها، ويلاقي صلاها وهو حرها.

مَذْمُومًا: الذم اللوم، ضد المدح، يقال: ذممته أذمه ذمًّا، فأنا ذامّ وهو مذموم.

مَدْحُورًا: أي: مُقصى، وقيل: مطرودًا، والدحور الطرد والإبعاد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى أن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ أو المنتهى أن اللَّه يعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب اللَّه له في اللوح المحفوظ ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ أي: يباشر عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من اللَّه ومن خلقه، والبعد عن رحمة اللَّه فيجمع له العذاب والفضيحة»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، لا يوقن بمعاد، ولا يرجو ثوابًا ولا عقابًا من ربه على عمله ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ يقول: يعجل اللَّه له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد اللَّه أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يقول: ثم أصليناه عند مقدمه علينا في الآخرة جهنم، ﴿مَذْمُومًا﴾ على قلة شكره إيانا، وسوء صنيعه فيما سلف من أيادينا عنده في الدنيا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٦٧-٢٦٨).

﴿مَّدْحُورًا﴾ يقول: مبعدًا: مقصى في النار»[١].

قال الرازي: «إن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على اللَّه تعالى، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا اللَّه تعالى؛ لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب اللَّه وإهانته»[٢].

قال الشوكاني: « ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: جعلنا له بسبب تركه لما أمر به من العمل للآخرة وإخلاصه عن الشوائب؛ عذابَ جهنم على اختلاف أنواعه ﴿يَصْلَنهَا﴾ في محل نصب على الحال أي: يدخلها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مطرودًا من رحمة اللَّه مبعدًا عنها، فهذه عقوبته في الآخرة، مع أنه لا ينال من الدنيا إلاّ ما قدره اللَّه سبحانه له، فأين حال هذا الشقيّ من حال المؤمن التقيّ؟ فإنه ينال من الدنيا ما قدّره اللَّه له وأراده بلا هلع منه ولا جزع، مع سكون نفسه واطمئنان قلبه وثقته بربه، وهو مع ذلك عامل للآخرة منتظر للجزاء من اللَّه سبحانه، وهو الجنة»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٥٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٨٠-١٨١).
(٣) فتح القدير (٣/ ٣٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾؛ أي: عمل لها عملها الذي تنال به، وهو امتثال أمر اللَّه، واجتناب نهيه بإخلاص على الوجه المشروع ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أي: موحد لله -جل وعلا-، غير مشرك به ولا كافر به، فإن اللَّه يشكر سعيه، بأن يثيبه الثواب الجزيل عن عمله القليل.

وفي الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة؛ لأنه شرط في ذلك قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات. ومفهوم هذه الآيات: أن غير المؤمنين إذا أطاع اللَّه بإخلاص لا ينفعه ذلك. لفقد شرط القبول الذي هو الإيمان باللَّه -جل وعلا-.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المفهوم في آيات أخر؛ كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[4]، وقوله: ﴿مَّثَلُ

---

(١) النساء: الآية (١٢٤). (٢) النحل: الآية (٩٧).

(٣) غافر: الآية (٤٠).

(٤) الفرقان: الآية (٢٣).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾[١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين -جل وعلا- في مواضع أخر: أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى اللَّه يجازى به في الدنيا، ولا حظّ له منه في الآخرة. كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٤]»[٥].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: من أراد الآخرة وإياها طلب، ولها عمل عملها، الذي هو طاعة اللَّه وما يرضيه عنه، وأضاف السعي إلى الهاء والألف، وهي كناية عن الآخرة، فقال: وسعى للآخرة سعي الآخرة، ومعناه:

وعمل لها عملها لمعرفة السامعين بمعنى ذلك، وأن معناه: وسعى لها سعيه لها وهو مؤمن، يقول: هو مؤمن مصدّق بثواب اللَّه، وعظيم جزائه على سعيه لها، غير مكذّب به تكذيب من أراد العاجلة، يقول اللَّه جلّ ثناؤه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: فمن فعل ذلك ﴿كَانَ سَعۡيُهُم﴾ يعني عملهم بطاعة اللَّه ﴿مَّشۡكُورٗا﴾ وشكر اللَّه إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته»[٦].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ فشرط تعالى فيه شروطًا ثلاثة:

الشرط الأول: أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا

---

(١) إبراهيم: الآية (١٨).
(٢) النور: الآية (٣٩).
(٣) هود: الآيتان (١٥-١٦).
(٤) الشورى: الآية (٢٠).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٨١-٨٢).
(٦) جامع البيان (١٥/ ٥٩-٦٠).

سَعَىٰ﴾[1]، ولقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إنما الأعمال بالنيات**»[2] ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة اللَّه تعالى ومحبته، وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية اللَّه تعالى وطلب طاعته.

والشرط الثاني: قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب القرب والطاعات، وكثير من الناس يتقربون إلى اللَّه تعالى بأعمال باطلة، فإن الكفار يتقربون إلى اللَّه تعالى بعبادة الأوثان، ولهم فيه تأويلان:

التأويل الأول: يقولون: إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته، فليس لنا هذا القدر والدرجة، ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد اللَّه تعالى، مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة اللَّه تعالى، فهؤلاء يتقربون إلى اللَّه تعالى بهذا الطريق، إلا أنه لما كان فاسدًا في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به.

والتأويل الثاني لهم: أنهم قالوا: نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند اللَّه تعالى. وهذا الطريق أيضًا فاسد، وأيضًا نقل عن الهند: أنهم يتقربون إلى اللَّه تعالى بقتل أنفسهم تارة، وبإحراق أنفسهم أخرى، ويبالغون في تعظيم اللَّه تعالى، إلا أنه لما كان الطريق فاسدًا لا جرم لم ينتفع به، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى اللَّه تعالى بمذاهبهم الباطلة، وأقوالهم الفاسدة، وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب.

والشرط الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا الشرط معتبر؛ لأن الشرط

---

(١) النجم: الآية (٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٥) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر ﷺ.

في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط، ثم إنه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعي والعمل مبرورًا.

واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة: اعتقاد كونه محسنًا في تلك الأعمال، والثناء عليه بالقول، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظمًا عند ذلك الشاكر، واللَّه تعالى يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال، وأنه تعالى يثني عليهم بكلامه، وأنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظَّمين عند اللَّه تعالى، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلًا كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل اللَّه تعالى»[١].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٨١-١٨٢).

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾

★ غريب الآية:

مَحْظُورًا: ممنوعا، والحظر المنع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يمدّ ربك يا محمد كلا الفريقين من مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة، الساعي لها سعيها وهو مؤمن في هذه الدنيا من عطائه، فيرزقهما جميعا من رزقه إلى بلوغهما الأمد، واستيفائهما الأجل ما كتب لهما، ثم تختلف بهما الأحوال بعد الممات، وتفترق بهما بعد الورود المصادر، ففريق مريدي العاجلة إلى جهنم مصدَرهم، وفريق مريدي الآخرة إلى الجنة مآبهم ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ يقول: وما كان عطاء ربك الذي يؤتيه من يشاء من خلقه في الدنيا ممنوعًا عمن بسطه عليه، لا يقدر أحد من خلقه منعه من ذلك، وقد آتاه الله إياه»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٦٠).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ وفيه قولان:

القول الأول: المعنى: انظر إلى عطائنا المباح إلى الفريقين في الدنيا، كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه إلى مؤمن، وقبضناه عن مؤمن آخر، وأوصلناه إلى كافر، وقبضناه عن كافر آخر، وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾[1]، وقال في آخر سورة الأنعام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾[2].

ثم قال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الإنسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فَبِأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

القول الثاني: أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾[3]»[4].

---

(١) الزخرف: الآية (٣٢). (٢) الأنعام: الآية (١٦٥).

(٣) الفرقان: الآية (٢٤).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٨٣-١٨٤).

قال ابن كثير: «قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيرًا، ومن يعمر حتى يبقى شيخًا كبيرًا، وبين ذلك ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد بعين قلبك إلى هذين الفريقين اللذين هم أحدهما الدار العاجلة، وإياها يطلب، ولها يعمل؛ والآخر الذي يريد الدار الآخرة، ولها يسعى موقنا بثواب اللّٰه على سعيه، كيف فضَّلنا أحد الفريقين على الآخر، بأن بصّرنا هذا رشده، وهديناه للسبيل التي هي أقوم، ويسرناه للذي هو أهدى وأرشد، وخذلنا هذا الآخر، فأضللناه عن طريق الحقّ، وأغشينا بصره عن سبيل الرشد ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ يقول: وفريق مريد الآخرة أكبر في الدار الآخرة درجات بعضهم على بعض، لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة، وأكبر تفضيلا بتفضيل اللّٰه بعضهم على بعض من هؤلاء الفريق الآخرين في الدنيا فيما بسطنا لهم فيها»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة...**» **قال القرطبي:** «يعني أن أهل السفل من الجنة ينظرون إلى من فوقهم على تفاوت منازلهم كما ينظر من على

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٠).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٦١).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٠)، والبخاري (١١/ ٥٠٧/ ٦٥٥٥)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧/ ٢٨٣٠).

الأرض دراري السماء على تفاوت منازلها»[١].

قال ابن حجر: «والمعنى أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل، حتى إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم»[٢].

* * *

(١) المفهم (٧/ ١٧٥).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٠٣).

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية:

مَخذولا: المخذول هو الذي لا ينصره من كان يؤمل منه النصر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، الظاهر أن الخطاب في هذه الآية الكريمة متوجه إلى النَّبي ﷺ. ليشرع لأمته على لسانه إخلاص التوحيد في العبادة له -جل وعلا-؛ لأنه ﷺ معلوم أنه لا يجعل مع اللَّه إلهًا آخر، وأنه لا يقعد مذمومًا مخذولًا.

ومن الآيات الدالة دلالة واضحة على أنه ﷺ يوجه إليه الخطاب، والمراد بذلك التشريع لأمته لا نفس خطابه هو ﷺ؛ قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1]؛ لأن معنى قوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ الآية؛ أي: إن يبلغ عندك والداك أو أحدهما الكبر فلا تقل لهما أف. ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل ذلك بزمن طويل. فلا وجه لاشتراط بلوغهما أو أحدهما الكبر بعد أن ماتا منذ زمن طويل، إلا أن المراد التشريع لغيره ﷺ»[2].

وقال: «وذهب بعض أهل العلم إلى أن الخطاب في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، ونحو ذلك من الآيات؛ متوجه إلى المكلف. ومن أساليب اللغة العربية: إفراد الخطاب مع قصد التعميم»[3].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكًا ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك ﴿مَّخْذُولًا﴾ لأن

---

(١) الإسراء: الآية (٢٣).

(٢) أضواء البيان (٣/ ٨٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٤).

الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك لك ضرًّا ولا نفعًا؛ لأن مالك الضر والنفع هو اللَّه وحده لا شريك له»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: لا تجعل يا محمد مع اللَّه شريكا في ألوهته وعبادته، ولكن أخلص له العبادة، وأفرد له الألوهة، فإنه لا إله غيره، فإنك إن تجعل معه إلها غيره، وتعبد معه سواه، تقعد مذمومًا: يقول: تصير ملوما على ما ضيعت من شكر اللَّه على ما أنعم به عليك من نعمه، وتصييرك الشكر لغير من أولاك المعروف، وفي إشراكك في الحمد من لم يشركه في النعمة عليك غيره، مخذولا قد أسلمك ربك لمن بغاك سوءا، وإذا أسلمك ربك الذي هو ناصر أوليائه لم يكن لك من دونه وليّ ينصرك ويدفع عنك»[٢].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد لجميع الخلق. قاله الطبري وغيره. والذم هنا لاحق من اللَّه تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عودًا أو حجرًا أفضل من نفسه، ويخصه بالكرامة، وينسب إليه الألوهية، ويشركه مع اللَّه الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه»[٣].

قلت: رحمة اللَّه على المفسر ابن عطية في توضحيه لهذه الآية من أن الإنسان يعمد فيجعل عودًا أو حجرًا أو رميمًا في قبره، أو مغارة حفرها، أو شجرة غرسها، أو حيوانًا يجوع ويعطش ويبول ويتغوط، أو كوكبًا يظهر ويختفي، أو غيرها من المخلوقات، فيفضلها على نفسه، ويجعل لها قربات من نذر، ويقسم بها في أيمانه، ويجعل لها كل خصائص الألوهية، فلا شك في سفاهة هذه العقول وفي مرضها، وأنها عقول عابثة لا تدري الخير والشر والنفع والضر، ومن يخذلها وينصرها، وينفعها ويضرها، ويحييها ويميتها، وينشرها ويبعثها، فمن لم يملك هذا فما هي الفائدة في صرف شيء من الألوهية له؟!! إن هذا لهو الحمق حقًّا، والضياع الذي وراءه الخلود في النار، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

قال ابن عاشور: «إن خلاصة أسباب الفوز ترك الشرك؛ لأن ذلك هو مبدأ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٠)

(٢) جامع البيان(١٥/ ٦١_٦٢)

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٧).

الإقبال على العمل الصالح، فهو أول خطوات السعي لمريد الآخرة؛ لأن الشرك قاعدة اختلال التفكير وتضليل العقول، قال اللَّه تعالى في ذكر آلهة المشركين: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الإنسان إذا أصابته الفاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها باللَّه أوشك اللَّه له بالغنى إما بموت عاجل، أو غنى عاجل**»[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

فاقته: الفاقة: الشدة والحاجة.

⋆ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«فأنزلها بالناس»** أي عرضها عليهم وسألهم سد خلته **«لم تسد فاقته»** لتركه القادر على حوائج جميع الخلق الذي لا يغلق بابه، وقصد من يعجز عن جلب نفع نفسه ودفع ضرها، **«ومن أنزلها باللَّه أوشك»** بفتح الهمزة والشين **«اللَّه له بالغنى»** أي: أسرع غناه وعجله»[(٤)].

قال العلقمي: «بل يغضب اللَّه على من أنزل حاجته لغيره العاجز، وهو القادر على قضاء حوائج خلقه كلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، وقد قال وهب بن منبه لرجل يأتي الملوك: ويحك أتاتي من يغلق عنك بابه، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه، ويظهر لك غناه. فالعبد عاجز عن جلب مصالحه ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا اللَّه تعالى»[(٥)].

---

(١) هود: الآية (١٠١).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٦٤).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٩)، وأبو داود (٢/ ٢٩٦/ ١٦٤٥)، والترمذي (٤/ ٤٨٧-٤٨٨/ ٢٣٢٦)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم (١/ ٤٠٨) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) فيض القدير (٦/ ٦٦).

(٥) هامش فيض القدير (٦/ ٦٦).

قال القاري: «وخلاصته أن من اعتمد في سدها على سؤال الناس لم تقض حاجته ولم تزل فاقته وكلما سدت حاجة أصابته أخرى أشد منها. وقوله: «**بموت عاجل**» أي: موت قريب له غني فيرثه «**أو غنى عاجل**» بأن يعطيه مالًا ويجعله غنيًا، ولعل هذا الحديث مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)»(٢).

قال ابن تيمية: «فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم ويترك الشكوى إلى اللَّه، فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس، وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٣)»(٤).

وقال: «الأسباب نوعان: سبب مأمور به، فهذا طاعة وعبادة لله كطلب الرزق بالصناعة والتجارة، وكدفع العدو بالقتال، والأكل عند الجوع، واللباس عند البرد، فهذا ليس فيه إنزال الفاقة بهم ولا شكوى إليهم، وأما نفس سؤال الناس فسؤالهم في الأصل محرم بالنصوص المحرمة له، وإنما يباح عند الضرورة.

وتنازع العلماء هل يجب سؤالهم عند الضرورة؛ فالمنصوص عن أحمد أنه لا يجب سؤال الخلق مع إيجابه مع غيره من الأئمة الأربعة وغيرهم الأكلَ من الميتة عند الضرورة، فإن اللَّه ﷻ لم يوجب سؤال الخلق؛ بل قد وصى النبي ﷺ طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئًا، وكان أحدهم إذا سقط سوطه لا يقول لأحد ناولني إياه، منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وصاحب الفاقة إذا أنزلها باللَّه تعالى أنزلها بالغني الملي العليم القدير إذا سأل اللَّه تعالى، وقيل يجب السؤال، وهذا منقول عن الثوري، وهو اختيار أبي الفرج ابن الجوزي، وعلى هذا قال قائل: يسأل الناس ما يجب عليهم أن يعطوه إياه، إما من الزكاة وإما من غيرها، فإن إطعام الجائع فرض على الكفاية من الناس..

ونقل المروزي عن أحمد أنه إذا علم صدق السائل وجب أن يعطيه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾(٥)، وإذا كان يسألهم ما أوجب اللَّه

(١) الطلاق: الآيتان (٢-٣).
(٢) المرقاة (٤/ ٣٦٠).
(٣) يوسف: الآية (٨٦).
(٤) الرد على البكري (١/ ٣٩٩-٤٠٠).
(٥) المعارج: الآيتان (٢٤-٢٥).

تعالى عليهم كان بمنزلة أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه الذي جعل اللَّه له في المال، وسؤال ذي السلطان جائز كمن سأل المودع أن يرد عليه وديعته، وأن يعطيه حقه من الميراث والمغنم أو نحو ذلك.

وعلى هذا فليس للسائل أن يسأل من لا فضل عنده، وليس له أن يعتدي في السؤال على الناس، وليس له أن يجزع ويعدل عن الصبر الجميل، وعليه أن يرغب إلى اللَّه تعالى ويتوكل عليه. وحينئذ فلا يكون قد أنزلها بالناس مع أن القول الأول وهو عدم وجوب السؤال أظهر، فإن النصوص تقتضي أن ترك سؤال الخلق أفضل مطلقا.. وقد قال تعالى: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]، فقد بين أنه كافي من توكل عليه، وأنه لا بد أن يرزق المتقي من حيث لا يحتسب، والميتة رزق ساقه اللَّه إليه عند الضرورة، فليس له أن يمتنع من أكله، فيعين على قتل نفسه، ولو أتاه مال من غير مسألة ولا إشراف نفس أخذه.

وهذا كله يدل على أن سؤال الخلق والاستغاثة بهم حرام في الأصل، لا يباح إلا لضرورة، وهو في الأظهر أشد تحريمًا من الميتة، فكيف يقال إنه مأمور به فيما لا يقدر عليه الخلق، وهل قال أحد إن سؤال المخلوق والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه تعالى مأمور به أو مباح، ومن هنا يظهر الوجه السادس قوله: والمراد به التنبيه على الرجوع إلى اللَّه تعالى بالقلب لا بترك السبب بل أن يذكر اللَّه تعالى في ذلك السبب، فيقال له هذا إنما يصح إذا كان السبب مشروعًا، فإن السبب المشروع لا ينافي التوكل، والكلام هنا فيمن يستغيث بالخلق فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، كما قيل في الجواب، فأما ما لا يقدر عليه إلا اللَّه تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من اللَّه تعالى، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم، ومعلوم أن سؤال الخلق مثل هذا باطل شرعا وعقلا، فمن الذي جعل هذا من الأسباب الشرعية. ومن قال: إن النبي ﷺ إذا لم يكن عنده شيء يعطيه فينبغي للإنسان أن يسأله ويستغيث به، وإذا لم يمكنه دفع العدو ينبغي للإنسان أن يسأله ويستغيث به في ذلك.

وقد تقدمت النصوص عن النبي ﷺ بأنه كان يمدح من لا يسأله مطلقا، ويذم من

---

(١) الطلاق: الآية (٣).

يسأله ما لا يحب أن يعطيه، ويذم من يسأله ما لا يقدر عليه، فسؤاله والاستغاثة في ذلك أذى وعدوان عليه، يحرم فعله معه ﷺ أعظم مما يحرم أذى غيره والعدوان عليه، مع ما فيه من الشرك والجزع، وقد كان الصحابة -رضوان اللَّه عليهم- نهوا أن يسألوه»[١].

* * *

(١) الرد على البكري (١/ ٤٠١-٤٠٨).

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

قَضَى: حكم وبت وأمر.

أُفّ: كلمة يضجر بها، وهي اسم فعل مضارع معناه: أتضجر، وأصله من الأف، وهو وسخ الآذان، وقيل: الأف الاحتقار، وأصله من الأفف وهو الشيء القليل.

لاَ تَنْهَرْهُمَا: لا تزجرهما، والنهر: الزجر بصياح وغلظة.

اخْفِض: أي أَلِنْ لهما جناحك ومقالك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة بإخلاص العبادة له وحده، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين. وجَعْلُهُ بر الوالدين مقرونًا بعبادته وحده -جل وعلا- المذكور هنا ذكره في آيات أخر. كقوله في سورة (النساء): ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1]، وقوله في (البقرة): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[2]، وقوله في سورة (لقمان): ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[3]، وبين في موضع آخر أن

(١) النساء: الآية (٣٦).

(٢) البقرة: الآية (٨٣).

(٣) لقمان: الآية (١٤).

برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما . كقوله في (لقمان) : ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[(١)] ، وقوله في (العنكبوت) : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾[(٢)] . . الآية .

وذكره -جل وعلا- في هذه الآيات برَّ الوالدين مقرونًا بتوحيده -جل وعلا- في عبادته ؛ يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين . وجاءت عن النبي ﷺ في ذلك أحاديث كثيرة .

وقوله -جل وعلا- في الآيات المذكورة : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ ، بينه بقوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ ؛ لأن هذا من الإحسان إليهما المذكور في الآيات»[(٣)] .

قال ابن كثير : «يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر .

. . . ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي : وأمر بالوالدين إحسانًا ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[(٤)] .

وقوله : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي : لا تسمعهما قولا سيئًا ، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي : ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي : لا تنفض يدك على والديك .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح ، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال : ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي : لينًا طيبًا حسنًا بأدب وتوقير وتعظيم .

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي : تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ

---

(١) لقمان : الآية (١٥). (٢) العنكبوت : الآية (٨).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٥).

(٤) لقمان : الآية (١٤).

﴿ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾»[١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاًّ عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر.

وأيضًا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة، ويحصل الملل، ويكثر الضجر، فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر.

وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾»[٢].

قال ابن عطية: «أمر الله عباده بالترحم على آبائهم، وذكر مِنّتهما عليه في التربية؛ ليكون تذكرُ تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربى»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إفراد الله بالعبادة

* عن معاذ بن جبل ﷺ قال: «بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال: **يا معاذ**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: **يا معاذ**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ثم قال: **يا معاذ**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، قال: **هل تدري ما حق الله على عباده؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**، ثم سار ساعة، ثم قال: **يا معاذ بن جبل**، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: **هل**

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٥٨).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٤٩).

تدري ما حق العباد على اللَّه إذا فعلوه؟ قلت: اللَّه ورسوله أعلم، قال: حق العباد على اللَّه أن لا يعذبهم»(١).

★ غريب الحديث:

رديف: الرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه، وردف كل شيء مُؤَخره، وأصله من الركوب على الردف وهو العجز.

آخرة: بالمد وكسر المعجمة بعدها راء: هي العود الذي يجعل خلف الراكب يستند إليه.

لبيك: الأظهر أن معنى لبيك: إجابةً لك بعد إجابة للتأكيد، وقيل معناه: قربًا منك وطاعة لك.

سعديك: أي: ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة.

★ فوائد الحديث:

قوله: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**»: «أي: يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئًا، وفائدة هذه الجملة بيان أن التجرد من الشرك لا بد منه في العبادة، وإلا فلا يكون العبد آتيا بعبادة الله؛ بل مشرك.. وفيه معرفة حق اللَّه على العباد وهو عبادته وحده لا شريك له، فيا من حق سيده الإقبال عليه، والتوجه بقلبه إليه، لقد صانك وشرفك عن إذلال قلبك، ووجهك لغيره، فما هذه الإساءة القبيحة في معاملته مع هذا التشريف والصيانة، فهو يعظمك ويدعوك إلى الإقبال، وأنت تأبى إلا مبارزته بقبائح الأفعال»(٢).

قوله: «**وحق العباد على اللَّه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**» «قال الخلخالي: تقديره أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئًا، والعبادة هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي؛ لأن مجرد عدم الإشراك لا يقتضي نفي العذاب، وقد علم ذلك من القرآن والأحاديث الواردة في تهديد الظالمين والعصاة. وقال الحافظ:

---

(١) أخرجه: البخاري (١٠/ ٧٩٣-٨٩٣/ ٧٦٩٥)، ومسلم (١/ ٨٥/ ٠٣)، والترمذي (٥/ ٢٦-٢٧/ ٢٦٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٦).

اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول اللَّه فقد كذب اللَّه، ومن كذب اللَّه فهو مشرك. وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته؛ أي: مع سائر الشروط، فالمراد من مات حال كونه مؤمنا بجميع ما يجب الإيمان به»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر ببر الوالدين

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «**رضا الرب في رضا الوالد**»، وكذا حكم الوالدة، بل هو أولى. ورواه الطبراني بلفظ: «**رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما**»، و«**سخط الرب**»، بفتحتين: ضد الرضا «**في سخط الوالد**» لأنه تعالى أمر أن يطاع الأب ويكرم، فمن أطاعه فقد أطاع اللَّه، ومن أغضبه فقد أغضب اللَّه، وهذا وعيد شديد يفيد أن العقوق كبيرة»[٣].

قال المناوي: «**رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**» لأنه تعالى أمر أن يطاع الأب ويكرم، فمن امتثل أمر اللَّه فقد بر اللَّه وأكرمه وعظمه، فرضي عنه. ومن خالف أمره غضب عليه. وهذا ما لم يشهد شاهد أبوة الدين بأن الوالد فيما يرومه خارج عن سبيل المتقين، وإلا فرضى الرب في هذه الحالة في مخالفته. وهذا وعيد شديد يفيد أن العقوق كبيرة، وقد تظاهرت على ذلك النصوص»[٤].

وقال أيضًا: «قال الزين العراقي: وأخذ من عمومه أنه سبحانه يرضى عنه وإن لم يؤد حقوق ربه أو بعضها إذا كان الولد مسلما، فإن قيل: ما وجه تعلق رضى اللَّه عنه

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٢٧٤/ ١٨٩٩)، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٧٢/ ٤٢٩)، والحاكم (٤/ ١٥٢) وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

(٣) التحفة (٦/ ٢٢).

(٤) الفيض (٤/ ٣٣).

برضى الوالد، قلنا: الجزاء من جنس العمل، فلما أرضى من أمر اللَّه بإرضائه رضي الله عنه، فهو من قبيل: «**لا يشكر اللَّه من لا يشكر الناس**»[١] قال الغزالي: وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه، ويقوم بقيامه، ويمتثل أمره، ولا يمشي أمامه، ولا يرفع صوته، ويلبي دعوته، ويحرص على طلب مرضاته، ويخفض له جناحه بالصبر، ولا يمن بالبر له، ولا بالقيام بأمره، ولا ينظر إليه شزرا، ولا يقطب وجهه في وجهه»[٢].

* عن أبي عمرو الشيباني قال: قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ: سألت رسول اللَّه ﷺ، قلت: يا رسول اللَّه أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على ميقاتها**». قلت: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**». قلت ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**». **فسَكَتُّ عن رسول اللَّه ﷺ**، ولو استزدته لزادني[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «فأخبر النبي ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام، ورتب ذلك بثم التي تقتضي الترتيب، وتدل على أن الثاني بعد الأول وبينهما مهلة، وقد دل التنزيل على ذلك قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾»[٤].

قوله: «**وبر الوالدين**»: **قال القرطبي**: «هو القيام بحقوقهما والتزام طاعتهما، والرفق بهما، والتذلل لهما، ومراعاة الأدب معهما في حياتهما، والترحم عليهما، والاستغفار لهما بعد موتهما، وإيصال ما أمكنه من الخير والأجر لهما»[٥].

قال الشيخ العثيمين: «فجعل النبي ﷺ مرتبة البر بالوالدين مقدمة على مرتبة الجهاد في سبيل اللَّه، قال: ولو استزدته لزادني، وفي هذا دليل على فضل بر الوالدين. فإن قال قائل: ما هو البر؟ قلنا: هو الإحسان إليهما؛ بالقول، والفعل،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٩٥) وأبو داود (٥/ ١٥٧-١٥٨/ ٤٨١١) والترمذي (٤/ ٢٩٩/ ١٩٥٤) وقال: حسن صحيح. وصححه ابن حبان (٨/ ١٩٨-١٩٩/ ٣٤٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الفيض (٤/ ٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٩-٤١٠ و٤٣٩)، والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٢)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥)، والترمذي (١/ ٣٢٥-٣٢٦/ ١٧٣)، والنسائي (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٦٠٩).

(٤) شرح ابن بطال (٩/ ١٨٨).

(٥) المفهم (١/ ٢٧٩).

والمال بقدر المستطاع، اتقوا اللَّه ما استطعتم، وضد ذلك العقوق»[1].

وقال الحافظ: «وفي الحديث فضل تعظيم الوالدين، وأن أعمال البر يفضل بعضها على بعض، وفيه السؤال عن مسائل شتى في وقت واحد، والرفق بالعالم، والتوقف عن الإكثار عليه خشية ملاله، وما كان عليه الصحابة من تعظيم النبي ﷺ والشفقة عليه، وما كان هو عليه من إرشاد المسترشدين ولو شق عليه. وفيه أن الإشارة تتنزل منزلة التصريح إذا كانت معينة للمشار إليه مميزة له عن غيره، قال ابن بزيزة: الذي يقتضيه النظر تقديم الجهاد على جميع أعمال البدن؛ لأن فيه بذل النفس، إلا أن الصبر على المحافظة على الصلوات وأدائها في أوقاتها، والمحافظة على بر الوالدين، أمر لازم متكرر دائم، لا يصبر على مراقبة أمر اللَّه فيه إلا الصِّدِّيقُون واللَّه أعلم»[2].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه**»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «**من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**»[3].

★ غريب الحديث:

رغم أنف: معناه ذَلَّ، وقيل: كره وخزي وهو بفتح الغين وكسرها، وأصله لصق أنفه بالرغام، وهو تراب مختلط برمل.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رحمه الله: «وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه، ومعناه: أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة، وأرغم اللَّه أنفه»[4].

قال القرطبي: «وهذا من النبي ﷺ دعاء مؤكد على من قصر في بر أبويه، ويحتمل وجهين:

---

(١) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢١١-٢١٢). (٢) الفتح (٢/ ١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٤)، ومسلم (٤/ ١٩٧٨/ ٢٥٥١)، والترمذي (٥/ ٥١٤/ ٣٥٤٥)، وابن حبان (الإحسان ٣/ ١٨٩/ ٩٠٨) من طرق عن أبي هريرة.

(٤) شرح مسلم (١٦/ ٨٨).

أحدهما : أن يكون معناه : صرعه اللَّه لأنفه فأهلكه ، وهذا إنما يكون في حق من لم يقم بما يجب عليه من برهما .

وثانيهما : أن يكون معناه : أذله الله ؛ لأن من ألصق أنفه الذي هو أشرف أعضاء الوجه بالتراب- الذي هو موطئ الأقدام وأخس الأشياء فقد انتهى من الذل إلى الغاية القصوى ، وهذا يصلح أن يدعى به على من فرط في متأكدات المندوبات ، ويصلح لمن فرط في الواجبات ، وهو الظاهر ، وتخصيصه عند الكبر بالذكر وإن كان برهما واجبا على كل حال- إنما كان ذلك لشدة حاجتهما إليه ، ولضعفهما عن القيام بكثير من مصالحهما ، وليبادر الولد اغتنام فرصة برهما ؛ لئلا تفوته بموتهما ، فيندم على ذلك[1] .

قوله «**من أدرك أبويه عند الكبر . .** » **قال المناوي** : «يعني لم يخدمهما حتى يدخل الجنة بسببهما ، قال بعضهم : والنبي رؤوف رحيم ، أرسل رحمة للعالمين ، فدعاؤه هنا على من آمن ببعد الرحمة لعله فيمن اشتغل بشهواته عن مرضات ربه بعد ما دله على سبيل الفلاح ، فتجافى عنه ، فكأنه أبى إلا النار بإكبابه على العصيان والتمرد على الرحمن ، فلم يستوجب الغفران حيث لم يعظم من أرسل رحمة بالصلاة عليه ، ولم يقم بتعظيم حرمة شهر تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب النار ، واستخف بحق والديه فلم يقم بحقهما ، فحق لهؤلاء أن يطهرهم بالنار إن لم يدركهم اللطف»[2] .

قال الطيبي : «ثم في قوله : «**ثم لم يدخل الجنة**» استبعاد ؛ يعني : ذل وخاب وخسر من أدرك تلك الفرصة التي هي موجبة للفلاح والفوز بالجنة ، ثم لم ينتهزها . وانتهازها هو ما اشتمل عليه قوله تعالى : ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إلى قوله : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ ؛ فإنه دل على الاجتناب عن جميع الأقوال المحرمة ، والإتيان بجميع كرائم الأقوال والأفعال ، من التواضع والخدمة والإنفاق عليهما ، ثم الدعاء لهما في العاقبة .

فإن قلت : بين لي الفرق بين قوله ﷺ : «**عند الكبر**» وقوله تعالى : ﴿عِندَكَ

(١) المفهم (٦/ ٥١٨).

(٢) فيض القدير (٤/ ٣٤).

﴿ٱلۡكِبَرَ﴾ قلت: معنى ﴿عِندَكَ﴾ أن يكبرا ويعجزا وكانا كلا عليك، ولا كافل لهما غيرك، فهما عندك وفي بيتك وكنفك. ومعنى: «عند الكبر» في حال حضوره ومكان حصوله، أي تدركهما والحال أنهما عاجزان، والضعف ممكن فيهما، وكأنهما لحم على وضم، فتزاول إنقاذهما من تلك الورطة بالإحسان قولا، وخفض الجناح بالذل فعلا، وطلب الرحمة من اللَّه فإنه يدل على الاعتراف بالعجز والقصور في أداء حقهما، والإحالة على اللَّه تعالى ورحمته؛ لأنه هو الكافي والحسيب. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ كما يقال: أدركته وهو في ورطة الهلاك فأنقذته منها»[1].

* عن معاوية بن حيدة القشيري: «قلت: يا رسول اللَّه، من أبر؟ قال: **أمك**. قال: قلت: ثم من؟ قال: **أمك**. قال: قلت: ثم من؟ قال: **أمك**. قال: قلت: ثم من؟ قال: **أباك، ثم الأقرب فالأقرب**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «في هذا الحديث دليل أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لأنه ﷺ كرر ذكر الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في المرة الرابعة فقط، وإذا تؤمل هذا المعنى شهد له العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم، وتشقى بها دون الأب فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب»[3].

قال القرطبي: «ومعنى ذلك: أن حقهما وإن كان واجبًا؛ فالأم تستحق الحظ الأوفر من ذلك، وفائدة ذلك المبالغة في القيام بحق الأم، وأن حقها مقدم عند تزاحم حقها وحقه»[4].

قال النووي: «قال العلماء: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٥٥-٣١٥٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣و٥) وأبو داود (٥/ ٣٥١/ ٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٢٧٣/ ١٨٩٧) وقال: هذا حديث حسن. والحاكم (٤/ ١٥٠)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) شرح ابن بطال (٩/ ١٨٩).

(٤) المفهم (٦/ ٥٠٨).

وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله، ثم وضعه، ثم إرضاعه، ثم تربيته وخدمته وتمريضه، وغير ذلك. ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أن الأم تفضل في البر على الأب، وحكى القاضي عياض خلافا في ذلك، فقال: الجمهور بتفضيلها، وقال بعضهم: يكون برهما سواء، قال: ونسب بعضهم هذا إلى مالك، والصواب الأول، لصريح هذه الأحاديث في المعنى المذكور، والله أعلم»(١).

قال الشيخ العثيمين: «والحديث.. في بيان أحق الناس بحسن صحبة الإنسان، فبين النبي ﷺ أن أحق الناس بذلك الأم، فأعيد عليه السؤال فقال: أمك مرة ثانية، كرر ذلك ثلاث مرات، ثم بعد ذلك الأب؛ لأن الأم حصل عليها من العناء والمشقة للولد ما لم يحصل لغيرها؛ حملته أمه وهنا على وهن، حملته كرها ووضعته كرها، وفي الليل تمهده وتهدئه حتى ينام، وإذا أتاه ما يؤلمه لم تنم تلك الليلة حتى ينام. ثم إنها تفديه بنفسها بالتدفئة عند البرد، والتبريد عند الحر وغير ذلك، فهي أشد عناية من الأب بالطفل، ولذلك كان حقها مضاعفا ثلاث مرات على حق الأب. ثم إنها أيضًا ضعيفة أنثى لا تأخذ بحقها، فلهذا أوصى بها النبي ﷺ ثلاث مرات، وأوصى بالأب مرة واحدة، وفي ذلك الحث على أن يحسن الإنسان صحبة أمه، وصحبة أبيه أيضًا بقدر المستطاع. أعاننا الله والمسلمين على ذلك»(٢).

* عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب، أو احفظه**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قوله: «**الوالد أوسط أبواب الجنة**» **قال المباركفوري**: «قال القاضي: أي خير الأبواب وأعلاها والمعنى أن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوسل به إلى

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ٨٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٦)، والترمذي (٤/ ٢٧٥/ ١٩٠٠) وقال: حديث صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٢٠٨/ ٣٦٦٣)، والحاكم (٤/ ١٥٢) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٦٧-١٦٨/ ٤٢٥) كلهم من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبدالرحمن السلمي عن أبي الدرداء.

وصول درجتها العالية مطاوعة الوالد ومراعاة جانبه. وقال غيره: إن للجنة أبوابًا وأحسنها دخولا أوسطها، وإن سبب دخول ذلك الباب الأوسط هو محافظة حقوق الوالد. انتهى. فالمراد بالوالد الجنس أو إذا كان حكم الوالد هذا فحكم الوالدة أقوى وبالاعتبار أولى «**فأضِع**» فعل أمر من الإضاعة «**ذلك الباب**» بترك المحافظة عليه «**أو احفظه**» أي: داوم على تحصيله»[1].

وقال البنا: «وقوله «**فحافظ على الوالد**» يعني على حقوقه أو اترك ليس المراد به التخيير بين الأمرين، بل المراد التوبيخ على الإضاعة والحث على الحفظ مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2]»[3].

وقال ابن علان: «قوله: «**أوسط أبواب الجنة**» قال أبو موسى المدني؛ أي: خيرها، يقال هو من أوسط قومه؛ أي: من خيارهم. قال العراقي: والمعنى أن بره مؤد إلى دخول الجنة من أوسط أبوابها. وقال العاقولي: المعنى أحسن ما يتوصل به إلى دخول الجنة بر الوالدين. وكلام العراقي أقرب فيكون في الحديث مضاف إلى المبتدإ وآخر في الخبر «**فإن شئت فأضع ذلك الباب**» أي: بعدم برها وترك امتثال أمرها أو احفظه بذلك»[4].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحي والداك؟**» قال: نعم. قال: «**ففيهما فجاهد**»[5].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قال جمهور العلماء يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين؛ لأن برهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية، فإذا تعين الجهاد فلا إذن»[6].

---

(١) التحفة (٦/ ٢١).

(٢) الكهف: الآية (٢٩).

(٣) بلوغ الأماني (١٩/ ٣٩).

(٤) دليل الفالحين (٢/ ١٧٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٥)، والبخاري (٦/ ١٧٢/ ٣٠٠٤)، ومسلم (٤/ ١٩٧٥/ ٢٥٤٩)، وأبو داود (٣/ ٣٨/ ٢٥٢٩)، والترمذي (٤/ ١٦٤-١٦٥/ ١٦٧١)، والنسائي (٦/ ٣١٧/ ٣١٠٣).

(٦) فتح الباري (٦/ ١٧٣).

وقال النووي: «وفيه حجة لما قاله العلماء إنه لا يجوز الجهاد إلا بإذنهما إذا كانا مسلمين، أو بإذن المسلم منهما، فلو كانا مشركين لم يشترط إذنهما عند الشافعي ومن وافقه، وشرطه الثوري. هذا كله إذا لم يحضر الصف ويتعين القتال وإلا فحينئذ يجوز بغير إذن وأجمع العلماء على الأمر ببر الوالدين وأن عقوقهما حرام من الكبائر»[١].

وقال ابن بطال: «قال المهلب: هذا والله أعلم في زمن استظهار المسلمين على عدوهم، وقيام من انتدب إلى الغزو بهم، مع أنه -والله أعلم- رأى به ضعفًا لم يقدر نفاذه في الجهاد، فندبه إلى الجهاد في بر والديه، وقد روي عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان «**أن من أراد الغزو وأمرته أمه بالجلوس أن يجلس**» وقال الحسن البصري: إذا أذنت له أمه في الجهاد وعلم أن هواها أن يجلس فيجلس. ومن رأى ألا يخرج إلى الغزو إلا بإذن والديه: مالك والأوزاعي والشافعي والثوري وأحمد وأكثر أهل العلم، هذا كله في حال الاختيار ما لم تقع ضرورة وقوة للعدو، وإذا كان ذلك تعين الفرض على الجميع وزال الاختيار، ووجب الجهاد على الكل»[٢].

قال العيني: «وفيه التأكيد ببر الوالدين وتعظيم حقهما وكثرة الثواب على برهما»[٣].

* عن معاوية بن جاهمة ﷺ أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم. قال: «**فالزمها فإن الجنة تحت رجليها**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: «**فإن الجنة**» أي: نصيبك منها، لا يصل إليك إلا برضاها، بحيث كأنه لها وهي عليه قاعدة، فلا يصل إليك إلا من جهتها، فإن الشيء إذا صار تحت رجل أحد فقد تمكن منه واستولى عليه بحيث لا يصل إلى

---

(١) شرح مسلم (١٦/ ٨٤). (٢) شرح ابن بطال (٥/ ١٥٩).

(٣) العمدة (١٠/ ٣١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢٩)، والنسائي (٦/ ٣١٧-٣١٨/ ٣١٠٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٠/ تحت حديث: ٢٧٨١)، والحاكم (٢/ ١٠٤) وصححه ووافقه الذهبي.

الآخر إلا من جهته، والله تعالى أعلم»[١].

قال الطيبي: «قوله: عند رجليها كناية عن غاية الخضوع ونهاية التذلل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾[٢]، ولعله ﷺ عرف من حاله، وحال أمه حيث ألزمه خدمتها ولزومها أن ذلك أولى به»[٣].

قال البنا: «معناه أنه يكون في برها، وخدمتها كالتراب تحت قدميها، مقدمًا لها على هواه، مؤثرًا برها على بر كل عباد الله، لتحملها شدائد حمله ورضاعه وتربيته، فإذا فعل ذلك كان هذا الفعل سببًا لدخوله الجنة، قال الذهبي: فيه أن عقوق الأمهات من الكبائر، وهو إجماع»[٤].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال يا رسول الله: إني أذنبت ذنبا كبيرا فهل لي توبة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**ألك والدان؟**» قال: لا. قال: «**فلك خالة**» قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «**فَبِرَّهَا إِذًا**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قوله: «**إني أصبت ذنبا عظيما**» **قال المباركفوري**: «يجوز أنه أراد عظيما عندي؛ لأن عصيان الله تعالى عظيم وإن كان الذنب صغيرا، ويجوز أن يكون ذنبه كان عظيما من الكبائر، وأن هذا النوع من البر يكون مكفرا له، وكان مخصوصًا بذلك الرجل، علمه النبي ﷺ من طريق الوحي، قاله الطيبي. «**هل لك من أم**» أي: ألك أم؟، فـ(مِنْ) زائدة، أو تبعيضية. «**قال فبرها**» بفتح الموحدة وتشديد الراء، من بررت فلانا، بالكسر، أبره بالفتح؛ أي: أحسنت إليه، والمعنى أن صلة الرحم من جملة الحسنات التي يذهبن السيئات»[٦].

وفيه الحث على بر أقارب الوالدين[٧].

---

(١) هامش المسند (٢٤/ ٣٠١).

(٢) الإسراء: الآية (٢٤).

(٣) الكاشف (١٠/ ٣١٧١).

(٤) بلوغ الأماني (١٩/ ٣٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣-١٤)، والترمذي كما في تحفة الأحوذي (٦/ ٢٦/ ١٩٦٨)، وابن حبان (الإحسان ٢/ ١٧٧-١٧٨/ ٤٣٥)، والحاكم (٤/ ١٥٥) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٦) التحفة (٦/ ٢٦).

(٧) بلوغ الأماني (١٩/ ٤٢).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول اللَّه ﷺ قال: «أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه»(١).

★ غريب الحديث:

وُدّ أبيه: بضم الواو بمعنى المودة؛ أي: أصحاب مودته ومحبته.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفي هذا فضل صلة أصدقاء الأب والإحسان إليهم وإكرامهم، وهو متضمن لبر الأب وإكرامه، لكونه بسببه، وتلتحق به أصدقاء الأم والأجداد والمشايخ والزوج والزوجة، وقد سبقت الأحاديث في إكرامه ﷺ خلائل خديجة رضي الله عنها»(٢).

وقال الطيبي: «المعنى: أن من جملة المبرات الفضلى مبرة الرجل مع أحباء أبيه؛ فإن مودة الآباء قرابة الأبناء، أي إذا غاب الأب أو مات يحفظ أهل وده ويحسن إليهم؛ فإنه من تمام الإحسان إلى الأب. وإنما كان أبر لأنه إذا حفظ غيبته فهو بحفظ حضوره أولى وأحرى»(٣).

وقال ابن العربي: «من تمام بر الأب أن يصل الرجل صديق أبيه، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح، وقد كان النبي ﷺ يصل صدائق خديجة برا بها، فكيف بصديق الأب. والمعنى فيه مركب على حقوق الأخوة، فكما كان ذلك مشروعا في حق الأب بحكم الأخوة؛ يكون مشروعا في حق الولد بحكم الأبوة»(٤).

قال الشيخ العثيمين: «وفي هذا الحديث أيضًا سعة رحمة اللَّه عز وجل، حيث إن البر بابه واسع لا يختص بالوالد والأم فقط، بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك فتثاب ثواب البار بوالديه. وهذه من نعمة اللَّه عز وجل، أن وسع على عباده أبواب الخير وكثرها لهم، حتى يلجوا فيها من كل جانب

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٨)، ومسلم (٤/ ١٩٧٩/ ٢٥٥٢)، وأبو داود (٥/ ٣٥٣/ ٥١٤٣)، والترمذي (٤/ ٢٧٦/ ١٩٠٣).

(٢) شرح مسلم (١٦/ ٨٩).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٥٩).

(٤) العارضة (٨/ ٩٤).

نسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا والمسلمين من البررة، إنه جواد كريم وصلى اللَّه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين»[١].

*** عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يجزي ولد والدا؛ إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»**[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «قوله: **«لا يجزي»** بفتح أوله وسكون الياء في آخره، أي لا يكافئ ولد والدًا؛ أي: إحسان والد إلا أن يجده مملوكًا، منصوب على الحال من الضمير المنصوب في يجده، **«فيشتريه فيعتقه»** بالنصب فيهما. قال الجزري في النهاية: ليس معناه استئناف العتق فيه بعد الشراء؛ لأن الإجماع منعقد على أن الأب يعتق على الابن إذا ملكه في الحال، وإنما معناه أنه إذا اشتراه فدخل في ملكه عتق عليه، فلما كان الشراء سببًا لعتقه أضيف العتق إليه، وإنما كان هذا جزاء له؛ لأن العتق أفضل ما ينعم به أحد على أحد إذا خلصه بذلك من الرق، وجبر به النقص الذي فيه، وتكمل له أحكام الأحرار في جميع التصرفات»[٣].

قال الشيخ العثيمين: «**«لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»** يعني يعتقه بشرائه؛ لأنه فك أباه من رق العبودية للإنسان، وهذا الحديث لا يدل على أن من ملك أباه لا يعتق عليه، بل نقول إن معناه إلا أن يشتريه فيعتقه، أي فيعتقه بشرائه؛ لأن الإنسان إذا ملك أباه عتق عليه بمجرد الملك، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقته، وكذلك إذا ملك أمه تعتق بمجرد الملك، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقتها»[٤].

* * *

(١) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠)، ومسلم (٢/ ١١٤٨/ ١٥١٠)، وأبو داود (٥/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٥١٣٧)، والترمذي (٤/ ٢٧٨/ ١٩٠٦)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٧٣/ ٤٨٩٦)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧/ ٣٦٥٩).

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨).

(٤) شرح رياض الصالحين (٥/ ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لِلأَوَّابِين: جمع أواب، وهو الكثير الرجوع لربِّه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿رَّبُّكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم وتكرمتهم، والبرّ بهم، وما فيها من اعتقاد الاستخفاف بحقوقهم، والعقوق لهم، وغير ذلك من ضمائر صدوركم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو مجازيكم على حَسَن ذلك وسيِّئه، فاحذروا أن تُضمروا لهم سوءًا، وتعقِدوا لهم عقوقًا. وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ يقول: إن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم، وأطعتم اللّه فيما أمركم به من البرّ بهم، والقيام بحقوقهم عليكم، بعد هفوة كانت منكم، أو زلة في واجب لهم عليكم مع القيام بما ألزمكم في غير ذلك من فرائضه، فإنه كان للأوّابين بعد الزَّلة، والتائبين بعد الهَفْوة غفورا لهم»(١).

قال ابن كثير: «قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به -وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك -فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسبحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين.

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٦٨).

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى.

وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب. وكذا رواه عبدالرزاق، عن الثوري ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب به، وكذا قال عطاء بن يسار.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر اللّٰه منها. ووافقه على ذلك مجاهد.

وقال عبدالرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، في قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا.

وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره اللّٰه إلى ما يحبه ويرضاه.

وهذا الذي قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾[1]»[2].

قال السعدي: « ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ﴾ بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة اللّٰه ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير اللّٰه.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾

---

(١) الغاشية: الآية (٢٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٤-٦٥).

فمن اطلع اللَّه على قلبه وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة إليه، ومحبته ومحبة ما يقرب إليه، فإنه وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطبائع البشرية فإن اللَّه يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة»[١].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالى وبالإحسان بالوالدين، ولا يخفى على اللَّه ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فاعلموا أن اللَّه تعالى مطلع على ما في نفوسكم، بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها؛ لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل، فأما علم اللَّه فمنزه عن كل هذه الأحوال، وإذا كان الأمر كذلك كان عالمًا بكل ما في قلوبكم، والمقصود منه التحذير عن ترك الإخلاص.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أوابين؛ أي: رجاعين إلى اللَّه، منقطعين إليه في كل الأعمال، وسنة اللَّه وحِكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيآتهم، والأواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلى أمر اللَّه تعالى، والالتجاء إلى فضله ولا يلتجئ إلى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون اللَّه تعالى جمادًا يزعمون أنه يشفع لهم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء الرجوع من السفر

* عن عبد اللَّه بن عمر ﵄ أن النبي ﷺ كان إذا قفل كبر ثلاثًا، قال: «**آيبون إن شاء اللَّه، تائبون، عابدون، حامدون، لربنا ساجدون، صدق اللَّه وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[٣].

★ **غريب الحديث:**

قفل: بقاف ثم فاء أي رجع وزنه ومعناه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٩٤-١٩٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥) والبخاري (٦/ ٢٣٦/ ٣٠٨٤)، ومسلم (٢/ ٩٨٠/ ١٣٤٤) وأبو داود (٣/ ٣١٣-٣١٤/ ٢٧٧٠)، والترمذي (٣/ ٢٨٥/ ٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٣٨/ ١٠٣٧٣).

آيبون: جمع آيب راجع وزنه ومعناه.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله «**آيبون**»: والتقدير نحن آيبون، وليس المراد الإخبار بمحض الرجوع، فإنه تحصيل الحاصل، بل الرجوع في حالة مخصوصة، وهي تلبسهم بالعبادة المخصوصة، والاتصاف بالأوصاف المذكورة. وقوله: «**تائبون**» فيه إشارة إلى التقصير في العبادة، وقاله ﷺ على سبيل التواضع، أو تعليمًا لأمته، أو المراد أمته كما تقدم تقريره. وقد تستعمل التوبة لإرادة الاستمرار على الطاعة، فيكون المراد أن لا يقع منهم ذنب»[1].

قال ابن عبدالبر: «وفي هذا الحديث الحض على ذكر اللَّه وشكره للمسافر على أوبته ورجعته، وشكر اللَّه -تبارك وتعالى- والثناء عليه بما هو أهله واجب، وذكر اللَّه حسن على كل حال، والحمد لله الكبير المتعال»[2].

* * *

(١) الفتح (١١/ ٢٢٦).

(٢) التمهيد (فتح البر- ٨/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تَبْذِيرًا: التبذير: تضييع المال في غير طائل. أصله التفريق ومنه بذرت الحب إذا فرقته في الأرض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: كما راعيت حق الوالدين فصل الرحم، ثم تصدق على المسكين وابن السبيل.

وقال علي بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: هم قرابة النبي ﷺ، أمر ﷺ بإعطائهم حقوقهم من بيت المال، أي من سهم ذوي القربى من الغزو والغنيمة، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم.

والحق في هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم، وسد الخلة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكل وجه»[1].

قال الرازي: «واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مجمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو، وعند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يجب الإنفاق إلا على الوالدين، وقال قوم: يجب الإنفاق على المحارم بقدر الحاجة، واتفقوا على أن من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم إلا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة في السراء والضراء. أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما في سورة التوبة في تفسير آية الزكاة. ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٦١).

بقوته وقوت عياله، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده»[١].

قال ابن عاشور: «وقد جمعت هذه الآية ثلاث وصايا مما أوصى اللَّه به بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[٢].

فأما إيتاء ذي القربى فالمقصد منه مقارب للمقصد من الإحسان للوالدين رعيًا لاتحاد المنبت القريب، وشدًّا لآصرة العشيرة التي تتكون منها القبيلة.

وفي ذلك صلاح عظيم لنظام القبيلة وأمنها وذبها عن حوزتها.

وأما إيتاء المسكين فلمقصد انتظام المجتمع بأن لا يكون من أفراده من هو في بؤس وشقاء، على أن ذلك المسكين لا يعدو أن يكون من القبيلة في الغالب أقعده العجز عن العمل، والفقر عن الكفاية.

وأما إيتاء ابن السبيل فلإكمال نظام المجتمع؛ لأن المارّ به من غير بنيه بحاجة عظيمة إلى الإيواء ليلًا ليقيه من عوادي الوحوش واللصوص، وإلى الطعام والدفء أو التظلل وقايةً من إضرار الجوع والقر أو الحر»[٣].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه؛ بل يكون وسطًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[٤].

ثم قال منفرًا عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مدًا في غير حقه كان تبذيرًا.

وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية اللَّه تعالى، وفي غير الحق وفي

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٩٥-١٩٦).
(٢) الإسراء: الآية (٢٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٧-٧٨).
(٤) الفرقان: الآية (٦٧).

الفساد. . وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة اللَّه وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: جحودًا؛ لأنه أنكر نعمة اللَّه عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته»[١].

قال ابن عاشور: «لما ذكر البذل المحمود وكان ضده معروفًا عند العرب؛ أعقبه بذكره للمناسبة.

ولأن في الانكفاف عن البذل غير المحمود الذي هو التبذير استبقاء للمال الذي يفي بالبذل المأمور به، فالانكفاف عن هذا تيسير لذاك وعون عليه، فهذا وإن كان غرضًا مهمًا من التشريع المسوق في هذه الآيات، قد وقع موقع الاستطراد في أثناء الوصايا المتعلقة بإيتاء المال، ليظهر كونه وسيلة لإيتاء المال لمستحقيه، وكونه مقصودًا بالوصاية أيضًا لذاته. ولذلك سيعود الكلام إلى إيتاء المال لمستحقيه بعد الفراغ من النهي عن التبذير بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾[٢] الآية. ثم يعود الكلام إلى ما يبين أحكام التبذير بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾[٣]»[٤].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فإنه يعني: إنّ المفرّقين أموالهم في معاصي اللَّه المنفقيها في غير طاعته أولياء الشياطين، وكذلك تقول العرب لكلّ ملازم سنة قوم وتابع أثرهم: هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ يقول: وكان الشيطان لنعمة ربه التي أنعمها عليه جحودا لا يشكره عليها، ولكنه يكفرها بترك طاعة اللَّه، وركوبه معصيته، فكذلك إخوانه من بني آدم المبذّرون أموالهم في معاصي اللَّه، لا يشكرون اللَّه على نعمه عليهم، ولكنهم يخالفون أمره ويعصُونه، ويستنون فيما أنعم اللَّه عليهم به من الأموال التي خوّلهموها ﷻ سنته من ترك الشكر عليها، وتلقِّيها بالكُفران»[٥].

قال ابن عاشور: «إن التبذير يدعو إليه الشيطان؛ لأنه إما إنفاق في الفساد، وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات، فيعطل الإنفاق في الخير، وكل ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٦).
(٢) الإسراء: الآية (٢٨).
(٣) الإسراء: الآية (٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٧٨).
(٥) جامع البيان (١٥/ ٧٤).

يرضي الشيطان، فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه.

وهذا تحذير من التبذير، فإن التبذير إذا فعله المرء اعتاده فأدمن عليه، فصار له خلقًا لا يفارقه، شأن الأخلاق الذميمة أن يسهل تعلقها بالنفوس كما ورد في الحديث: «**إن المرء لا يزال يكذب حتى يكتب عند اللَّه كذابًا**»[1]، فإذا بذّر المرء لم يلبث أن يصير من المبذرين، أي المعروفين بهذا الوصف، والمبذرون إخوان الشياطين، فليحذر المرء من عملٍ هو من شأن إخوان الشياطين، وليحذر أن ينقلب من إخوان الشياطين. وبهذا يتبين أن في الكلام إيجازَ حذف تقديره: ولا تبذر تبذيرًا فتصير من المبذرين، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين. والذي يدل على المحذوف أن المرء يصدق عليه أنه من المبذرين عندما يبذّر تبذيرة أو تبذيرتين.

ثم أكد التحذير بجملة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾. وهذا تحذير شديد من أن يفضي التبذير بصاحبه إلى الكفر تدريجًا بسبب التخلق بالطبائع الشيطانية، فيذهب يتدهور في مهاوي الضلالة حتى يبلغ به إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2]. ويجوز حمل الكفر هنا على كفر النعمة فيكون أقرب درجات إلى حال التخلق بالتبذير؛ لأن التبذير صرف المال في غير ما أمر اللَّه به فهو كفر لنعمة اللَّه بالمال. فالتخلق به يفضي إلى التخلق والاعتياد لكفران النعم.

وعلى الوجهين فالكلام جار على ما يعرف في المنطق بقياس المساواة، إذ كان المبذر مؤاخيًا للشيطان؛ وكان الشيطانُ كَفورًا؛ فكانَ المبذّر كفورًا بالمآل أو بالدرجة القريبة.

وقد كان التبذير من خُلق أهل الجاهلية، ولذلك يتمدحون بصفة المتلاف والمُهلك المال، فكان عندهم الميسر من أسْباب الإتلاف، فحذر اللَّه المؤمنين من التلبس بصفات أهل الكفر، وهي من المذام، وأدبهم بآداب الحكمة والكمال»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٤)، والبخاري (١٠/ ٦٢١/ ٦٠٩٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٢-٢٠١٣/ ٢٦٠٧)، وأبو داود (٥/ ٢٦٤/ ٤٩٨٩)، والترمذي (٤/ ٣٠٦/ ١٩٧١)، وابن ماجه (١/ ١٨/ ٤٦) من طرق عن عبد اللَّه ابن مسعود ﷺ.

(٢) الأنعام: الآية (١٢١).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٨١-٨٢).

قال أبو السعود: « ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهيٌ عن صرف المال إلى من سواهم ممن لا يستحقه، فإن التبذيرَ تفريقٌ في غير موضعه، مأخوذٌ من تفريق حباتٍ وإلقائِها كيفما كان من غير تعهّدٍ لمواقعه، لا عن الإكثار في صرفه إليهم، وإلا لناسبه الإسرافُ الذي هو تجاوزُ الحدِّ في صرفه، وقد نُهي عنه بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾[1] وكلاهما مذموم.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ تعليلٌ للنهي عن التبذير ببيان أنه يجعل صاحبَه ملزوزًا في قَرن الشياطين، والمرادُ بالأخوة المماثلةُ التامةُ في كلِّ ما لا خيرَ فيه من صفات السوءِ التي من جملتها التبذيرُ؛ أي: كانوا بما فعلوا من التبذير أمثالَ الشياطين. أو الصداقةُ والملازمةُ؛ أي: كانوا أصدقاءَهم وأتباعَهم فيما ذُكر من التبذير والصرْفِ في المعاصي؛ فإنهم كانوا ينحَرون الإبلَ ويتياسرون عليها، ويبذّرون أموالَهم في السمعة وسائرِ ما لا خير فيه من المناهي والملاهي. أو المقارنةُ؛ أي: قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ من تتمة التعليل؛ أي: مبالِغًا في كفران نعمتِه تعالى؛ لأن شأنه أن يصرِفَ جميع ما أعطاه اللَّه تعالى من القُوى والقدر إلى غير ما خُلقت هي له من أنواع المعاصي والإفسادِ في الأرض، وإضلالِ الناس وحملِهم على الكفر باللَّه، وكفرانِ نِعَمه الفائضةِ عليهم، وصرفِها إلى غير ما أمر اللَّه تعالى به، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكر من بين سائر أوصافِه القبيحة؛ للإيذان بأن التبذيرَ الذي هو عبارةٌ عن صرف نِعَم اللَّه تعالى إلى غير مصْرِفها من باب الكفرانِ المقابلِ للشكر، الذي هو عبارةٌ عن صرفها إلى ما خُلقت هي له. والتعرضُ لوصف الربوبيةِ للإشعار بكمال عُتوِّه، فإن كفرانَ نعمةِ الربِّ مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها غايةُ الكُفران، ونهايةُ الضلال والطغيان»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل النفقة على القريب

* عن المقدام بن معد يكرب ﷺ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه**

---

(١) الإسراء: الآية (٢٩).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٦٨).

يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب»[١].

* عن رجل من بني يربوع قال: أتيت النبي ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «**يد المعطي العليا، أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك**» قال: فقال رجل يا رسول اللَّه، هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع الذين أصابوا فلانا، قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا لا تجني نفس على أخرى**»[٢].

★ غريب الحديث:

لا تَجْنِي: الجناية: الذنب والجرم وما يفعله الإنسان مما يوجب عليه العذاب أو القصاص في الدنيا والآخرة.

* عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار والمسكين**» فقال: يا رسول اللَّه، أقلل لي؟ قال: «**فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا**». فقال: حسبي يا رسول اللَّه إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى اللَّه ورسوله، فقال رسول اللَّه ﷺ: **نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها فلك أجرها وإثمها على من بدلها**»[٣].

★ غريب الحديث:

حَاضِرَة: الحاضرة خلاف البادية، وكأن المراد: ذو بيوت ومساكن.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧-١٢٠٨/ ٣٦٦١)، والبخاري في الأدب (٦٠)، والحاكم (٤/ ١٥١) وقال: إسماعيل بن عياش أحد أئمة أهل الشام إنما نقم عليه سوء الحفظ فقط. وقال الحافظ ابن حجر في التقريب صدوق في روايته عن أهل بلده مخلط في غيرهم وشيخه بحير بن سعيد من أهل بلده وهو ثقة كما ذكر الحافظ في التقريب. وصححه الشيخ الألباني (الصحيحة: ١٦٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٦٤-٦٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٩٨) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٦)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٣٧٠-٣٧١/ ٨٧٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٦٠-٣٦١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٣) وقال: رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

* عن سعيد بن عمرو بن العاص قال: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما فأتاه رجل فمت إليه برحم بعيدة فقال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم، فإنه لا قرب لرحم إذا قطعت، وإن كانت قريبة، ولا بعد لها إذا وصلت، وإن كانت بعيدة»**[١].

★ غريب الحديث:

فَمَتَّ: متَتُّ إليه برحم: تقربت إليه برحم بيننا.

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره؛ فليصل رَحِمَه»**[٢].

★ غريب الحديث:

يُنْسَأَ: يُؤَخر له.

أَثَرِه: الأثر هنا بقية العمر.

★ فوائد الأحاديث:

فيها الحث «على صلة الأرحام بالإحسان، وبذل الود، ونحو ذلك من صنوف البر الموجب للعرفان»[٣].

قال القاضي عياض: «ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة على الجملة، وقطعها كبيرة. والأحاديث في هذا الباب من منعه الجنة يشهد لذلك، ولكن الصلة درجات، بعضها فوق بعض، وأدناها ترك المهاجرة. وصلتها ولو بالسلام كما قال -عليه الصلاة والسلام-. وهذا بحكم القدرة على الصلة وحاجتها إليها، فمنها ما يتعين ويلزم، ومنها ما يستحب ويرغب فيه، وليس من لم يبلغ أقصى الصلة يسمى قاطعا، ولا من قصر عما ينبغي له ويقدر عليه يسمى واصلا. واختلف في حد

(١) أخرجه: أبو داود الطيالسي (٢٧٥٧) ومن طريقه: الحاكم (٤/ ١٦١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وتعقبهما الألباني بأن الطيالسي هو من رجال مسلم وليس من رجال البخاري. وأخرجه: البيهقي في الشعب (٦/ ٢١٨/ ٧٩٤٤) كلهم من طريق إسحاق بن سعيد عن أبيه عن ابن عباس.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤٧)، والبخاري (٤/ ٣٧٨/ ٢٠٦٧)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٧)، وأبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٣). وفي الباب من حديث أبي هريرة عند: البخاري (١٠/ ٥٠٨/ ٥٩٨٥).

(٣) فيض القدير (١/ ٥٥٩) بتصرف.

الرحم التي يجب صلتها، فقال بعض أهل العلم: هي كل رحم محرمية مما لو كان أحدهما ذكرا حرم عليه نكاح الآخر، فعلى هذا لا يجب في بني الأعمام وبني الأخوال وبني العمات. واستدل على قوله بتحريم الجمع بين الأختين، والمرأة وعمتها وخالتها مخافة التقاطع، وجواز ذلك بين بني العم والخال. وقيل: بل هذا في كل ذي رحم ممن ينطلق عليه ذلك في ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَمِيًّا كان أو غيره»[١].

قال ابن بطال: «للبر بالأرحام مراتب ومنازل، وليس من لم يبلغ أعلى تلك المراتب يستحق اسم قاطع، كما من لم يبلغ أعلى منازل الفضل يستحق اسم الذم، فواصل رحمه بماله مستحق اسم واصل، وواصلها بمعونته ونصرته مستحق اسم واصل»[٢].

قال ابن حجر: «قال الشافعية: يقدم الجد ثم الأخ ثم يقدم من أدلى بأبوين على من أدلى بواحد ثم تقدم القرابة من ذوي الرحم، ويقدم منهم المحارم على من ليس بمحرم، ثم سائر العصبات، ثم المصاهرة، ثم الولاء، ثم الجار»[٣].

قال ابن بطال: «إن اللّه تعالى جعل من الصدقة فرضًا وتطوعًا، ومعلوم أن أداء الفرض أفضل من التطوع، فإذا كان عند الرجل قدر قوته ولا فضل فيه عن قوت نفسه، وبه إليه حاجة، فهو خائف بإيثاره غيره به هلاك نفسه، كائنًا من كان غيره الذي حاجته إليه مثل حاجته، والدًا كان أو ولدًا أو زوجة أو خادمًا، فالواجب عليه أن يحيى به نفسه، وإن كان فيه فضل كان عليه صرف ذلك الفضل حينئذ إلى غيره ممن فرض اللّه نفقته عليه، فإن كان فيه فضل عما يحيى به نفسه ونفوسهم، وحضره من لم يوجب اللّه عليه نفقته، وهو مخوف عليه الهلاك إن لم يصرف إليه ذلك الفضل كان له صرف ذلك إليه بثمن أو بقيمة، وإن كان في سعة وكفاية، ولم يخف على نفسه ولا على أحد ممن تلزمه نفقته، فالواجب عليه أن يبدأ بحق من أوجب اللّه حقه في ماله، ثم الأمر إليه في الفضل من ماله، إن شاء تطوع بالصدقة به، وإن

(١) الإكمال (٨/ ٢٠-٢١).
(٢) شرح البخاري (٩/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٩٣).

شاء ادخره»[١].

قال ابن القيم بعدما ذكر أحاديث في هذا الباب: «وهذا كله تفسير لقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[٣]، فجعل سبحانه حق ذي القربى يلي حق الوالدين كما جعله النبي ﷺ سواء بسواء، وأخبر سبحانه أن لذي القربى حقًّا على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندري أي حق هو.

وأمر تعالى بالإحسان إلى ذي القربى. ومن أعظم الإساءة أن يراه يموت جوعا وعريا وهو قادر على سد خلته، وستر عورته، ولا يطعمه لقمة، ولا يستر له عورة إلا بأن يقرضه ذلك في ذمته، وهذا الحكم من النبي ﷺ مطابق لكتاب اللَّه تعالى حيث يقول: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾[٤]، فأوجب ﷻ على الوارث مثل ما أوجب على المولود له، وبمثل هذا الحكم حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فروى سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنه حبس عصبة صبي على أن ينفقوا عليه الرجال دون النساء، وقال عبدالرزاق: حدثنا ابن جريج أخبرني عمرو بن شعيب أن ابن المسيب أخبره أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف بني عم على منفوس كلالة بالنفقة عليه مثل العاقلة، فقالوا: لا مال له، فقال: ولو وقوفهم بالنفقة عليه كهيئة العقل. قال ابن المديني: قوله: ولو، أي ولو لم يكن له مال.

وذكر ابن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر عن حجاج عن عمرو عن سعيد بن المسيب قال: جاء ولي يتيم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أنفق عليه، ثم قال: لو لم أجد إلا أقصى عشيرته لفرضت عليهم، وحكم بمثل ذلك أيضًا زيد بن ثابت.

---

(١) شرح ابن بطال (٧/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) النساء: الآية (٣٦).

(٣) الإسراء: الآية (٢٦).

(٤) البقرة: الآية (٢٣٣).

قال ابن أبي شيبة: حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن حسن عن مطرف عن إسماعيل عن الحسن عن زيد بن ثابت قال: إذا كان أم وعم فعلى الأم بقدر ميراثها، وعلى العم بقدر ميراثه، ولا يعرف لعمر وزيد مخالف في الصحابة البتة.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾[1]، قال على ورثة اليتيم أن ينفقوا عليه كما يرثونه. قلت له أيحبس وارث المولود إن لم يكن للمولود مال؟ قال أفيدعه يموت؟ وقال الحسن: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قال على الرجل الذي يرث أن ينفق عليه حتى يستغني. وبهذا فسر الآية جمهور السلف منهم قتادة، ومجاهد، والضحاك، وزيد بن أسلم، وشريح القاضي، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الله بن عتبة بن مسعود، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وأصحاب ابن مسعود، ومن بعدهم سفيان الثوري، وعبد الرزاق، وأبو حنيفة وأصحابه، ومن بعدهم أحمد، وإسحاق، وداود، وأصحابهم.

وقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يجبر أحد على نفقة أحد من أقاربه وإنما ذلك بر وصلة وهذا مذهب يعزى إلى الشعبي. قال عبد بن حميد الكشي حدثنا قبيصة عن سفيان الثوري عن أشعث عن الشعبي قال: ما رأيت أحدا أجبر أحدا على أحد يعني على نفقته. وفي إثبات هذا المذهب بهذا الكلام نظر، والشعبي أفقه من هذا، والظاهر أنه أراد أن الناس كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغني أن يجبره الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج، فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

المذهب الثاني: أنه يجب عليه النفقة على أبيه الأدنى، وأمه التي ولدته خاصة، فهذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين، فأما نفقة الأولاد فالرجل يجبر على نفقة ابنه الأدنى حتى يبلغ فقط، وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تزوج، ولا يجبر على نفقة ابن ابنه ولا بنت ابنه وإن سفلا، ولا تجبر الأم على نفقة ابنها وابنتها ولو كانا في غاية الحاجة، والأم في غاية الغنى، ولا تجب على أحد النفقة على ابن ابن، ولا جد، ولا أخ ولا أخت، ولا عم ولا عمة، ولا خال ولا خالة، ولا أحد من الأقارب البتة سوى ما ذكرنا.

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٣).

وتجب النفقة مع اتحاد الدين واختلافه حيث وجبت، وهذا مذهب مالك وهو أضيق المذاهب في النفقات.

المذهب الثالث: أنه تجب نفقة عمودي النسب خاصة دون من عداهم مع اتفاق الدين ويسار المنفق وقدرته، وحاجة المنفق عليه وعجزه عن الكسب بصغر أو جنون أو زمانة إن كان من العمود الأسفل. وإن كان من العمود الأعلى: فهل يشترط عجزهم عن الكسب؟ على قولين. ومنهم من طرد القولين أيضًا في العمود الأسفل. فإذا بلغ الولد صحيحا سقطت نفقته ذكرا كان أو أنثى وهذا مذهب الشافعي وهو أوسع من مذهب مالك.

المذهب الرابع: أن النفقة تجب على كل ذي رحم محرم لذي رحمه فإن كان من الأولاد وأولادهم، أو الآباء والأجداد، وجبت نفقتهم مع اتحاد الدين واختلافه. وإن كان من غيرهم لم تجب إلا مع اتحاد الدين، فلا يجب على المسلم أن ينفق على ذي رحمه الكافر، ثم إنما تجب النفقة بشرط قدرة المنفق وحاجة المنفق عليه. فإن كان صغيرًا اعتبر فقره فقط، وإن كان كبيرا فإن كان أنثى فكذلك وإن كان ذكرًا فلا بد مع فقره من عماه أو زمانته، فإن كان صحيحًا بصيرًا لم تجب نفقته وهي مرتبة عنده على الميراث إلا في نفقة الولد فإنها على أبيه خاصة على المشهور من مذهبه.

وروي عن الحسن بن زياد اللؤلؤي أنها على أبويه خاصة بقدر ميراثهما طردًا للقياس، وهذا مذهب أبي حنيفة وهو أوسع من مذهب الشافعي.

المذهب الخامس: أن القريب إن كان من عمودي النسب وجبت نفقته مطلقًا سواء كان وارثًا أو غير وارث، وهل يشترط اتحاد الدين بينهم؟ على روايتين. وعنه رواية أخرى: أنه لا تجب نفقتهم إلا بشرط أن يرثهم بفرض أو تعصيب كسائر الأقارب. وإن كان من غير عمودي النسب وجبت نفقتهم بشرط أن يكون بينه وبينهم توارث.

ثم هل يشترط أن يكون التوارث من الجانبين أو يكفي أن يكون من أحدهما؟ على روايتين. وهل يشترط ثبوت التوارث في الحال أو أن يكون من أهل الميراث في الجملة؟ على روايتين. فإن كان الأقارب من ذوي الأرحام الذين لا يرثون فلا نفقة لهم على المنصوص عنه، وخرج بعض أصحابه وجوبها عليهم من مذهبه

من توارثهم، ولا بد عنده من اتحاد الدين بين المنفق والمنفق عليه حيث وجبت النفقة إلا في عمودي النسب في إحدى الروايتين. فإن كان الميراث بغير القرابة كالولاء وجبت النفقة به في ظاهر مذهبه على الوارث دون المورث، وإذا لزمته نفقة رجل لزمته نفقة زوجته في ظاهر مذهبه. وعنه لا تلزمه. وعنه تلزمه في عمودي النسب خاصة دون من عداهم. وعنه تلزمه لزوجة الأب خاصة ويلزمه إعفاف عمودي نسبه بتزويج أو تسر إذا طلبوا ذلك.

قال القاضي أبو يعلى: وكذلك يجيء في كل من لزمته نفقته أخ أو عم أو غيرهما يلزمه إعفافه لأن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قد نص في العبد يلزمه أن يزوجه إذا طلب ذلك، وإلا بيع عليه، وإذا لزمه إعفاف رجل لزمه نفقة زوجته لأنه لا تمكن من الإعفاف إلا بذلك، وهذه غير المسألة المتقدمة وهو وجوب الإنفاق على زوجة المنفق عليه، ولهذه مأخذ ولتلك مأخذ، وهذا مذهب الإمام أحمد وهو أوسع من مذهب أبي حنيفة، وإن كان مذهب أبي حنيفة أوسع منه من وجه آخر حيث يوجب النفقة على ذوي الأرحام وهو الصحيح في الدليل، وهو الذي تقتضيه أصول أحمد ونصوصه وقواعد الشرع.

وصلة الرحم التي أمر اللَّه أن توصل وحرم الجنة على كل قاطع رحم، فالنفقة تستحق بشيئين: بالميراث بكتاب اللَّه، وبالرحم بسنة رسول اللَّه ﷺ. وقد تقدم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حبس عصبة صبي أن ينفقوا عليه وكانوا بني عمه، وتقدم قول زيد بن ثابت: إذا كان عم وأم فعلى العم بقدر ميراثه وعلى الأم بقدر ميراثها، فإنه لا مخالف لهما في الصحابة البتة، وهو قول جمهور السلف، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]، وقد أوجب النبي ﷺ العطية للأقارب، وصرح بأنسابهم، فقال: «وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك حق واجب ورحم موصولة»[3]. فإن قيل فالمراد بذلك البر والصلة دون الوجوب. قيل: يرد هذا أنه سبحانه أمر به وسماه حقا

(١) الإسراء: الآية (٢٦). (٢) النساء: الآية (٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ٣٥١/ ٥١٤٠) من حديث كليب بن منفعة عن جده. والحديث ضعفه الشيخ الألباني. ضعيف أبي داود (١١٠٠).

وأضافه إليه بقوله: ﴿حَقَّهُۥ﴾ وأخبر النبي ﷺ بأنه حق، وأنه واجب، وبعض هذا ينادي على الوجوب جهارا. فإن قيل: المراد بحقه ترك قطيعته. فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يقال فأي قطيعة أعظم من أن يراه يتلظى جوعا وعطشا، ويتأذى غاية الأذى بالحر والبرد، ولا يطعمه لقمة، ولا يسقيه جرعة، ولا يكسوه ما يستر عورته، ويقيه الحر والبرد، ويسكنه تحت سقف يظله، هذا وهو أخوه ابن أمه وأبيه، أو عمه صنو أبيه، أو خالته التي هي أمه، إنما يجب عليه من ذلك ما يجب بذله للأجنبي البعيد بأن يعاوضه على ذلك في الذمة إلى أن يوسر، ثم يسترجع به عليه، هذا مع كونه في غاية اليسار والجدة وسعة الأموال.

فإن لم تكن هذه قطيعة فإنا لا ندري ما هي القطيعة المحرمة، والصلة التي أمر اللَّه بها، وحرم الجنة على قاطعها.

الوجه الثاني: أن يقال: فما هذه الصلة الواجبة التي نادت عليها النصوص وبالغت في إيجابها وذمت قاطعها؟ فأي قدر زائد فيها على حق الأجنبي حتى تعقله القلوب، وتخبر به الألسنة وتعمل به الجوارح؟ أهو السلام عليه إذا لقيه، وعيادته إذا مرض، وتشميته إذا عطس، وإجابته إذا دعاه، وإنكم لا توجبون شيئًا من ذلك إلا ما يجب نظيره للأجنبي على الأجنبي؟ وإن كانت هذه الصلة ترك ضربه وسبه وأذاه والإزراء به ونحو ذلك فهذا حق يجب لكل مسلم على كل مسلم، بل للذمي البعيد على المسلم، فما خصوصية صلة الرحم الواجبة؟ ولهذا كان بعض فضلاء المتأخرين يقول: أعياني أن أعرف صلة الرحم الواجبة.

ولما أورد الناس هذا على أصحاب مالك، وقالوا لهم: ما معنى صلة الرحم عندكم؟ صنف بعضهم في صلة الرحم كتابًا كبيرًا وأوعب فيه من الآثار المرفوعة والموقوفة وذكر جنس الصلة وأنواعها وأقسامها، ومع هذا فلم يتخلص من هذا الإلزام، فإن الصلة معروفة يعرفها الخاص والعام، والآثار فيها أشهر من العلم، ولكن ما الصلة التي تختص بها الرحم وتجب له الرحمة ولا يشاركه فيها الأجنبي؟ فلا يمكنكم أن تعينوا وجوب شيء إلا وكانت النفقة أوجب منه، ولا يمكنكم أن تذكروا مسقطا لوجوب النفقة إلا وكان ما عداها أولى بالسقوط منه.

والنبي ﷺ قد قرن حق الأخ والأخت بالأب والأم، فقال: «**أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك**» فما الذي نسخ هذا، وما الذي جعل أوله للوجوب وآخره للاستحباب؟ وإذا عرف هذا فليس من بر الوالدين أن يدع الرجل أباه يكنس الكنف، ويكاري على الحمر، ويوقد في أتون الحمام، ويحمل للناس على رأسه ما يتقوت بأجرته، وهو في غاية الغنى واليسار، وسعة ذات اليد، وليس من بر أمه أن يدعها تخدم الناس، وتغسل ثيابهم، وتسقي لهم الماء، ونحو ذلك، ولا يصونها بما ينفقه عليها، ويقول: الأبوان مكتسبان صحيحان وليسا بزمنين، ولا أعميين فيا لله العجب أين شرط اللَّه ورسوله في بر الوالدين، وصلة الرحم، أن يكون أحدهم زمنا أو أعمى، وليست صلة الرحم ولا بر الوالدين موقوفة على ذلك شرعًا ولا لغة ولا عرفًا، وباللَّه التوفيق»[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٥/ ٥٤٤-٥٥١).

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تُعْرِضَنَّ: الإعراض التولي والتنحي عن الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: الضمير في قوله ﴿عَنْهُمُ﴾، راجع إلى المذكورين قبله في قوله: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].. الآية، ومعنى الآية: إن تعرض عن هؤلاء المذكورين فلم تعطهم شيئًا لأنه ليس عندك. وإعراضك المذكور عنهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ أي: رزق حلال. كالفيء يرزقكه اللَّه فتعطيهم منه ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: لينًا لطيفًا طيبًا. كالدعاء لهم بالغنى وسعة الرزق، ووعدهم بأن اللَّه إذا يسر من فضله رزقًا أنك تعطيهم منه.

وهذا تعليم عظيم من اللَّه لنبيه لمكارم الأخلاق، وأنه إن لم يقدر على الإعطاء الجميل فليتجمل في عدم الإعطاء؛ لأن الرد الجميل خير من الإعطاء القبيح. وهذا الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، صرح به اللَّه -جل وعلا- في سورة البقرة في قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[2].. الآية»[3].

قال ابن كثير: «أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: عِدهم وعدًا بسهولة ولين، إذا جاء رزق اللَّه فسنصلكم إن شاء اللَّه، هكذا فَسَّرَ قولَه: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾

---

(١) الإسراء: الآية (٢٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٦٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٦).

بالوعد: مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن تعرض يا محمد عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم حقوقهم إذا وجدت إليها السبيل بوجهك عند مسألتهم إياك، ما لا تجد إليه سبيلًا حياء منهم ورحمة لهم ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ يقول: انتظار رزق تنتظره من عند ربك، وترجو تيسير اللَّه إياه لك، فلا تُؤَيِّسْهم، ولكن قل لهم قولا ميسورا: يقول: ولكن عدهم وعدا جميلا بأن تقول: سيرزق اللَّه فأعطيكم، وما أشبه ذلك من القول اللين غير الغليظ، كما قال -جلّ ثناؤه-: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال ابن عاشور: «وفي ضمن هذا الشرط تأديب للمؤمن إن كان فاقدًا ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجوَ من اللَّه تيسير أسبابه، وأن لا يحمله الشح على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل بحيث لا يَعدِم البذلَ الآن؛ إلا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصًا على فضيلته، وأنه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلا في حال رجاء حصول نعمة، فإن حصلت أعطاهم»[(٤)].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٦).

(٢) الضحى: الآية (١٠).

(٣) جامع البيان (١٥/ ٧٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مَغْلُولَة: أي: جعلت يده وسط الأغلال، وفلان مغلول اليد كناية عن البخل.

مَلُومًا: الملوم الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه.

مَحْسُورًا: أي: منقطعًا بك، من قولهم: بعير حسير؛ أي: معيًّا قد انقطع عن الانبعاث لعَيِّه وكلاله، وأصل الحسر: كشف اللبس عن ما عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا بالاقتصاد في العيش ذامًّا للبخل ناهيًا عن السَّرَف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلا منوعًا، لا تعطي أحدًا شيئًا، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[1]، أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملومًا محسورًا.

وهذا من باب اللف والنشر أي: فتقعد إن بخلت ملومًا، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبي سُلمى في المعلقة:

ومن كان ذا مال ويبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك؛ قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التي قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفًا وعجزًا، فإنها تسمى الحسير، وهو

---

(١) المائدة: الآية (٦٤).

مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1]؛ أي: كليل عن أن يرى عيبًا. هكذا فسر هذه الآية -بأن المراد هنا البخل والسرف- ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم»[2].

وقال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر

وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجًا، والفقر عقوبة عياذًا بالله من هذا وهذا»[3].

قال ابن جرير: «وهذا مثل ضربه الله -تبارك وتعالى- للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء.

وإنما معنى الكلام: ولا تمسك يا محمد يدك بخلًا عن النفقة في حقوق الله، فلا تنفق فيها شيئًا إمساك المغلولة يده إلى عنقه، الذي لا يستطيع بسطها ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ يقول: ولا تبسطها بالعطية كلّ البسط، فتَبقى لا شيء عندك، ولا تجد إذا سئلت شيئًا تعطيه سائلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ يقول: فتقعد يلومك سائلوك إذا لم تعطهم حين سألوك، وتلومك نفسك على الإسراع في مالك وذهابه، ﴿مَّحْسُورًا﴾ يقول: مَعِيبا، قد انقُطِع بك، لا شيء عندك تنفقه»[4].

وقال: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده، فيوسع عليه، ويقدر على من يشاء، يقول: ويُقَتِّر على من يشاء منهم، فيضيِّق عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: يقول: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده؛ ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق

(١) الملك: الآيتان (٣-٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٩).
(٤) جامع البيان (١٥/ ٧٦).

ويهلكه ﴿بَصِيرًا﴾: يقول: هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم، يقول: فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيه، وفيمن تبسطها له، ومن كفها عمن تكفها عنه، وتكفها فيه، فنحن أعلم بمصالح العباد منك، ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم»(١).

قال الرازي: «وحاصل الكلام: أن الحكماء ذكروا في كتب (الأخلاق) أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٢)»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم البخل ومدح الكرم

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت -أو: وَفَرَتْ- على جلده حتى تُخْفِي بَنَانَه وتعفوَ أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لَزِقَت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع**»(٤).

⭑ **غريب الحديث:**

جُبَّتَانِ: بضم الجيم بعدها موحدة، تثنية جبة وهي ثوب مخصوص، ولا مانع من إطلاقه على الدرع.

مِن ثُدِيِّهِمَا: بضم المثلثة: جمع ثدي.

تَرَاقِيهِمَا: جمع ترقوة. والترقوة عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق.

سَبَغَتْ: أي: امتدت وغطت وقيل: كملت وتمت.

وَفَرْت: بتخفيف الفاء من الوفور بمعنى كملت.

حتى تُخفي بنانه: أي: تستر أصابعه.

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٧٨). (٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٦)، والبخاري (٣/ ٣٨٩/ ١٤٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٨/ ١٠٢١)، والنسائي (٥/ ٧٤-٧٥/ ٢٥٤٦).

تعفو أثره: أي تستر أثره.

لزقت: أي: التصقت.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «هذا مثل ضربه رسول اللَّه ﷺ للجواد المنفق، والبخيل الممسك: وشبههما برجلين أراد كل واحد منهما أن يلبس درعا يستجن بها، فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يلبس إنما يقع على موضع الصدر والثديين إلى أن يسلك لابسها يديه في كميها، ويرسل ذيلها على أسفل بدنه فيستمر سفلا، فجعل ﷺ مثل المنفق مثل من لبس درعا سابغا فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وحصنته، وجعل البخيل كرجل كانت يداه مغلولتين إلى عنقه ناتئتين دون صدره، فإذا أراد لبس الدرع حالت يداه بينهما وبين أن تمر سفلًا على البدن واجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته فكانت ثقلًا ووبالًا عليه من غير وقاية له أو تحصين لبدنه، وحقيقة المعنى أن الجواد إذا هم بالنفقة اتسع لذلك صدره وطاوعته يداه فامتدتا بالعطاء والبذل، وأن البخيل يضيق صدره وتنقبض يده عن الإنفاق في المعروف والصدقة، وإلى نحو من هذا المعنى أشير -واللَّه أعلم- في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[1]»[2].

قال ابن بطال: قال المهلب: فيه أن اللَّه تعالى ينمي مال المتصدق، ويستره ببركة نفقته بالنماء في ماله؛ ألا ترى ضربه ﷺ المثل بالجبتين، فإن المنفق يستره اللَّه بنفقته من قرنه إلى قدمه، وجميع عوراته بالفعل في الدنيا وبالأجر في الآخرة، فماله لا يشتد عليه، وأما البخيل فيظن أن ستره في إمساك ماله، فماله لا يمتد عليه فلا يستر من عوراته شيئًا حتى تبدو للناس فيبقى منكشفًا كمن يلبس جبة تبلغ إلى ثدييه، ولا تجاوز قلبه الذي يأمره بالإمساك، فهو يفتضح في الدنيا، ويؤزر في الآخرة»[3].

قال ابن القيم: «ولما كان البخيل محبوسًا عن الإحسان ممنوعا عن البر

(١) المائدة: الآية (٦٤).

(٢) أعلام الحديث (١/ ٧٦٩-٧٧٠).

(٣) شرح ابن بطال (٣/ ٤٤١).

والخير؛ كان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح، ضيق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا يكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب، فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه، بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله، فبقي قلبه في سجنه كما هو، والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلما تصدق اتسع وانفسح، وانشرح وقوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقا بالاستكثار منها، والمبادرة إليها، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[(1)]»[(2)].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه قال لي أنفق، أنفق عليك**» وقال رسول اللَّه ﷺ: «**يمين اللَّه ملأى لا يغيضها سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه، قال: وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض**»[(3)].

٭ غريب الحديث:

ملأى: بفتح الميم وسكون اللام بعدها همزة مع القصر: تأنيث ملآن.

لا يغيضها: أي: لا ينقصها. يقال: غاض الماء يغيض: إذا نقص.

سحاء: بفتح المهملتين: مثقل ممدود؛ أي: دائمة الصب.

٭ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله ﷻ: «**أَنْفِقْ أُنْفِق عليك**» هو معنى قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[(4)] فيتضمن الحث على الإنفاق معنى في وجوه الخير والتبشير

---

(١) الحشر: الآية (٩).

(٢) الوابل الصيب (ص: ١٠/ ٤١).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩/ ٤٦٨٤) ومسلم (٢/ ٦٩١/ ٩٩٣[٣٧])، وأخرج طرفه الأول: أحمد (٢/ ٢٤٢) وابن ماجه بإثر الحديث (١/ ٦٨٦/ ٢١٢٣) وأخرج طرفه الثاني: أحمد (٢/ ٥٠٠) والبخاري (١٣/ ٤٩٧/ ٧٤١٩) والترمذي (٥/ ٢٣٤/ ٣٠٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٣٩) وابن ماجه (١/ ٧١/ ١٩٧).

(٤) سبأ: الآية (٣٩).

بالخلف من فضل اللَّه تعالى»[١].

وقال القاري: «**«أنفق عليك»**: مما لا ينفد إيماء إلى قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[٢] والمعنى: أنفق الأموال الفانية في الدنيا لتدرك الأحوال العالية في العقبى. وقيل: معناه: أعط الناس ما رزقتك حتى أن أرزقك؛ أي: في الدنيا والعقبى؛ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾»[٣].

قال ابن علان: «**«أنفق»** أي: أيها الصالح للخطاب من سائر المؤمنين: أي أنفق المال في وجوه القرب بالطريق المأذون فيه شرعًا إيمانًا واحتسابًا **«ينفق عليك»**.. أي: إن تنفق ينفق: أي يوسع عليك ويخلف عوض ما تنفقه، فعبر عنه بالإنفاق على سبيل المشاكلة»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا»**[٥].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «معنى هذا الحديث: الحض على الإنفاق في الواجبات كالنفقة على الأهل وصلة الأرحام، ويدخل فيه صدقة التطوع والفرض ومعلوم أن دعاء الملائكة مجاب بدليل قوله: **«فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»**[٦] ومصداق الحديث قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[٧] يعني ما أنفقتم في طاعة اللَّه، وقوله ﷺ: **«ابن آدم أنفق أنفق عليك»**»[٨].

قوله: **«اللهم أعط منفقًا خلفًا»**: **قال ابن علان**: «وأبهم الخلف ليتناول المال والثواب وغيرهما»[٩].

---

(١) شرح مسلم (٧/ ٦٩).
(٢) النحل: الآية (٩٦).
(٣) المرقاة (٤/ ٣٦٧).
(٤) دليل الفالحين (٢/ ٥٤٩).
(٥) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٨٨/ ١٤٤٢)، ومسلم (٢/ ٧٠٠/ ١٠١٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٥/ ٩١٧٨).
(٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٨) والبخاري (١١/ ٢٣٩/ ٦٤٠٢) ومسلم (١/ ٣٠٧/ ٤١٠) وأبو داود (١/ ٥٧٦/ ٩٣٦) والترمذي (٢/ ٣٠/ ٢٥٠) والنسائي (٢/ ٤٨١/ ٩٢٤) وابن ماجه (١/ ٢٧٧/ ٨٥١) من طرق عن أبي هريرة.
(٧) سبأ: الآية (٣٩).
(٨) شرح ابن بطال (٣/ ٤٣٩).
(٩) دليل الفالحين (٢/ ١٢١).

قال الحافظ: «وأما الخلف فإبهامه أولى ليتناول المال والثواب وغيرهما، وكم من منفق مات قبل أن يقع له الخلف المالي، فيكون خلفة الثواب المعد له في الآخرة، أو يدفع عنه من السوء ما يقابل ذلك»[1].

وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه، أو تلف نفس صاحب المال، والمراد به فوات أعمال البر بالتشاغل بغيرها[2].

قال القاضي عياض: «فيه الحض على الإنفاق ورجاء قبول دعوة الملائكة»[3].

* عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[4].

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبدالبر: «ومعنى قوله: «**ما نقصت صدقة من مال**» أي: لا تنقص الصدقة المال لأنه مال مبارك فيه إذا أديت زكاته، وتطوع منه صاحبه؛ لأن الصدقة تضاعف إلى سبعمائة ضعف، ويجدها صاحبها وقت الحاجة إليها كجبل أحد مضاعفة أضعافًا كثيرة، فأي نقصان مع هذا»[5].

قال النووي: «قوله «**ما نقصت صدقة من مال**» ذكروا فيه وجهين: أحدهما: معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس والعادة. والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه، وزيادة إلى أضعاف كثيرة»[6].

وقال ابن علان: «وفي أمالي العز بن عبد السلام معنى الحديث: أن ابن آدم لا يضيع له شيء، وما لم ينتفع به في دنياه انتفع به في عقباه، فإن الإنسان إذا كان له داران، فحول ماله من إحداهما إلى الأخرى، لا يقال في ذلك المحول إنه نقص من ماله، وكان بعض السلف إذا رأى السائل يقول: مرحبًا بمن جاء يحول مال دنيانا إلى أخرانا، قال: هذا معنى الحديث، وليس معناه أنه لا ينقص في الحس، ولا أن

---

(١) الفتح (٣/ ٣٨٨). (٢) أفاده الحافظ في الفتح (٣/ ٣٨٩).
(٣) الإكمال (٣/ ٥٣١).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٠/ ٢٠٢٩).
(٥) الاستذكار (٢٧/ ٤٢٦). (٦) المنهاج (١٦/ ١١٦).

اللَّه يخلف عليه، فإن ذلك معنى مستأنف»[1].

* عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ قال: خطب رسول اللَّه ﷺ فقال: «إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح: أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[2].

★ غريب الحديث:

الشح والبخل: قال ابن القيم: «والفرق بين الشح والبخل أن الشح هو شدة الحرص على الشيء، والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه. والبخل منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله. فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس. فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقى شره»[3].

القطيعة: الهجران والصد، وهي فعيلة من القطع، ويريد به ترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهي ضد صلة الرحم.

الفجور: يقال فجر فجرًا وفجورًا: انبعث في المعاصي غير مكترث.

★ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام: «فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة، فالبخل منع منفعة الناس بنفسه وماله، والظلم هو الاعتداء عليهم. فالأول هو التفريط فيما يجب، فيكون قد فرط فيما يجب واعتدى عليهم بفعل ما يحرم. وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاما لها لأنها تدخل في الأمرين المتقدمين قبلها. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾[4] هو أن لا يأخذ شيئًا مما نهاه اللَّه عنه، ولا يمنع شيئًا أمره اللَّه بأدائه. فالشح يأمر بخلاف أمر اللَّه ورسوله، فإن اللَّه ينهى

---

(١) دليل الفالحين (٢/ ٥٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٥)، وأبو داود (٢/ ٣٢٤/ ١٦٩٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٦/ ١١٥٨٣)، والحاكم (١/ ٤١٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١١/ ٥٧٩/ ٥١٧٦).

(٣) الوابل الصيب (ص: ٤٠).

(٤) الحشر: الآية (٩).

عن الظلم، ويأمر بالإحسان. والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان. وقد كان عبدالرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول: اللهم قني شح نفسي، فسئل عن ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة. وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال أسمع اللَّه يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال: ليس ذاك بالشح الذي ذكره اللَّه في القرآن، إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلما، وإنما يكون بالبخل وبئس الشيء البخل»[1].

وقال أيضًا: «فإن البخيل قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم، وقد لا يكون متلذذًا به ولا متنعمًا، بل نفسه تضيق عن إنفاقه، وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثرة ماله، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته، وقد لا يكون هناك لذة أصلا، بل يكره أن يفعل إحسانًا إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضًا للخير، لا للمعطي للخير ولا للمعطى، بل بغضا منه للخير، وقد يكون بغضًا وحسدًا للمعطي أو للمعطى، وهذا هو الشح، وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعًا، ولكن كل بخل يكون عن شح، فكل شحيح بخيل، وليس كل بخيل شحيحا»[2].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨٨-٥٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٩١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

★ غريب الآية:

إِمْلَاق: أي: فقر، يقال: أملق الرجل: افتقر.

خِطْئًا: إثمًا، يقال: خطئ في دينه: إذا أثِم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة دالة على أن اللَّه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى تعالى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى اللَّه تعالى عن ذلك فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: خوف أن تفتقروا في ثاني الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفي (الأنعام): ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾أي: من فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي: ذنبًا عظيمًا.

وقرأ بعضهم: ﴿كَانَ خَطَأً كَبِيرًا﴾ وهو بمعناه»[2].

قال السعدي: «وهذا من رحمته بعباده حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرا أي: من أعظم كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب والعقوق العظيم والتجرؤ على قتل الأطفال الذين لم يجر منهم ذنب

(١) الأنعام: الآية (١٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٦٩).

ولا معصية»(١).

قال الرازي: «كان العرب يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة، وأيضًا كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها، فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء، وفي ذلك عار شديد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ وهذا لفظ عام للذكور والإناث، والمعنى: أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدًا، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الإناث. وأما ما يخاف من الفقر من البنات، فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر، وقد يخاف أيضًا في العاجزين من البنين.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني الأرزاق بيد اللَّه تعالى، فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال، فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل عيال الأولاد والنهي عن قتلهم

* عن أنس ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو** وضم أصابعه»(٣).

* عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجابًا من النار يوم القيامة**»(٤).

⋆ غريب الحديثين:

عَالَ: أي أنفق ومَان.

مِن جِدَتِهِ: من غناه. وجد المال يجد جدة؛ أي: استغنى غنى.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ١٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٧-٢٠٢٨/ ٢٦٣١)، والترمذي (٤/ ٢٨١/ ١٩١٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢١٠/ ٣٦٦٩)، وأبو يعلى (٣/ ٢٩٩-٣٠٠/ ١٧٦٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦). وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١/ ٥٩٠-٥٩١).

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: «**كُنَّ له حجابا من النار**» قال القرطبي: «فمن فعل ذلك وقصد به وجه اللَّه تعالى، عافاه اللَّه تعالى من النار، وباعده منها، وهو المعبر عنه بالستر من النار. ولا شك في أن من لم يدخل النار دخل الجنة»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «**من عال جاريتين**» قام عليهما بما يصلحهما ويحفظهما. يقال منه: عال الرجل عياله، يعولهم، عولا وعيالة، ويقال: علته شهرًا، إذا كفيته معاشه. ويعني ببلوغهما وصولهما إلى حال يستقلان بأنفسهما، وذلك إنما يكون في النساء، إلى أن يدخل بهن أزواجهن، ولا يعني ببلوغها إلى أن تحيض وتكلف، إذ قد تتزوج قبل ذلك فتستغني بالزوج عن قيام الكافل، وقد تحيض وهي غير مستقلة بشيء من مصالحها، ولو تركت لضاعت، وفسدت أحوالها. بل هي في هذه الحال أحق بالصيانة، والقيام عليها لتكمل صيانتها فيرغب في تزوجها، ولهذا المعنى قال علماؤنا: لا تسقط النفقة عن والد الصبية بنفس بلوغها، بل بدخول الزوج بها»[2].

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**» قلت: إن ذلك لعظيم، قلت: ثم أي؟ قال: «**وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**» قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

فيه أن أعظم الذنوب قتل الولد؛ لأن اللَّه تعالى هو الذي خلقهم وتكفل برزقهم، ولهذا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ قال الكرماني: وجه كونه أعظم أنه جمع مع القتل ضعف الاعتقاد في أن اللَّه هو الرزاق»[4].

قوله: «**أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك**» قال القرطبي: «هذا من أعظم

---

(١) المفهم (٦/ ٦٣٦).

(٢) المفهم (٦/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٤)، والبخاري (٨/ ٢٠٧/ ٤٤٧٧)، ومسلم (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والترمذي (٥/ ٣١٤/ ٣١٨٢)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٤) الفتح (١٢/ ٢٣١).

الذنوب؛ لأنه قتل نفس محرمة شرعًا، محبوبة طبعًا، مرحومة عادة، فإذا قتلها أبوها كان ذلك دليلا على غلبة الجهل والبخل وغلظ الطبع والقسوة، وأنه قد انتهى من ذلك كله إلى الغاية القصوى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾[١] أي فقر، وهذا خطاب لمن كان فقره حاصلا في الحال، فيخفف عنه بقتل ولده مؤنته من طعامه ولوازمه، وهذه الآية بخلاف الآية الأخرى التي قال فيها ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فإنه خطاب لمن كان واجدا لما ينفق عليه في الحال، غير أنه كان يقتله مخافة الفقر في ثاني حال، وكان بعض جفاة الأعراب وجهالهم ربما يفعلون ذلك، وقد قيل: إن الأولاد في هاتين الآيتين هم البنات، كانوا يدفنونهن أحياء أنفة وكبرا، ومخافة العيلة والمعرة، وهي الموءودة التي ذكر اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٢]. والحاصل: أن أهل الجاهلية كانوا يصنعون كل ذلك فنهى اللَّه تعالى عن ذلك، وعظم الإثم فيه، والمعاقبة عليه، وأخبر النبي ﷺ أن ذلك من أعظم الكبائر»[٣].

قال ابن العربي المالكي بعد سياقه هذا الحديث: «هذا نص صريح وحديث صحيح؛ وذلك لأن القتل أعظم الذنوب؛ إذ فيه إذابة الجنس، وإيثار النفس، وتعاطي الوحدة التي لا قوام للعالم بها، وتخلق الجنسية بأخلاق السبعية، وإذا كانت مع قوة الأسباب في جار أو قريب، والولد ألصق القرابة، وأعظم الحرمة، فيتضاعف الإثم بتضاعف الهتك للحرمة»[٤].

«**تخاف أن يطعم معك**»: «أي من جهة إيثار نفسه عليه عند عدم ما يكفي، أو من جهة البخل مع الوجدان»[٥].

قال ابن بطال: «إنما جعل النبي قتل الولد خشية أن يأكل مع أبيه أعظم الذنوب بعد الشرك؛ لأن ذلك يجمع القتل وقطع الرحم ونهاية البخل، وإنما ذكر البخاري هذا الحديث بإثر باب رحمة الولد وتقبيله؛ ليعلمنا أن قتل الولد خشية أن يأكل مع أبيه من أعظم الذنوب عند اللَّه بعد الشرك به، فإذا كان كذلك فرحمته وصلته

---

(١) الأنعام: الآية (١٥١).

(٢) التكوير: الآيتان (٨-٩).

(٣) المفهم (١/ ٢٨٠-٢٨١).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ١٢٠٥).

(٥) قاله الحافظ في الفتح (٨/ ٦٣٢).

والإحسان إليه من أعظم أعمال البر بعد الإيمان»[١].

قلت: هذه نصوص القرآن وصحيح السنن وأقوال علماء الإسلام في النهي عن قتل الأبناء والصغار خشية الفقر والتضييق، وهذا الذي جاءت النصوص بالتحذير منه، وأكده كذلك فهم العلماء وأقوالهم؛ جاءت به المدنية الغربية، وأصبح منهاجها هو تحديد النسل، ومحاربة الأرحام، وتنوعت وسائلهم في ذلك، فأباحوا ما حرم اللَّه، وحرموا ما أمر اللَّه بإبقائه، وتبع هؤلاء أبناء المسلمين في كثير من البلدان، فالصيدليات مليئة بالعوازل وحبوب منع الحمل، سواء كان ذلك لضرورة أو غير ضرورة؛ بل أصبحت العوازل ووسائل منع الحمل توزع في الأكشاك وفي المهرجانات، ويعلن عليها في الفضائيات، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون على هجران القرآن والسنن، والانسياق في منهاج الكفرة والعلمانيين الذين لا يؤمنون باللَّه واليوم الآخر. اللهم ردّ أبناءنا ردًّا جميلًا، وأعذنا من شر الإباحية والحكم بغير ما أنزل اللَّه والانسياق مع حكم الكفرة.

* * *

---

(١) شرح ابن بطال (٩/ ٢١٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الزنا: وَطء بغير نكاح شرعي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «النهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه فإن: «**من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه**»[(١)] خصوصا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف اللَّه الزنى وقبحه بأنه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ أي: إنما يستفحش في الشرع والعقل والفطر لتضمنه التجري على الحرمة في حق اللَّه وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد.

وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس السبيل سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم»[(٢)].

قال الرازي: «اشتمل الزنا على أنواع من المفاسد:

أولها: اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وذلك يوجب انقطاع النسل، وخراب العالم.

وثانيها: أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧) والبخاري (٤/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٢٠٥١) ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩) وأبو داود (٣/ ٦٢٣-٦٢٤/ ٣٣٢٩) والترمذي (٣/ ٥١١/ ١٢٠٥) والنسائي (٧/ ٢٧٧-٢٧٩/ ٤٤٦٥) وابن ماجه (٢/ ١٣١٨-١٣١٩/ ٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٥).

إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

وثالثها: أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق.

ورابعها: أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت. وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب.

وخامسها: أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل، وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت، وحافظة للباب، وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد، منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية.

وسادسها: أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضًا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلًا كان السعي في تقليله موافقًا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعي في تقليل ذلك العمل، وأيضًا ما فيه من الذل يصير مجبورًا بالمنافع الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح، ولم يصر مجبورًا بشيء من المنافع، فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح»[1].

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٠٠-٢٠١).

قال ابن عاشور: «وعناية الإسلام بتحريم الزنى؛ لأن فيه إضاعة النسب، وتعريض النسل للإهمال إن كان الزنى بغير متزوجة، وهو خلل عظيم في المجتمع، ولأن فيه إفساد النساء على أزواجهن، والأبكار على أوليائهن، ولأن فيه تعريضَ المرأة إلى الإهمال بإعراض الناس عن تزوجها، وطلاق زوجها إياها، ولما ينشأ عن الغيرة من الهرج والتقاتل، قال امرؤ القيس:

عليّ حِراصا لو يُسرّون مقتلي[1]

فالزنى مئنة لإضاعة الأنساب، ومَظَنّةٌ للتقاتل والتهارج، فكان جديرًا بتغليظ التحريم قصدًا وتوسلًا. ومن تأمل ونظر؛ جزم بما يشتمل عليه الزنى من المفاسد، ولو كان المتأمل ممن يفعله في الجاهلية فقبحه ثابت لذاته، ولكن العقلاء متفاوتون في إدراكه وفي مقدار إدراكه، فلما أيقظهم التحريم لم يبق للناس عذر»[2].

قال ابن القيم: «حقيق بكل عاقل أن لا يسلك سبيلًا حتى يعلم سلامتها وآفاتها، وما توصل إليه تلك الطريق من سلامة أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات، وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل اللَّه ﷻ سبيل الزنى شر سبيل؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الزنى وعواقبه وخطره في الدنيا وفي الآخرة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها**

---

(١) ويتبين المعنى بالبيت كاملا والذي قبله، وهو:

بَـيْـضـةِ خِـدْرٍ لا يُـرامُ خِـبـاؤهـا ... تـمـتّـعـتُ مـن لـهـوٍ بـهـا غـيـرَ مُـعْـجَـلِ

تـجـاوزتُ أحـراسًـا إلـيـهـا ومَـعْـشَـرا ... عـلـيَّ حِـراصًـا لـو يُـسِـرُّون مَـقْـتَـلـي

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٩٠-٩١).

(٣) روضة المحبين (ص: ٣٥٢).

وهو مؤمن»[١] .

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «ومقصود هذا الحديث: التنبيه على جميع أنواع المعاصي، والتحذير منها، فنبه بالزنى على جميع الشهوات المحرمة؛ كشهوة النظر، والكلام، والسمع، ولمس اليد، ونقل الخُطا إلى مثل تلك الشهوة. كما قال -عليه الصلاة والسلام-: **«زنى العينين النظر، وزنى اللسان الكلام، وزنى اليد البطش، وزنى الرجل الخُطا، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»**[٢]»[٣] .

وقال: «إن الحديث يتضمن التحذير عن ثلاثة أمور، وهي من أعظم أصول المفاسد، وأضدادها من أصول المصالح، وهي: استباحة الفروج المحرمة، والأموال المحرمة، وما يؤدي إلى الإخلال بالعقول»[٤] .

وقال ابن القيم: «ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه، وابنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم؛ كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها اللَّه سبحانه بها في كتابه، ورسوله في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا، وقد أكد اللَّه سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾[٥] الآية، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣)، والبخاري (١٠/ ٣٧-٣٨/ ٥٥٧٨)، ومسلم (١/ ٧٦/ ٥٧)، وأبو داود (٥/ ٦٤-٦٥/ ٤٦٨٩)، والترمذي (٥/ ١٦-١٧/ ٢٦٢٥)، والنسائي (٨/ ٤٣٥/ ٤٨٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨-١٢٩٩/ ٣٩٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٢) ومسلم (٤/ ٢٠٤٧/ ٢٦٥٧[٢١]) وأبو داود (٢/ ٦١٢/ ٢١٥٣) من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعا.

(٣) المفهم (١/ ٢٤٦).

(٤) المفهم (١/ ٢٤٦).

(٥) الفرقان: الآيات (٦٨-٧٠).

جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[1]»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والزنا يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله، فالغدر، والكذب، والخيانة، وقلة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب، من شعبه وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرض رجل إلى ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة، ومنها سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين. ومنها ظلمة القلب وطمس نوره وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له. ومنها الفقر اللازم، وفي أثر يقول اللَّه تعالى: «**أنا اللَّه مهلك الطغاة، ومفقر الزناة**»[3]. ومنها أنه يذهب حرمة فاعله ويسقطه من عين ربه ومن أعين عباده. ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسم العفة والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن. ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» فسلبه اسم الإيمان المطلق، وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان، وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث، فخط دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرى خارجة عنها وقال هذه دائرة الإسلام، فإذا زنى العبد خرج من هذه ولم يخرج من هذه، ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمى مؤمنا، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمى به عالمًا فقيهًا، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمى بذلك شجاعًا ولا جوادًا، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمى متقيًا، ونظائره.

---

(١) الإسراء: الآية (٣٢). (٢) الداء والدواء (ص: ٢٣٠-٢٣١).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦١/ ١٥٢) وابن الجوزي في ذم الهوى من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم. ومنها أن يعرض نفسه لسكنى التنور الذي رأى النبي ﷺ فيه الزناة والزواني. ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾(1).

وقد حرم الله الجنة على كل خبيث؛ بل جعلها مأوى الطيبين، ولا يدخلها إلا طيب؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾(3)، فإنما استحقوا سلام الملائكة ودخول الجنة بطيبهم. والزناة من أخبث الخلق وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيب، وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيب ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله ﷻ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف على وجهه حلاوة، وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به. والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به. ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة. ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحد على حرمته، ولا على ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه يشمها كل ذي قلب سليم، تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه، ولكن كما قيل:

كُلٌّ بِهِ مِثْلُ مَا بِي غَيْرَ أَنَّهُمُ مِنْ غَيْرَةٍ بَعْضُهُمْ لِلْبَعْضِ عُذَّالُ

ومنها: ضيقة الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب

---

(1) النور: الآية (٢٦).

(2) النحل: الآية (٣٢).

(3) الزمر: الآية (٧٣).

لذة العيش وطيبه بما حرمه اللَّه عليه عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند اللَّه لا ينال إلا بطاعته، ولم يجعل اللَّه معصيته سببًا إلى خير قط، ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور، وانشراح الصدر، وطيب العيش لرأى أن الذي فاته من اللذة أضعاف أضعاف ما حصل له، دع ربح العاقبة والفوز بثواب اللَّه وكرامته.

ومنها: أنه يعرض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، وقد تقدم أن اللَّه ﷻ إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسه يوم القيامة، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا فإن توسع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة.

ومنها: أن الزنى يجرئه على قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وكسب الحرام، وظلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسرا إلى سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها، فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه، وأعيى الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يفدى، وقتيلها لا يودى، وقد وكلها اللَّه سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبد فليودع نعم اللَّه، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيك الزوال؛ قال اللَّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[2]»[3].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان كان عليه كالظلة، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان»**[4].

---

(١) الأنفال: الآية (٥٣).

(٢) الرعد: الآية (١١).

(٣) روضة المحبين (ص: ٣٦٠-٣٦٣).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥/ ٦٦/ ٤٦٩٠)، والحاكم (١/ ٢٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. وذكره الترمذي معلقا (٥/ ١٧).

★ غريب الحديث:

كالظلة: كالسحابة.

انْقَلَع: فرغ من فعله.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«إذا زنى العبد»** أي: أخذ في الزنا **«خرج منه الإيمان»** أي: نوره، أو كماله، **«فكان على رأسه كالظلة»** بضم الظاء وشد اللام: السحابة، فلا يزول حكمه ولا يرتفع عنه اسمه ما دام فيه؛ لأن للإيمان أنوارًا في القلب، وآثارًا في الجوارح، فيقل عند مقارفة المعاصي، ويظلم عند التلبس بالذنوب، والمؤمن لا يزني إلا إذا استولى شبقه واشتعلت شهوته، بحيث تغلب إيمانه وتشغله عنه، فيصير في تلك الحالة كالفاقد للإيمان، لا يرتفع عنه اسمه ولا يزول حكمه؛ بل هو في كنف رعايته وظل عصمته، والإيمان مظل عليه كالظلة، وهي أول سحابة تظل على الأرض، فإذا فرغ منه زال الشبق المعاوق عن الثبات على ما يأمره إيمانه، والموجب لذهوله ونسيانه، وعاد الإيمان وأخذ في القوة والازدياد، كما قال **«فإذا أقلع»** أي نزع عن المعصية وتاب منها توبة صحيحة بشروطها، ومنها أن يستحل حليل المزني بها على ما قيل، لكنه عليل، بل القويم اغتفاره لما يترتب على أعماله به من المفاسد **«رجع إليه الإيمان»** أي نوره وكماله، فالمسلوب: اسم الإيمان المطلق لا مطلق الإيمان، ولا يلزم من ثبوت جزء من الإيمان أن يسمى مؤمنًا، كما أن من يكون معه جزء من الفقه لا يسمى فقيها، فكذا يكون معه شيء من التقوى ولا يسمى تقيا، فالحديث على ظاهره ولا ملجئ لتأويله»[1].

قال ابن تيمية: «فالقول الوسط الذي هو قول أهل السنة والجماعة أنهم لا يسلبون الاسم على الإطلاق، ولا يعطونه على الإطلاق. فنقول: هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويقال: ليس بمؤمن حقا أو ليس بصادق الإيمان. وكل كلام أطلق في الكتاب والسنة فلا بد أن يقترن به ما يبين المراد منه. والأحكام منها ما يترتب على أصل الإيمان فقط؛

---

(١) فيض القدير (١/ ٣٦٧).

كجواز العتق في الكفارة، وكالموالاة والموارثة ونحو ذلك، ومنها ما يترتب على أصله وفرعه: كاستحقاق الحمد والثواب وغفران السيئات ونحو ذلك.

إذا عرفت هذه القاعدة، فالذي في الصحيح قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن**» والزيادة التي رواها أبو داود والترمذي صحيحة، وهي مفسرة للرواية المشهورة. فقول السائل: هل حمل الحديث على ظاهره أحد من الأئمة؟ لفظ مشترك؛ فإن عنى بذلك أن ظاهره أن الزاني يصير كافرا، وأنه يسلب الإيمان بالكلية فلم يحمل الحديث على هذا أحد من الأئمة، ولا هو أيضًا ظاهر الحديث؛ لأن قوله: «**خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة**» دليل على أن الإيمان لا يفارقه بالكلية، فإن الظلة تظلل صاحبها وهي متعلقة ومرتبطة به نوع ارتباط.

وأما إن عنى بظاهره ما هو المفهوم منه كما سنفسره إن شاء اللَّه فنعم؛ فإن عامة علماء السلف يقرون هذه الأحاديث ويمرونها كما جاءت، ويكرهون أن تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود رسول اللَّه ﷺ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد: عن سفيان وأحمد بن حنبل ﷺ، وجماعة كثيرة من العلماء، ونص أحمد على أن مثل هذا الحديث لا يتأول تأويلا يخرجه عن ظاهره المقصود به، وقد تأوله الخطابي وغيره تأويلات مستكرهة، مثل قولهم: لفظه لفظ الخبر ومعناه النهي: أي ينبغي للمؤمن ألا يفعل ذلك.

وقولهم: المقصود به الوعيد والزجر دون حقيقة النفي، وإنما ساغ ذلك لما بين حاله وحال من عدم الإيمان من المشابهة والمقاربة. وقولهم: إنما عدم كمال الإيمان وتمامه أو شرائعه وثمراته ونحو ذلك، وكل هذه التأويلات لا يخفى حالها على من أمعن النظر.

فالحق أن يقال: نفس التصديق المفرق بينه وبين الكافر لم يعدمه، لكن هذا التصديق لو بقي على حاله لكان صاحبه مصدقًا بأن اللَّه حرم هذه الكبيرة، وأنه توعد عليها بالعقوبة العظيمة وأنه يرى الفاعل ويشاهده؛ وهو ﷻ مع عظمته وجلاله وعلوه وكبريائه يمقت هذا الفاعل، فلو تصور هذا حق التصور لامتنع صدور الفعل منه، ومتى فعل هذه الخطيئة فلا بد من أحد ثلاثة أشياء: إما اضطراب العقيدة؛ بأن

يعتقد بأن الوعيد ليس ظاهره كباطنه وإنما مقصوده الزجر كما تقوله المرجئة. أو أن هذا إنما يحرم على العامة دون الخاصة كما يقوله الإباحية أو نحو ذلك من العقائد التي تخرج عن الملة.

وإما الغفلة والذهول عن التحريم وعظمة الرب وشدة بأسه. وإما فرط الشهوة بحيث يقهر مقتضى الإيمان ويمنعه موجبه بحيث يصير الاعتقاد مغمورا مقهورا، كالعقل في النائم والسكران، وكالروح في النائم. ومعلوم أن الإيمان الذي هو الإيمان ليس باقيًا كما كان؛ إذ ليس مستقرًّا ظاهرًا في القلب، واسم المؤمن عند الإطلاق إنما ينصرف إلى من يكون إيمانه باقيا على حاله عاملًا عمله، وهو يشبه من بعض الوجوه روح النائم؛ فإنه سبحانه: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[1]؛ فالنائم ميت من وجه حي من وجه، وكذلك السكران والمغمى عليه عاقل من وجه، وليس بعاقل من وجه. فإذا قال قائل: السكران ليس بعاقل، فإذا صحا عاد عقله إليه كان صادقا مع العلم بأنه ليس بمنزلة البهيمة، إذ عقله مستور وعقل البهيمة معدوم؛ بل الغضبان ينتهي به الغضب إلى حال يعزب فيها عقله ورأيه، وفي الأثر: «إذا أراد اللَّه نفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم، فإذا أنفذ قضاءه وقدره رد عليهم عقولهم ليعتبروا» فالعقل الذي به يكون التكليف لم يسلب، وإنما سلب العقل الذي به يكون صلاح الأمور في الدنيا والآخرة.

كذلك الزاني والسارق والشارب والمنتهب لم يعدم الإيمان الذي به يستحق ألا يخلد في النار، وبه ترجى له الشفاعة والمغفرة، وبه يستحق المناكحة والموارثة، لكن عدم الإيمان الذي به يستحق النجاة من العذاب، ويستحق به تكفير السيئات، وقبول الطاعات، وكرامة اللَّه ومثوبته؛ وبه يستحق أن يكون محمودا مرضيا. وهذا يبين أن الحديث على ظاهره الذي يليق به. واللَّه أعلم»[2].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله»**[3].

---

(١) الزمر: الآية (٤٢). (٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٣-٦٧٦).

(٣) أخرجه: الطبراني في الكبير (١/ ١٧٨/ ٤٦٠)، والحاكم (٢/ ٣٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١١٨) وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه هاشم بن مرزوق=

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «**«في قرية»** أي في أهل قرية أو نحوها كبلدة أو محلة **«فقد أحلوا»** بفتح الحاء ومد اللام من الحلول **«بأنفسهم عذاب الله»** أي: تسببوا في وقوعه بهم لمخالفتهم ما اقتضته حكمة اللَّه من حفظ الأنساب وعدم اختلاط المياه»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

العائل: الفقير.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وأما تخصيصه ﷺ في الرواية الأخرى الشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر بالوعيد المذكور؛ فقال القاضي عياض: سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يعذر أحد بذنب، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مزعجة، ولا دواعي معتادة، أشبه إقدامهم عليها المعاندة والاستخفاف بحق اللَّه تعالى، وقصد معصيته، لا لحاجة غيرها، فإن الشيخ لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان، وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء واختلال دواعيه لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا، ويخلى سره منه، فكيف بالزنا الحرام، وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية، وقلة المعرفة وغلبة الشهوة لضعف العقل وصغر السن. وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من

= ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات. قال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ١٠٤): هاشم بن مرزوق روى عن عمرو بن أبي قيس وروى عنه ابنه علي بن هاشم.. سألت أبي عنه فقال: هو ثقة. وللحديث شاهد عن ابن مسعود أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٢)، وأبو يعلى (٨/ ٣٩٦-٣٩٧/ ٤٩٨١)، وابن حبان (١٠/ ٢٥٨/ ٤٤١٠) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١١٨): رواه أبو يعلى وإسناده جيد.

(١) فيض القدير (١/ ٤٠٠-٤٠١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٠)، ومسلم (١/ ١٠٢-١٠٣/ ١٠٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٦٩/ ٧١٣٨).

رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته، أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، وهو غني عن الكذب مطلقا، وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القرناء؛ الثروة في الدنيا، لكونه ظاهرا فيها، وحاجات أهلها إليه. فإذا لم يكن عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضرب من الاستخفاف بحق اللَّه تعالى، واللَّه أعلم»[١].

وقال الطيبي: «قوله «شيخ زانٍ» يعني: الزنى قبيح، ومن الشيخ أقبح، والكذب سمج، ومن الملك أسمج، والتكبر مذموم، ومن الفقير أذم»[٢].

*** عن أسامة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»**[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٤] فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك، ويقع في المشاهدة حب الرجل ولده من امرأته التي هي عنده أكثر من حبه ولده من غيرها، ومن أمثلة ذلك قصة النعمان بن بشير في الهبة، وقد قال بعض الحكماء: النساء شر كلهن، وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن، ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين، وحمله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد»[٥].

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٩٩-١٠٠).

(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٤٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠ و٢١٠)، والبخاري (٩/ ١٧١/ ٥٠٩٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧/ ٢٧٤٠)، والترمذي (٥/ ٩٥/ ٢٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٣٩٩٨)، كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد ﵄.

(٤) آل عمران: الآية (١٤).

(٥) الفتح (٩/ ١٧١-١٧٢).

وقال ابن بطال: «وفي حديث أسامة أن فتنة النساء أعظم الفتن مخافة على العباد؛ لأنه ﷺ عمم جميع الفتن بقوله: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»، ويشهد لصحة هذا الحديث قول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية، فقدم النساء على جميع الشهوات، وقد رُوي عن بعض أمهات المؤمنين أنها قالت: «من شقائنا قدمنا على جميع الشهوات». فالمحنة بالنساء أعظم المحن على قدر الفتنة بهن، وقد أخبر الله مع ذلك أن منهن لنا عدوًّا، فينبغي للمؤمن الاعتصام بالله، والرغبة إليه في النجاة من فتنتهن، والسلامة من شرهن»[1].

* عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: **أتحبه لأمك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**. قال: **أفتحبه لابنتك؟** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: **ولا الناس يحبونه لبناتهم**. قال: **أفتحبه لأختك؟** قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: **ولا الناس يحبونه لأخواتهم**، قال: **أفتحبه لعمتك**، قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: **ولا الناس يحبونه لعماتهم**، قال: **أفتحبه لخالتك؟** قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: **ولا الناس يحبونه لخالاتهم**، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

★ غريب الحديث:

مَهْ مَهْ: اسم فعل مبني على السكون بمعنى اسكت، وكرر للتأكيد.

ادْنُه: أمر من الدنو والقرب، والهاء فيه للسكت، جيء بها لبيان الحركة.

★ فوائد الحديث:

قال البنا رحمه الله: «في هذا بيان لما كان عليه ﷺ من مكارم الأخلاق، وحسن

---

(١) شرح ابن بطال (٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥٦-٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٦٢-١٦٣/ ٧٦٧٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٢٩) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

السياسة. أي حيث أنك لا تحبه لأمك فالناس لا يحبونه لأمهاتهم، وإذا كان ذلك كذلك فكيف آذن لك به، وكيف ترضاه لنفسك، وهكذا يقال فيما بعده. في هذا الحديث منقبة عظيمة لهذا الشاب حيث دعا له النبي ﷺ بهذه الدعوات المباركات التي هي من جوامع الكلم، ودعاؤه ﷺ مستجاب، وببركة هذه الدعوات عصمه الله تعالى من الزنا وغيره، وغفر له ما تقدم من ذنبه فهنيئا له ثم هنيئا»[(١)].

* عن أنس قال: لأحدثنكم حديثا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ، سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تقوم الساعة -وإما قال: من أشراط الساعة- أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد**»[(٢)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قوله: «**يظهر الزنا**» أي: يشيع ويشتهر بحيث لا يتكاتم به لكثرة من يتعاطاه»[(٣)].

قال ابن بطال: «أجمعت الأمة أن الزنا من الكبائر، وأخبر ﷺ في حديث أنس أن ظهوره من أشراط الساعة»[(٤)].

* * *

---

(١) بلوغ الأماني (١٦/ ٧٠-٧١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١٢/ ١٣٦/ ٦٨٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٦/ ٢٦٧١[٩]) والترمذي (٤/ ٤٢٦/ ٢٢٠٥) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٥٥/ ٥٩٠٦) وابن ماجه (٢/ ١٣٤٣/ ٤٠٤٥).

(٣) فتح الباري (١٢/ ١٣٧).

(٤) شرح البخاري (٨/ ٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سلطانًا: يجوز أن يكون إمامًا يتسلط به على القصاص من قاتل موليه، وأن يكون المعنى سلاطة عليه وقوة يتمكن من القود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن ﴿مَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ونهاه عن الإسراف في القتل، ووعده بأنه منصور. والنهي عن الإسراف في القتل هنا شامل ثلاث صور:

الأولى: أن يقتل اثنين أو أكثر بواحد، كما كانت العرب تفعله في الجاهلية..

ومعلوم أن قتل جماعة بواحد لم يشتركوا في قتله: إسراف في القتل داخل في النهي المذكور في الآية الكريمة.

الثانية: أن يقتل بالقتيل واحدًا فقط ولكنه غير القاتل؛ لأن قتل البريء بذنب غيره إسراف في القتل، منهي عنه في الآية أيضًا.

الثالثة: أن يقتل نفس القاتل ويمثل به. فإن زيادة المثلة إسراف في القتل أيضًا.. وهذا السلطان الذي جعله اللَّه لولي المقتول لم يبينه هنا بيانًا مفصلًا، ولكنه أشار في موضعين إلى أن هذا السلطان: هو ما جعله اللَّه من السلطة لولي المقتول على القاتل، من تمكينه من قتله إن أحب. ولا ينافي ذلك أنه إن شاء عفا على الدية أو مجانًا.

الأول: قوله هنا ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾، بعد ذكر السلطان المذكور؛ لأن النهي عن الإسراف في القتل مقترنًا بذكر السلطان المذكور يدل على أن السلطان المذكور هو ذلك القتل المنهي عن الإسراف فيه. الموضع الثاني: قوله تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[١]، إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[٢]، فهو يدل على أن السلطان المذكور هو ما تضمنته آية القصاص هذه، وخير ما يبين به القرآن القرآن»[٣].

قال السعدي: «وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير وذكر وأنثى وحر وعبد ومسلم وكافر له عهد.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضًا تسلطا قدريا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص كالعمد والعدوان والمكافأة.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ الولي ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله»[٤].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَودًا، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجانًا، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان مظلومًا رضي الله عنه، وكان معاوية يطالب عليًّا رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموي، وكان علي رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى

---

(١) البقرة: الآية (١٧٨). (٢) البقرة: الآية (١٧٩).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٧-٨٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٦).

أن يبايع عليًا هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من قتل النفس بغير حق

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه، التارك للجماعة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «فيه تفسير أن هذه الثلاث خصال هي حق الإسلام التي يستباح بها دم من شهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه والقتل بكل واحدة من هذه الخصال الثلاث متفق عليه بين المسلمين»[٣].

ثم قال: «وحديثُ ابنِ مسعودٍ لفظه لا اختلاف فيه، وهو ثابت متفق على صحته، ولكن يُقال على هذا: إنَّه قد ورد قتلُ المسلم بغير إحدى هذه الخصال الثلاث»[٤].

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأحاديث وقال: «واعلم أنَّ من هذه الأحاديث المذكورة ما لا يصحُّ ولا يُعرف به قائلٌ معتبر. .

وباقي النصوص، كلُّها يمكن ردُّها إلى حديث ابن مسعود، وذلك أنَّ حديثَ ابنِ مسعودٍ تضمَّن أنَّه لا يُستباح دمُ المسلم إلاَّ بإحدى ثلاث خصالٍ: إمَّا أنْ يترك دينه ويفارق جماعة المسلمين، وإمَّا أنْ يزني وهو محصن، وإمَّا أنْ يقتل نفسًا بغير حقٍّ. فيؤخذ منه أنَّ قتل المسلم لا يُستباح إلاَّ بأحد ثلاثة أنواع: تركِ الدين، وإراقةِ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦)، وأبو داود (٤/ ٥٢٢/ ٤٣٥٢)، والترمذي (٤/ ١٢-١٣/ ١٤٠٢)، والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣١٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٢٠).

الدم المحرَّم، وانتهاك الفرج المحرَّم، فهذه الأنواع الثلاثة هي التي تُبيح دم المسلم دون غيرها.

فأما انتهاكُ الفرج المحرّم، فقد ذكر في الحديث أنَّه الزنا بعد الإحصان، وهذا والله أعلم على وجه المثال، فإنَّ المحصن قد تمَّت عليه النعمة بنيل هذه الشهوة بالنِّكاح، فإذا أتاها بعد ذلك مِنْ فرجٍ محرَّم عليه، أُبيح دمه، وقد ينتفي شرط الإحصان، فيخلفه شرط آخر، وهو كون الفرج لا يُستباحُ بحال، إمَّا مطلقًا كاللواط، أو في حقِّ الواطئ، كمن وطيء ذاتَ محرم بعقد أو غيره، فهذا الوصف هل يكون قائمًا مقامَ الإحصان وخلفًا عنه؟ هذا هو محلُّ النِّزاع بين العلماء، والأحاديثُ دالَّةٌ على أنَّه يكون خلفًا عنه، ويُكتفى به في إباحة الدم.

وأما سفك الدَّم الحرام، فهل يقومُ مقامه إثارة الفتن المؤدية إلى سفك الدماء، كتفريق جماعة المسلمين، وشقِّ العصا، والمبايعةِ لإمامٍ ثانٍ، ودلِّ الكُفَّارِ على عورات المسلمين؟ هذا هو محلُّ النزاع. وقد روي عن عمر ما يَدُلُّ على إباحة القتل بمثل هذا.

وكذلك شهرُ السلاح لطلب القتل: هل يقومُ مقامَ القتل في إباحة الدم أم لا؟ فابنُ الزبير وعائشة رأياه قائمًا مقام القتل الحقيقي في ذلك.

وكذلك قطعُ الطَّريق بمجرَّده: هل يبيحُ القتلَ أم لا؟ لأنَّه مظِنَّةٌ لسفك الدِّماء المحرَّمة، وقول الله ﷻ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]، يدلُّ على أنَّه إنَّما يُباحُ قتل النفس بشيئين: أحدهما: بالنفس، والثاني: بالفساد في الأرض، ويدخل في الفساد في الأرض: الحراب والرِّدَّة، والزنى، فإنَّ ذلك كلَّه فساد في الأرض، وكذلك تكرُّر شرب الخمر والإصرار عليه هو مظنةُ سفكِ الدِّماء المحرمة. وقد اجتمع الصحابة في عهد عمر على حدِّه ثمانينَ، وجعلوا السكر مَظِنَّة الافتراءِ والقذفِ الموجب لجلد الثمانين..

وأما تركُ الدين، ومفارقةُ الجماعة، فمعناه: الارتدادُ عن دين الإسلام ولو أتى بالشهادتين، فلو سبَّ الله ورسوله ﷺ، وهو مقرٌّ بالشهادتين، أُبيح دمُه؛ لأنَّه قد ترك

(١) المائدة: الآية (٣٢).

بذلك دينه.

وكذلك لو استهان بالمُصحف، وألقاه في القاذورات، أو جحد ما يُعلم من الدِّين بالضَّرورة كالصلاة، وما أشبه ذلك ممَّا يُخرج منَ الدِّين.

وهل يقومُ مقامَ ذلك تركُ شيء مِنْ أركان الإسلام الخمس؟ هذا ينبني على أنَّه هل يخرج من الدِّين بالكُلِّيَّة بذلك أم لا؟ فمن رآه خروجًا عنِ الدِّين، كان عنده كتركِ الشَّهادتين وإنكارهما، ومن لم يره خروجًا عن الدِّين، فاختلفوا هل يلحقُ بتارك الدِّين في القتل، لكونه ترك أحدَ مباني الإسلام أم لا؟ لكونه لم يخرج عن الدِّين.

ومِنْ هذا الباب ما قاله كثيرٌ من العلماء في قتل الدَّاعية إلى البدع، فإنَّهم نظروا إلى أنَّ ذلك شبيهٌ بالخروج عَنِ الدِّين، وهو ذريعةٌ ووسيلة إليه، فإن استخفى بذلك ولم يَدْعُ غيرَه، كان حُكمُه حكمَ المنافقين إذا استخفَوا، وإذا دعا إلى ذلك، تَغَلَّظ جرمُه بإفساد دين الأمة..

فرجعت نصوصُ القتل كلُّها إلى ما في حديث ابن مسعود بهذا التقدير، ولله الحمد»[1].

وقال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**والنفس بالنفس**» فالمراد به القصاص بشرطه، وقد يستدل به أصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه في قولهم يقتل المسلم بالذمي، ويقتل الحر بالعبد. وجمهور العلماء على خلافه، منهم مالك والشافعي والليث وأحمد. وأما قوله ﷺ: «**والتارك لدينه المفارق للجماعة**» فهو عام في كل مرتد عن الإسلام بأي ردة كانت، فيجب قتله إن لم يرجع إلى الإسلام. قال العلماء: ويتناول أيضًا كل خارج عن الجماعة ببدعة أو بغي أو غيرهما، وكذا الخوارج والله أعلم.

واعلم أن هذا عام يخص منه الصائل ونحوه، فيباح قتله في الدفع، وقد يجاب عن هذا بأنه داخل في المفارق للجماعة، أو يكون المراد لا يحل تعمد قتله قصدا إلا في هذه الثلاثة، والله أعلم»[2].

* عن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل**

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٢٥-٣٢٩).

(٢) شرح مسلم (١١/ ١٣٧).

رجل مسلم»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «الكلام مسوق لتعظيم القتل وتهويل أمره، وكيفية إفادة اللفظ ذلك هو أن الدنيا عظيمة في نفوس الخلق، فزوالها يكون عندهم عظيمًا على قدر عظمتها، فإذا قيل: قتل المؤمن أعظم منه، أو الزوال أهون من قتل المؤمن، يفيد الكلام من تعظيم القتل وتهويله وتقبيحه وتشنيعه ما لا يحيطه الوصف، ولا يتوقف ذلك على كون الزوال إثما أو ذنبا، حتى يقال إنه ليس بذنب، فكل ذنب من جهة كونه ذنبا أعظم منه، فأي تعظيم حصل للقتل يجعله أعظم منه»(٢).

* عن سمرة بن جندب: كان نبي اللَّه ﷺ يَحُثُّنَا على الصدقة وينهانا عن المثلة(٣).

★ **غريب الحديث:**

يحثنا: يحضنا ويرغبنا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «المثلة تعذيب المقتول بقطع أعضائه وتشويه خلقه قبل أن يقتل أو بعده، وذلك مثل أن يجدع أنفه أو أذنه أو يفقأ عينه أو ما أشبه ذلك من أعضائه. قلت: وهذا إذا لم يكن الكافر فعل مثل ذلك بالمقتول المسلم، فإن مثل بالمقتول جاز أن يمثل به، ولذلك قطع رسول اللَّه ﷺ أيدي العرنيين وأرجلهم وسمر أعينهم، وكانوا فعلوا ذلك برعاء رسول اللَّه ﷺ(٤) وكذلك هذا في القصاص بين المسلمين إذا كان القاتل قطع أعضاء المقتول وعذبه قبل القتل، فإنه يعاقب بمثله

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ١٠/ ١٣٩٥)، والنسائي (٧/ ٩٤-٩٥/ ٣٩٩٧-٣٩٩٨) والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله في غاية المرام (ص: ٢٥٣).

(٢) حاشية السندي على النسائي (٧/ ٩٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٨)، وأبو داود (٣/ ١٢٠-١٢١/ ٢٦٦٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧) والبخاري (١/ ٤٤٢-٤٤٣/ ٢٣٣) ومسلم (٣/ ١٢٩٦/ ١٦٧١) وأبو داود (٤/ ٥٣١-٥٣٢/ ٤٣٦٤) والترمذي (١/ ١٠٦-١٠٧/ ٧٢) والنسائي (١/ ١٧٤-١٧٦/ ٣٠٤) وابن ماجه (٢/ ٨٦١/ ٢٥٧٨) من طرق عن أنس رضي الله عنه.

وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته**»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

لِيُحِد: ليجعله حادًا سريع القطع.

شَفْرَته: بفتح الشين: السكين العظيم.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «وليرح ذبيحته بإحداد السكين، وتعجيل إمرارها وغير ذلك، ويستحب أن لا يحد السكين بحضرة الذبيحة، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى، ولا يجرها إلى مذبحها، وقوله ﷺ: «**فأحسنوا القتلة**» عام في كل قتيل من الذبائح، والقتل قصاصا، وفي حد، ونحو ذلك. وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام. والله أعلم»[(٤)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإحسانُ في قتل ما يجوزُ قتله من الناس والدواب: إزهاقُ نفسه على أسرعِ الوجوه وأسهلِها وأَوحاها من غير زيادةٍ في التعذيب، فإنَّه إيلامٌ لا حاجة إليه. وهذا النوعُ هو الذي ذكره النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث، ولعله ذكره على سبيلِ المثال، أو لحاجته إلى بيانه في تلك الحال فقال: «**إذا قتلتُم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذِّبحة**»، والقِتلة والذِّبحة بالكسر؛ أي: الهيئة، والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل. وهذا يدلُّ على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يُباحُ إزهاقُها على أسهلِ الوجوه. وقد حكى ابنُ حَزمٍ الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة، وأسهلُ وجوه قتل الآدمي ضربه

---

(١) البقرة: الآية (١٩٤). (٢) معالم السنن (٢/ ٢٤٢/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٣)، ومسلم (٣/ ١٥٤٨/ ١٩٥٥)، وأبو داود (٣/ ٢٤٤/ ٢٨١٥)، والترمذي (٤/ ١٦/ ١٤٠٩)، والنسائي (٧/ ٢٦٠/ ٤٤١٧)، وابن ماجه (٢/ ١٠٥٨/ ٣١٧٠).

(٤) شرح مسلم (١٣/ ٩٠).

بالسيف على العنق، قال اللَّه تعالى في حقِّ الكفار: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾[2]. وقد قيل: إنَّه عيَّن الموضع الذي يكونُ الضربُ فيه أسهلَ على المقتول وهو فوقَ العظام دونَ الدماغ، وَوَصّى دريدُ بنُ الصِّمة قاتله أنْ يَقْتُلَهُ كذلك.

وكان النَّبيُّ ﷺ إذا بعث سريةً تغزو في سبيل اللَّه قال لهم: «لا تُمَثِّلُوا ولا تقتلوا وليدًا»[3]»[4].

وقال: «واعلم أنَّ القتلَ المباحَ يقع على وجهين: أحدُهما أنْ يكون قصاصًا، فلا يجوزُ التمثيلُ فيه بالمقتص منه، بل يُقتَلُ كما قَتَلَ، فإنْ كان قد مَثَّلَ بالمقتولِ، فهل يُمثَّلُ به كما فعل أمْ لا يُقتل إلا بالسيف؟ فيهِ قولان مشهوران للعلماء:

أحدُهما: أنَّه يُفعَلُ به كما فَعَلَ، وهو قولُ مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وفي الصحيحين[5] عن أنسٍ قالَ: خَرَجَتْ جاريةٌ عليها أوضاحٌ بالمدينة، فرماها يهودي بحجر، فجيء بها إلى رسول اللَّه ﷺ وبها رَمَقٌ، فقالَ لها رسول اللَّه ﷺ: «فلانٌ قتلك؟» فرفعت رأسها، فقال لها في الثالثة: «فلان قتلك؟» فخفضت رأسها، فدعا به رسولُ اللَّه ﷺ، فرضخ رأسه بَيْنَ الحَجَرَين. وفي روايةٍ لهما: فَأُخِذَ فاعترفَ، وفي روايةٍ لمسلم[6]: أنَّ رجلًا من اليهود قتلَ جاريةً من الأنصار على حليٍّ لها، ثم ألقاها في القَلِيب، ورضَخَ رأسَها بالحجارة، فأُخِذَ، فأُتي به النَّبيَّ ﷺ، فأمر به أنْ يُرجَمَ حتَّى يموت، فرُجِمَ حتى ماتَ.

والقول الثاني: لا قَوَدَ إلاَّ بالسيف، وهو قولُ الثوري، وأبي حنيفة، ورواية عن أحمد.

وعن أحمد رواية ثالثة: يُفعل به كما فعل إلا أنْ يكونَ حرَّقه بالنار أو مَثَّلَ به، فيُقْتَلُ بالسيف للنهي عن المُثلة وعن التحريق بالنار نقلها عنه الأثرمُ..

ولو مَثَّلَ به، ثم قتله مثلَ أنْ قطَع أطرافَه، ثم قتله، فهل يُكتفى بقتله أم يُصنع به

---

(١) محمد: الآية (٤). (٢) الأنفال: الآية (١٢).

(٣) قطعة من حديث طويل رواه مسلم (٣/ ١٣٥٦-١٣٥٨/ ١٧٣١) من حديث بريدة ﷺ.

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٢/ ٢٤٦/ ٦٨٧٧) ومسلم (٣/ ١٢٩٩/ ١٦٧٢).

(٦) مسلم (٣/ ١٢٩٩/ ١٦٧٢[١٦]).

كما صنع، فَتُقطع أطرافُه ثم يُقتل؟ على قولين:

أحدهما: يُفعل به كما فعل سواء، وهو قولُ أبي حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين وإسحاق وغيرهم.

والثاني: يُكتفى بقتله، وهو قولُ الثوري وأحمد في رواية وأبي يوسف ومحمد، وقال مالك: إنْ فعل به ذلك على سبيل التمثيلِ والتعذيبِ، فُعِلَ به كما فَعَلَ، وإنْ لم يكن على هذا الوجه اكتفي بقتله.

الوجه الثاني: أنْ يكون القتلُ للكفر، إما لكفر أصلي، أو لردَّة عن الإسلام، فأكثرُ العلماء على كراهة المُثلة فيه أيضًا، وأنَّه يُقتل فيه بالسيف، وقد رُوي عن طائفةٍ من السَّلف جوازُ التمثيل فيه بالتحريق بالنار وغير ذلك، كما فعله خالدُ بن الوليد وغيره.

ورُوي عن أبي بكر: أنَّه حرَّق الفجاءة بالنَّار.

ورُوي أنَّ أم قِرْفة الفزارية ارتدت في عهد أبي بكر الصديق، فأمر بها، فشدَّت ذوائبُها في أذناب قَلُوصَيْنِ أو فرسين، ثم صاح بهما فتقطعت المرأة، وأسانيد هذه القصة منقطعة. وقد ذكر ابنُ سعد في طبقاته[1] بغير إسناد: أنَّ زيدَ بن حارثة قتلها هذه القتلة على عهد رسولِ اللَّه ﷺ، وأخبر النَّبيَّ ﷺ بذلك.

وصحَّ عن عليٍّ أنَّه حرَّق المرتدين، وأنكر ذلك ابنُ عباس عليه[2]، وقيل: إنَّه لم يُحرّقهم، وإنَّما دَخَّنَ عليهم حتى ماتوا، وقيل: إنَّه قتلهم، ثم حَرَّقَهُم، ولا يصحُّ ذلك. وروي عنه أنَّه جيء بمرتدٍّ، فأمر به فوطئ بالأرجل حتَّى مات. واختار ابنُ عقيلٍ من أصحابنا جوازَ القتل بالتمثيل للكفر لاسيما إذا تغلَّظ، وحمل النهي عن المُثلةِ على القتل بالقصاص، واستدلَّ من أجاز ذلك بحديثِ العُرنيين، وقد خرَّجاه في الصحيحين من حديث أنس: أنَّ أناسًا من عُرينة قَدِمُوا على رسولِ اللَّه ﷺ المدينة فاجْتَوَوْهَا، فقال لهم رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنْ شئتم أنْ تَخْرُجُوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها، فافعلوا**» ففعلوا فصحُّوا، ثم مالوا على

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٨٤/ ٣٠١٧).

الرعاء، فقتلوهم، وارتدُّوا عن الإسلام، وساقوا ذَودَ رسولِ اللَّه ﷺ، فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فبعث في أثرهم، فأُتي بهم، فقطع أيديهم وأرجُلَهم، وسَمَلَ أعينَهم، وتركهم في الحرة حتى ماتوا، وفي روايةٍ: ثم نُبِذُوا في الشمس حتى ماتوا، وفي روايةٍ: وسمرت أعينُهم، وألقوا في الحرَّةِ يَستسقونَ فلا يُسقون، وفي رواية للترمذي: قطع أيديَهم وأرجلهم من خلافٍ، وفي رواية للنسائي: وصَلَبَهُم.

وقد اختلف العلماء في وجه عقوبة هؤلاء، فمنهم من قال: من فعل مِثلَ فعلهم فارتدَّ، وحارب، وأخذ المالَ، صنع به كما صنع بهؤلاء، وروي هذا عن طائفة، منهم: أبو قِلابة، وهو روايةٌ عن أحمد.

ومنهم مَنْ قال: بل هذا يدلُّ على جواز التمثيل بمن تغلَّظَتْ جرائمُهُ في الجملة، وإنَّما نهي عن التمثيل في القصاص، وهو قول ابنِ عقيل من أصحابنا.

ومنهم من قال: بل نسخ ما فعل بالعرنيين بالنهي عن المُثلةِ.

ومنهم من قال: كان قبلَ نزولِ الحدود وآيةِ المحاربة، ثم نُسخ بذلك، وهذا قولُ جماعة منهم: الأوزاعي وأبو عُبيد.

ومنهم من قال: بل ما فعله النَّبيُّ ﷺ بهم إنَّما كان بآية المحاربة، ولم ينسخ شيء من ذلك، وقالوا: إنَّما قتلهم النَّبيُّ ﷺ، وقَطَعَ أيديهم؛ لأنَّهم أخذوا المالَ، ومن أخذ المالَ وقَتَلَ، قُطِعَ وقُتِلَ، وصُلِبَ حتمًا، فيُقتَلُ لقتله ويُقطع لأخذه المال يَدُه ورجلُه من خِلاف، ويُصلَبُ لجمعه بين الجنايتين وهما: القتلُ وأخذُ المال، وهذا قول الحسن، ورواية عن أحمد.

وإنَّما سَمَلَ أعينهم؛ لأنَّهم سملوا أعينَ الرعاة كذا خرَّجه مسلم من حديثِ أنس.

وذكر ابنُ شهابٍ أنَّهم قتلوا الراعي، ومَثَّلوا به، وذكر ابن سعد أنَّهم قطعوا يدَه ورجله، وغرسوا الشوكَ في لسانه وعينيه حتّى مات، وحينئذ فقد يكونُ قطعُهم، وسملُ أعينهم، وتعطيشُهم قصاصًا، وهذا يتخرَّجُ على قول مَنْ يقولُ: إنَّ المحاربَ إذا جنى جنايةً توجبُ القصاصَ استُوفِيت منه قبل قتله، وهو مذهب أحمد. لكن هل يستوفى منه تحتمًا كقتله أم على وجه القصاص، فيسقط بعفو الولي؟ على روايتين عنه، ولكن رواية الترمذي أنَّ قطعَهُم من خلاف يدلُّ على أنَّ قطعهم للمحاربة إلا أنْ

يكونوا قد قطعوا يدَ الراعي ورجلَه من خلاف، واللَّه أعلم.

وقد رُوي عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه كان أَذِنَ في التحريق بالنار، ثم نهى عنه كما في صحيح البخاري[(١)] عن أبي هريرة قال: بعثنا رسولُ اللَّه ﷺ في بعث فقال: «**إنْ وَجَدتُم فلانًا وفلانًا -لرجلين من قريشٍ- فاحرقوهما بالنار**»، ثمَّ قال رسولُ اللَّه ﷺ حين أردنا الخروجَ: «**إني كنتُ أمرتُكم أنْ تحرِقوا فُلانًا وفُلانًا بالنار، وإنَّ النارَ لا يُعذِّبُ بها إلا اللَّه، فإنْ وجدتموهما فاقتلوهما**».

وفيه أيضًا[(٢)] عن ابن عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**لا تُعذِّبُوا بعذاب اللَّه ﷻ**»[(٣)].

* * *

(١) البخاري (٦/ ١٨٤/ ٣٠١٦).

(٢) البخاري (٦/ ١٨٤/ ٣٠١٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٨٤-٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أَشُدَّهُ: جمع شدة وهي القوة والجلادة في البدن والعقل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «هذا من أهم الوصايا التي أوصى اللَّه بها في هذه الآيات؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى لضعفهم عن التفطن لمن يأكل أموالهم، وقلة نصيرهم لإيصال حقوقهم، فحذر اللَّه المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يبقى في نفوسهم من أثر من تلك الجاهلية»[1].

قال السعدي: «وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم الذي فقد والده وهو صغير غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أنْ أمر أولياءه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: بلوغه وعقله ورشده، فإذا بلغ أشده زالت عنه الولاية وصار ولي نفسه ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[2]، ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم اللَّه عليه والذي عاهدتم الخلق عليه. ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسئولين عن الوفاء به، فإن وفيتم فلكم الثواب الجزيل، وإن لم تفعلوا فعليكم الإثم العظيم»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقضى أيضًا أن لا تقربوا مال اليتيم

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٩٦).

(٢) النساء: الآية (٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٧).

بأكل، إسرافا وبدارا أن يَكْبَروا، ولكن اقرَبوه بالفعْلة التي هي أحسن، والخَلَّة التي هي أجمل، وذلك أن تتصرّفوا فيه له بالتثمير والإصلاح والحيطة..

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ يقول: حتى يبلغ وقت اشتداده في العقل، وتدبير ماله، وصلاح حاله في دينه ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضًا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يقول: إن اللَّه -جلّ ثناؤه- سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم، وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك. وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا، يقال في الكلام: ليسئلنّ فلان عهد فلان»[(١)].

قال الرازي: «ثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس، فلما ذكر اللَّه تعالى ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال؛ لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم؛ لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله، فلهذا السبب خصهم اللَّه تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[(٢)]، وفي تفسير قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وجهان: الأول: إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره. الثاني: المراد هو أن تأكل معه إذا احتجت إليه، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: إذا احتاج أكل بالمعروف، فإذا أيسر قضاه، فإن لم يوسر فلا شيء عليه.

واعلم أن الولي إنما تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح، كما بينه اللَّه تعالى في آية أخرى وهي قوله: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[(٣)]، والمراد بالأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله، وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ، فأما

(١) جامع البيان (١٥/ ٨٤).
(٢) النساء: الآية (٦).
(٣) النساء: الآية (٦).

إذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه، واللَّه أعلم. وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية، واللَّه أعلم»[١].

وقال: «واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد، فقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ نظير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٢]، فدخل في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح. وحاصل القول فيه: أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به، فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به، وبصحة كل شركة وقع التراضي بها، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾[٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[٧]..

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا قضينا بالصحة في الكل، وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه، وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها وأطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة، ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل؛ لأنه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان اللَّه بيان، وتصير الشريعة مضبوطة معلومة»[٨].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من أكل مال اليتيم

* عن أبي ذر أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفا، وإني أحب

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٢) المائدة: الآية (١).
(٣) البقرة: الآية (١٧٧).
(٤) المؤمنون: الآية (٨).
(٥) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٦) النساء: الآية (٢٩).
(٧) البقرة: الآية (٢٨٢).
(٨) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٠٧-٢٠٨).

لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم»[١] .

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر الهيتمي: «جاء في التشديد في أموال اليتامى والظلم فيها أحاديث كثيرة موافقة لما في الآية، من ذلك الوعيد الشديد تحذيرا للناس عن هذه الفاحشة الوخيمة المهلكة»[٢] .

وقال: «بينما الإنسان آمن متصرف في مال الغير وعلى أولاد غيره، وإذا بالموت قد حل به، فيجزيه اللَّه تعالى في ماله وذريته وعياله وسائر تعلقاته بنظير ما فعله مع غيره؛ إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فليخش العاقل على أولاده وماله إن لم يكن له خشية على دينه، ويتصرف على الأيتام الذين في حجره بما يحب أن يتصرف ولي أولاده -لو كانوا أيتاما- عليهم في ماله»[٣] .

وقال: «عد هذا كبيرة هو ما اتفقوا عليه لما ذكر، وظاهر كلامهم أنه لا فرق بين أكل قليله وكثيره ولو حبة على ما مر في بخس الكيل والوزن، ويفرق بينه وبين ما سيأتي عنهم في الغصب والسرقة بنظير ما فرقت به بين ذينك والتطفيف، كما مر آنفا فيه من أنه متمكن من التصرف في مال اليتيم، فلو لم يحكم في القليل بكونه كبيرة لجره ذلك إلى الكثير، إذ لا مانع له لأنه مسئول على الكل، فتعين الحكم بالكبيرة على أخذ القليل والكثير بخلافه في ذينك، فإنه لا يلزم عليهما ذلك»[٤] .

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٧-١٤٥٨/ ١٨٢٦)، وأبو داود (٣/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٢٨٦٨)، والنسائي (٦/ ٥٦٦/ ٣٦٦٩).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٥٧٤).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٥٧٣-٥٧٤).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/ ٥٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

★ غريب الآية:

القِسْطَاس: قيل هو الميزان، واللفظة للمبالغة من القسط، فزيد فيه وجعل اسمًا للمزادة؛ لأنه به يحصل العدل.

تأويلًا: التأويل المرجع، من آل يؤول، والمعنى: أحسن عاقبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَ﴾ أن ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ للناس ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ لهم حقوقهم قِبَلَكم، ولا تبخَسُوهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يقول: وقَضَى أن زنوا أيضًا إذا وزنتم لهم بالميزان المستقيم، وهو العدل الذي لا اعوجاج فيه، ولا دَغَل، ولا خديعة..

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يقول: إيفاؤكم أيها الناس من تكيلون له الكيل، ووزنكم بالعدل لمن توفون له خَيْرٌ لَكُمْ من بخسكم إياهم ذلك، وظلمكموهم فيه. وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يقول: وأحسن مردودًا عليكم وأولى إليه فيه فعلكم ذلك؛ لأن اللَّه -تبارك وتعالى- يرضى بذلك عليكم، فيُحسن لكم عليه الجزاء»[1].

قال السعدي: «وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص.

ويؤخذ من عموم المعنى النهي عن كل غش في ثمن أو مثمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٨٥).

التبعات، وبه تنزل البركة»[1].

قال الرازي: «من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[2]..

ومن الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ فالآية المتقدمة في إتمام الكيل، وهذه الآية في إتمام الوزن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4].

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل، والوزن قليل. والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلًا لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان، سعيًا في إبقاء الأموال على الملاك، ومنعًا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير..

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الإيفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث إن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ والتأويل ما يؤول إليه الأمر كما قال في موضع آخر: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[5]، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[6]، ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[7]. وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب؛ لأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه، وحصل له الاستغناء في الزمان القليل، وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة. وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم»[8].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٧-٢٧٨).
(٢) المطففين: الآيات (١-٣).
(٣) الرحمن: الآية (٩).
(٤) هود: الآية (٨٥).
(٥) مريم: الآية (٧٦).
(٦) الكهف: الآية (٤٤).
(٧) الكهف: الآية (٤٦).
(٨) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢٠٨-٢٠٩).

قال ابن عاشور: «ومعنى كون ذلك أحسنَ تأويلًا: أن النظر إذا جال في منافع التطفيف في الكيل والوزن، وفي مضار الإيفاء فيهما، ثم عاد فجال في مضار التطفيف ومنافع الإيفاء، استقر وآل إلى أن الإيفاء بهما خير من التطفيف؛ لأن التطفيف يعود على المطفف باقتناء جزء قليل من المال، ويكسبه الكراهية والذم عند الناس وغضب اللَّه، والسحتَ في ماله مع احتقار نفسه في نفسه، والإيفاء بعكس ذلك يكسبه ميل الناس إليه، ورضَا اللَّه عنه، ورضاه عن نفسه، والبركة في ماله، فهو أحسن تأويلًا»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٩٩-١٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا تقف: قيل: لا تتبع ما ليس لك به علم فتقول فيه بغير علم، من قفاه يقفوه: إذا تتبع أثره، وقيل: معناه: لا تحكم بالقيافة والظن.

الفؤاد: قيل: هو القلب الذي يراد به العقل لا العضو المعروف، وقال بعضهم: الفؤاد كالقلب، لكن يقال له: فؤاد، إذا اعتبر فيه معنى التفاؤد؛ أي: التوقد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «نهى -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم. ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم. ويدخل فيه كل قول بلا علم، وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم. وقد أشار -جل وعلا- إلى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[5] وقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[6]»[7].

---

(١) البقرة: الآية (١٦٩). (٢) الأعراف: الآية (٣٣).
(٣) الحجرات: الآية (١٢).
(٤) يونس: الآية (٥٩). (٥) يونس: الآية (٣٦).
(٦) النساء: الآية (١٥٧).
(٧) أضواء البيان (٣/ ١٤٥-١٤٦).

وقال السعدي: «أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تَثَبَّتْ في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها اللّه لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية اللّه وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه اللّه تعالى»[1].

قال ابن عاشور: «والمراد بـ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الخاطر النفساني الذي لا دليل عليه ولا غلبة ظن به.

ويندرج تحت هذا أنواع كثيرة؛ منها: خلةٌ من خلال الجاهلية، وهي الطعن في أنساب الناس، فكانوا يرمون النساء برجال ليسوا بأزواجهن، ويليطون بعض الأولاد بغير آبائهم بهتانًا، أو سوءَ ظن إذا رأوا بعدًا في الشبه بين الابن وأبيه، أو رأوا شَبَهه برجل آخر من الحي، أو رأوا لونًا مخالفًا للون الأب أو الأم، تخرصًا وجهلًا بأسباب التشكل، فإن النسل ينزع في الشبه وفي اللون إلى أصول من سلسلة الآباء أو الأمهات الأدنَيْن أو الأبعدِين، وجهلًا بالشبه الناشئ عن الوحَم. وقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت ولدًا أسودَ (يريد أن ينتفي منه) فقال له النبي ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم. قال: «**ما ألوانهن؟**» قال: وُرْق. قال: «**وهل فيها من جمل أسود؟**» قال: نعم. قال: «**فمن أين ذلك؟**» قال: لعله عِرقٌ نزَعَه. فقال النبي ﷺ: «**فلعل ابنك نزعه عِرق**»[2]، ونهاه عن الانتفاء منه. فهذا كان شائعًا في مجتمعات الجاهلية فنهى اللّه المسلمين عن ذلك.

ومنها: القذف بالزنى وغيره من المساوئ بدون مشاهدة، وربما رموا الجيرة من الرجال والنساء بذلك. وكذلك كان عملهم إذا غاب زوج المرأة لم يلبثوا أن يلصقوا بها تهمة ببعض جيرتها، وكذلك يصنعون إذا تزوج منهم شيخ مُسِنٌّ امرأة شابة أو نصفًا فولدت له ألصقوا الولد ببعض الجيرة...

ومنها: تجنب الكذب. قال قتادة: لا تقف: لا تقل: رأيتُ وأنتَ لم تر،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣)، والبخاري (٩/ ٥٥٢/ ٥٣٠٥)، ومسلم (٢/ ١١٣٧/ ١٥٠٠)، وأبو داود (٢/ ٦٩٤-٦٩٥/ ٢٢٦٠)، والترمذي (٤/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٢١٢٨)، والنسائي (٦/ ٤٨٩-٤٩٠/ ٣٤٧٨)، وابن ماجه (١/ ٦٤٥/ ٢٠٠٢).

ولا سمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمت وأنت لم تعلم.

ومنها: شهادة الزور، وشملها هذا النهي، وبذلك فسر محمد بن الحنفية وجماعة.

وما يشهد لإرادة جميع هذه المعاني تعليل النهي بجملة ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾. فموقع الجملة موقع تعليل؛ أي: أنك أيها الإنسان تُسأل عما تسنده إلى سمعك وبصرك وعقلك بأن مراجع القفو المنهي عنه إلى نسبة لسمع أو بصر أو عقل في المسموعات والمبصرات والمعتقدات.

وهذا أدب خُلقي عظيم، وهو أيضًا إصلاح عقلي جليل، يعلّم الأمة التفرقة بين مراتب الخواطر العقلية بحيث لا يختلط عندها المعلوم والمظنون والموهوم. ثم هو أيضًا إصلاح اجتماعي جليل يجنب الأمة من الوقوع والإيقاع في الأضرار والمهالك من جراء الاستناد إلى أدلة موهومة»[1].

قال الشنقيطي: «أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية الكريمة منع التقليد، قالوا: لأنه اتباع غير العلم.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: لا شك أن التقليد الأعمى الذي ذم اللَّه به الكفار في آيات من كتابه تدل هذه الآية وغيرها من الآيات على منعه، وكفر متبعه؛ كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[4]، وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾[5]، وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٠٠-١٠١).
(٢) البقرة: الآية (١٧٠).
(٣) المائدة: الآية (١٠٤).
(٤) لقمان: الآية (٢١).
(٥) الزخرف: الآيات (٢١-٢٤).

﴿أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾(١)، إلى غير ذلك من الآيات.

أما استدلال بعض الظاهرية كابن حزم ومن تبعه بهذه الآية التي نحن بصددها وأمثالها من الآيات على منع الاجتهاد في الشرع مطلقًا، وتضليل القائل به، ومنع التقليد من أصله، فهو من وضع القرآن في غير موضعه، وتفسيره بغير معناه، كما هو كثير في الظاهرية؛ لأن مشروعية سؤال الجاهل للعالم وعمله بفتياه أمر معلوم من الدين بالضرورة. ومعلوم أنه كان العامي يسأل بعض أصحاب النَّبي ﷺ فيفتيه فيعمل بفتياه، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين، كما أنه من المعلوم أن المسألة إن لم يوجد فيها نص من كتاب اللَّه أو سنة نبيه ﷺ. فاجتهاد العالم حينئذ بقدر طاقته في تفهم كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ ليعرف حكم المسكوت عنه من المنطوق به لا وجه لمنعه، وكان جاريًا بين أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ولم ينكره أحد من المسلمين»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خطر القول على اللَّه بغير علم

* عن عروة قال: حج علينا عبد اللَّه بن عمرو فسمعته يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: إن اللَّه لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون، فحدثت به عائشة زوج النبي ﷺ، ثم إن عبد اللَّه بن عمرو حج بعد فقالت: يا ابن أختي، انطلق إلى عبد اللَّه فاستثبت لي منه الذي حدثتني عنه، فجئته فسألته، فحدثني به كنحو ما حدثني، فأتيت عائشة فأخبرتها، فعجبت فقالت: واللَّه لقد حفظ عبد اللَّه بن عمرو(٣).

* عن سهل بن حنيف قال: يا أيها الناس، اتهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول اللَّه لرددته، وما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر يفظعنا إلا أسهلن بنا إلى أمر نعرفه غير هذا الأمر، قال: وقال أبو

---

(١) إبراهيم: الآية (١٠). (٢) أضواء البيان (٣/ ١٤٦-١٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٦٢) والبخاري (١٣/ ٣٤٩/ ٧٣٠٧) ومسلم (٤/ ٢٠٥٨/ ٢٦٧٣) والترمذي (٥/ ٣٠-٣١/ ٢٦٥٢) والنسائي (٣/ ٤٥٥-٤٥٦/ ٥٩٠٧) وابن ماجه (١/ ٢٠/ ٥٢).

وائل: شهدت صفين وبئست صفين[١].

★ **غريب الحديث:**

يفظعنا: بالظاء المعجمة المكسورة بعد الفاء الساكنة؛ أي: يوقعنا في أمر فظيع؛ وهو الشديد في القبح.

أَسْهَلْنَ: بسكون اللام؛ أي أنزلَتنا في السهل من الأرض؛ أي: أفضين بنا، وهو كناية عن التحول من الشدة إلى الفرج.

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن بطال: «قال المهلب وغيره: إذا كان الرأي والقياس على أصل من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه أو إجماع الأمة فهو محمود، وهو الاجتهاد والاستنباط الذي أباحه اللَّه للعلماء.

وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه، فهو ما لم يكن على هذه الأصول؛ لأن ذلك ظن ونزغ من الشيطان، والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾. قال ابن عباس: لا تقل ما ليس لك به علم. وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم.

وأصل القفو العضه والبهت، فنهى اللَّه عباده عن قول ما لا علم لهم به، فإنه سائل السمع والبصر والفؤاد عما قال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بالحق، ومثل هذا قوله ﷺ: «**إن اللَّه يقبض العلم بقبض العلماء فيبقى ناس جهال فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون**». **ألا ترى أنه وصفهم بالجهل، فلذلك جعلهم ضالين هو خلاف الذين قال فيهم**: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾[٢]، وأمر بالرجوع إلى قولهم.

قال الطبري: فإن قيل: فإن قول سهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب: اتهموا الرأي. يرد قول من استعمل الرأي في الدين، وأنه لا يجوز شيء من الرأي والقياس لأنهم أخطئوا يوم أبي جندل في مخالفتهم رسول اللَّه ﷺ في صلحه

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٥) والبخاري (١٣/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٧٣٠٨) ومسلم (٣/ ١٤١٢/ ١٧٨٥[٩٥]) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٣/ ١١٥٠٤).

(٢) النساء: الآية (٨٣).

المشركين، ورده لأبي جندل لأبيه وهو يستغيث، وكان قد عذب في اللَّه، وهم يظنون أنهم محسنون في مخالفة رسول اللَّه. قيل: وجه قولهما: اتهموا الرأي الذي هو خلاف لرأي رسول اللَّه وأمره على الدين، الذي هو نظير آرائنا التي كنا خالفنا بها رسول اللَّه يوم أبي جندل، فإن ذلك خطأ، فأما الاجتهاد والاستنباط من كتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع الأمة فذلك هو الحق الواجب والفرض اللازم لأهل العلم، وبنحو هذا جاءت الأخبار عن النبي ﷺ، وعن جماعة الصحابة والتابعين، روى ابن عمر أن النبي ﷺ لما انصرف من الأحزاب قال: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**، فأبطأ ناس فتخوفوا فوت الصلاة، فصلوا، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول اللَّه ﷺ، وإن فاتنا العصر، فما عنف رسول اللَّه ﷺ أحد الفريقين»[1].

وهذا الخبر نظير خبر سهل بن حنيف، ومن حرص يوم أبي جندل على القتال اجتهادا منهم، ورسول اللَّه يرى ترك قتالهم في أنه لم يؤثمهم كما لم يؤثم أحد الفريقين: لا الذين صلوا قبل وصولهم إلى بني قريظة؛ لأن معنى ذلك كان عندهم ما لم يخشوا فوت وقتها، وكذلك لم يؤثم أيضًا الذين لم يصلوا حتى فاتهم وقتها إلى أن صاروا إلى بني قريظة؛ لأن معنى أمره ﷺ بذلك كان عندهم لا يصلون إلا في بني قريظة، وإن فاتكم وقتها، فعذر كل واحد منهم لهذه العلة.

وروى سفيان، عن الشيباني عن الشعبي، عن شريح «أنه كتب إلى عمر بن الخطاب يسأله، فكتب إليه: أن اقض بما في كتاب اللَّه، فإن لم يكن في كتاب اللَّه ففي سنة رسول اللَّه، فإن لم يكن فبما قضى الصالحون، فإن لم يكن فإن شئت تقدم وإن شئت تأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك، والسلام».

وروى هشيم، حدثنا سيار، عن الشعبي قال: «لما بعث عمر شريحًا على قضاء الكوفة قال: انظر ما تبين لك في كتاب اللَّه ولا تسأل عنه أحدًا، وما لم يتبين لك في كتاب اللَّه فاتبع فيه سنة رسول اللَّه ﷺ، وما لم يتبين لك في السنة فاجتهد رأيك. فقد أنبأت هذه الأخبار عن عمر أن معنى قوله: اتهموا الرأي على الدين، أنه الرأي الذي وصفنا لأنه محال أن يقول: اتهموه واستعملوه؛ لأن النهي عن الشيء والأمر

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٥٥/ ٩٤٦) ومسلم (٣/ ١٣٩١/ ١٧٧٠).

به في حالة واحدة ينقض بعضه بعضا، ولا يجوز أن يظن ذلك بعمر ونظرائه، ويزيد ذلك بيانا روى مجاهد، عن الشعبي، عن عمرو بن حريث قال: قال عمر بن الخطاب: «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي، فضلوا وأضلوا». فقد بين هذا القول من عمر أنه أمر باتهام الرأي فيما خالف أحكام رسول اللَّه ﷺ وسنته، وذلك أنه قال: «إنهم أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها».

وأخبر أنه لما أعياهم حفظ سنن رسول اللَّه قالوا بآرائهم وخالفوها، جهلا منهم بأحكام رسول اللَّه وسننه وذلك هو الجرأة على اللَّه بما لم يأذن به في دينه، والتقدم بين يدي رسول اللَّه، فأما اجتهاد الرأي في استنباط الحق من كتاب اللَّه وسنة رسوله فذلك الذي أوجب اللَّه على العلماء فرضا، وعمل به المسلمون بمحضر من رسول اللَّه ﷺ، فلم يعنفهم ولا نهاهم عنه؛ إذ كان هو الحق عنده والدين، واقتفى أثرهم فيه الخلف من بعدهم، روي ذلك عن ابن مسعود، وابن عباس، وروى أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة، عن عبدالرحمن بن يزيد، قال ابن مسعود: «ومن عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب اللَّه، فإن جاءه أمر ليس في كتاب اللَّه فليقض بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاءه أمر ليس في سنة نبيه فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاءه ما ليس في ذلك، فليجتهد رأيه، ولا يقل: إني أرى وإني أخاف، فإن الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»»[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد حرم اللَّه سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم ربع بما هو

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٥١-٣٥٤).
(٢) الأعراف: الآية (٣٣).

أشد تحريمًا من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1] فتقدم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقولهم لما لم يحرمه هذا حرام، ولما لم يحله هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه»[2].

قلت: وهذه الآيات والأحاديث وأقوال أهل العلم من المفسرين في التحري في الفتيا، وتوجيه الناس في دين الله مما يجعل المسلم يقف كثيرًا متأملًا واقع الناس في الوقت الحاضر لانحرافهم عن هذا المنهج العظيم؛ منهاج الورع والخوف من الله تعالى أن يقع العالم فيما يزله ويحبط عمله، فتعاطى الفتوى والتوجيه أناس لا خلاق لهم ولا علاقة لهم بعلم ولا نصوص من كتاب الله وسنة رسوله، فتراهم يقودون أممًا إلى الهلاك والضلال البعيد؛ لبعدهم عن العلم الصحيح، وكلما بعدت الأزمان عن زمن النبي ﷺ وعن زمن السلف الصالح؛ كثر الجهل وقل العلم، ورفع أناس ألوية يقودون بها الفرادى والجماعات بخلاف الكتاب والسنة، فنشأت الفرق، وكان سببها هذا الانحراف الواضح، فنشأت الخوارج، وعاثوا في الأرض فسادًا، ونشأت الجهمية، فردوا النصوص الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة، وزعموا لها تأويلًا لا يعرفه السلف، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ونشأ الرفض، فطعنوا في خيرة خلق الله، وردوا النصوص المحكمة بجهلهم، ونشأ التصوف، فقدسوا الأشخاص، وادعوا لهم العصمة من الزلل والخطإ، وجعلوا شيوخهم بمنزلة الرسل، بل أكثر من ذلك! ونشأ التعصب المذهبي، فردوا النصوص المحكمة لآراء فقهائهم وشيوخهم، وزعموا لهم العصمة، واتسع هذا الباب اتساعًا، ونشأت الجماعات المعاصرة، ومعظم قاداتها من الجهال، وردوا النصوص المحكمة، وحاولوا التلفيق بين الحضارات المعاصرة وبين ما جاء به

---

(١) النحل: الآيتان (١١٦-١١٧).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٣٨).

الإسلام من الاستقامة على أمر اللَّه، ففسدوا وأفسدوا، وهكذا لو تتبعت هذا الباب لوجدت معظم ما ألف من قبل قادات ومنظري هذه الجماعات المعاصرة هو من هذا الباب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على آيات النبوة، وأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، وأنه أخبر بما سيكون، فكان كما أخبر، والواقع أكبر شاهد على ذلك، فقال ﷺ: «**إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»(١)، واللَّه المستعان.

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد اللَّه إخوانا**»(٢).

⋆ غريب الحديث:

لا تحسسوا ولا تجسسوا: لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها، وأصل الكلمة التي بالمهملة من الحاسة، وبالجيم من الجس، قيل: هما بمعنى واحد، وقيل: بالجيم البحث عن عوراتهم، وبالحاء استماع حديث القوم.

لا تحاسدوا: الحسد تمني الشخص زوال النعمة عن مستحق لها.

لا تباغضوا: أي لا تتعاطوا أسباب البغض.

لا تدابروا: لا تتهاجروا، مأخوذ من تولية الرجل الآخر دبره إذا أعرض عنه حين يراه.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الخطابي وغيره: ليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالبًا، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون به، وكذا ما يقع في القلب بغير دليل، وذلك أن أوائل الظنون إنما هي خواطر لا يمكن دفعها، وما

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٧)، والبخاري (١٠/ ٥٨٩/ ٦٠٦٤)، ومسلم (٤/ ١٩٨٥/ ٢٥٦٣)، وأبو داود (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٤٩١٧)، والترمذي (٤/ ٣١٣/ ١٩٨٨).

لا يقدر عليه لا يكلف به، ويؤيده حديث «تجاوز اللَّه للأمة عما حدثت به أنفسها»[1]. . وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها كمن يتهم رجلا بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها، ولذلك عطف عليه قوله: «ولا تجسسوا» وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع، فنهي عن ذلك، وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[2] فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان أبحث لأتحقق، قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ فإن قال: تحققت من غير تجسس قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾.

وقال عياض: استدل بالحديث قوم على منع العمل في الأحكام بالاجتهاد والرأي، وحمله المحققون على ظن مجرد عن الدليل ليس مبنيًّا على أصل ولا تحقيق نظر. وقال النووي: ليس المراد في الحديث بالظن ما يتعلق بالاجتهاد الذي يتعلق بالأحكام أصلًا، بل الاستدلال به لذلك ضعيف أو باطل. وتعقب بأن ضعفه ظاهر وأما بطلانه فلا، فإن اللفظ صالح لذلك، ولا سيما إن حمل على ما ذكره القاضي عياض وقد قربه في المفهم.

وقال: الظن الشرعي الذي هو تغليب أحد الجانبين أو هو بمعنى اليقين ليس مرادًا من الحديث ولا من الآية. فلا يلتفت لمن استدل بذلك على إنكار الظن الشرعي.

وقال ابن عبدالبر: احتج به بعض الشافعية على من قال بسد الذريعة في البيع فأبطل بيع العينة، ووجه الاستدلال النهي عن الظن بالمسلم شرًّا، فإذا باع شيئًا حمل على ظاهره الذي وقع العقد به ولم يبطل بمجرد توهم أنه سلك به مسلك الحيلة، ولا يخفى ما فيه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٣) والبخاري (٩/ ٤٨٥/ ٥٢٦٩) ومسلم (١/ ١١٦/ ٢٠١) وأبو داود (٢/ ٦٥٧-٦٥٨/ ٢٢٠٩) والترمذي (٣/ ٤٨٩/ ١١٨٣) والنسائي (٦/ ٤٦٨/ ٣٤٣٣) وابن ماجه (١/ ٦٥٨/ ٢٠٤٠) من طرق عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) الحجرات: الآية (١٢).

وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث، مع أن تعمد الكذب الذي لا يستند إلى ظن أصلًا أشد من الأمر الذي يستند إلى الظن، فللإشارة إلى أن الظن المنهي عنه هو الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه، فيعتمد عليه ويجعل أصلا ويجزم به، فيكون الجازم به كاذبًا؛ وإنما صار أشد من الكاذب؛ لأن الكذب في أصله مستقبح مستغنى عن ذمه، بخلاف هذا فإن صاحبه بزعمه مستند إلى شيء، فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة في ذمه والتنفير منه، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب المحض لخفائه غالبًا ووضوح الكذب المحض»[١].

قال ابن عبد البر: «روينا عن سفيان الثوري أنه قال: الظن ظنان ظن فيه إثم وظن ليس فيه إثم، فالظن الذي فيه الإثم ما يتكلم به، والظن الذي لا إثم فيه ما لم يتكلم.

وروى أشهب عن نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة أن عمر بن الخطاب قال: لا يحل لامرئ مسلم سمع من أخيه كلمة أن يظن بها سوءا وهو يجد لها في شيء من الخير مصدرا»[٢].

قال ابن بطال: «سوء الظن جائز عند أهل العلم لمن كان مظهرًا للقبيح، مُجانبًا لأهل الصلاح، وغير مشاهد للصلوات في الجماعة، وقد قال ابن عمر: كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء والصبح أسأنا الظن به»[٣].

* عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل. ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة. ومن صور عذب وكلف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ**»[٤].

★ غريب الحديث:

تَحَلَّم: أي قال: إنه رأى في المنام ما لم يره.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

(٢) الاستذكار (٢٦/ ١٥١).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ٢٦٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٦)، والبخاري (١٢/ ٥٢٨/ ٧٠٤٢)، وأبو داود (٥/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٥٠٢٤)، والترمذي (٤/ ٢٠٣/ ١٧٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٩/ ٣٩١٦).

الآنك: بالمد وضم النون بعدها كاف؛ الرصاص المذاب.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال محمد بن جرير: إن قال قائل: ما وجه خصوص النبي ﷺ الكاذب في رؤياه بما خصه به من تكليف العقد بين طرفي شعيرتين يوم القيامة، وهل الكاذب في رؤياه إلا كالكاذب في اليقظة، وقد يكون الكذب في اليقظة أعظم في الجرم إذا كان شهادة توجب على المشهود عليه بها حدا أو قتلا أو مالا يؤخذ منه، وليس ذلك في كذبه في منامه؛ لأن ضرر ذلك عليه في منامه وحده دون غيره. قيل له: اختلفت حالتهما في كذبهما، فكان الكاذب على عينيه في منامه أحق بأعظم النكالين وذلك لتظاهر الأخبار عن النبي ﷺ أن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، والنبوة لا تكون إلا وحيا من اللَّه، فكان معلومًا بذلك أن الكاذب في نومه كاذب على اللَّه أنه أراه ما لم ير، والكاذب على اللَّه أعظم فرية وأولى بعظيم العقوبة من الكاذب على نفسه، بما أتلف به حقا لغيره أو أوجبه عليه، وبذلك نطق محكم التنزيل فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾[(١)] فأبان ذلك صحة ما قلناه أن الكذب في الرؤيا ليس كالكذب في اليقظة؛ لأن أحدهما كذب على اللَّه والآخر كذب على المخلوقين»[(٢)].

قال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: إنما سماه حلما ولم يسمه رؤيا؛ لأنه ادعى أنه رأى ولم ير شيئًا، فكان كاذبا والكذب إنما هو من الشيطان، وقد قال: «**إن الحلم من الشيطان**»[(٣)] كما مضى في حديث أبي قتادة، وما كان من الشيطان فهو غير حق، فصدق بعض الحديث بعضا.

قال: ومعنى العقد بين الشعيرتين أن يفتل إحداهما بالأخرى، وهو مما لا يمكن عادة، قال: ومناسبة الوعيد المذكور للكاذب في منامه وللمصور أن الرؤيا خلق من خلق اللَّه وهي صورة معنوية، فأدخل بكذبه صورة لم تقع، كما أدخل

---

(١) هود: الآية (١٨). (٢) شرح ابن بطال (٩/ ٥٥٤-٥٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩٦) والبخاري (٦/ ٤١٦-٤١٧/ ٣٢٩٢) ومسلم (٤/ ١٧٧/ ٢٢٦١) وأبو داود (٥/ ٢٨٤/ ٥٠٢١) والترمذي (٤/ ٤٦٦/ ٢٢٧٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٣/ ١٠٧٣٢).

المصور في الوجود صورة ليست بحقيقية ؛ لأن الصورة الحقيقية هي التي فيها الروح ، فكلف صاحب الصورة اللطيفة أمرا لطيفا وهو الاتصال المعبر عنه بالعقد بين الشعيرتين ، وكلف صاحب الصورة الكثيفة أمرا شديدا وهو أن يتم ما خلقه بزعمه بنفخ الروح ، ووقع وعيد كل منهما بأنه يعذب حتى يفعل ما كلف به ، وهو ليس بفاعل ، فهو كناية عن تعذيب كل منهما على الدوام .

قال : والحكمة في هذا الوعيد الشديد أن الأول كذب على جنس النبوة ، وأن الثاني نازع الخالق في قدرته ، وقال في مستمع حديث من يكره استماعه : يدخل فيه من دخل منزله وأغلق بابه ، وتحدث مع غيره ، فإن قرينة حاله تدل على أنه لا يريد للأجنبي أن يستمع حديثه فمن يستمع إليه يدخل في هذا الوعيد ، وهو كمن ينظر إليه من خلل الباب فقد ورد الوعيد فيه»(١) .

* عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**من أفرى الفِرَى أن يري عينه ما لم تر**»(٢) .

★ غريب الحديث:

أفرى الفِرَى : أفرى أفعل تفضيل ؛ أي : أعظم الكذبات ، والفِرَى بكسر الفاء والقصر جمع فرية ، والفرية الكذبة العظيمة التي يتعجب منها .

* عن أبي قلابة قال : قال أبو مسعود لأبي عبد اللَّه ، أو قال أبو عبد اللَّه لأبي مسعود : ما سمعت رسول اللَّه ﷺ ، يقول في زعموا؟ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : «**بئس مطية الرجل زعموا**»(٣) .

★ غريب الحديث:

المطية : بفتح الميم وكسر الطاء المهملة وتشديد التحتية بمعنى : المركوب .

زعموا : الزعم بالضم والفتح قريب من الظن ؛ أي : أسوأ عادة للرجل أن يتخذ

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٥٣٠-٥٣١) .

(٢) أخرجه : أحمد (٢/ ٩٦) ، والبخاري (١٢/ ٥٢٩/ ٧٠٤٣) .

(٣) أخرجه : أحمد (٥/ ٤٠١) وأبو داود (٥/ ٢٥٤/ ٤٩٧٢) ، والحديث صححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٦٦) .

لفظ زعموا مركبًا إلى مقاصده.

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: «**بئس مطية الرجل زعموا**»: قال في العون: «وفي اللمعات يعني أن ما زعموا، بئس مطيته يجعل المتكلم مقدمة كلامه. والمقصود أن الإخبار بخبر مبناه على الشك والتخمين، دون الجزم واليقين قبيح، بل ينبغي أن يكون لخبره سند وثبوت، ويكون على ثقة من ذلك لا مجرد حكاية على ظن وحسبان»[١].

قال أبو جعفر الطحاوي: «فتأملنا ما روي عن رسول الله ﷺ في وصفه «زعموا» بما وصفها به، وذكره إياها أنها بئس مطية الرجل، فوجدنا «زعموا» لم تجئ في القرآن إلا في الإخبار عن المذمومين بأشياء مذمومة كانت منهم.

فمن ذلك: قول الله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٢].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ثم أتبع ذلك بإخباره بعجزهم أن دعوهم بذلك بقوله: ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾[٣].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾، ثم رد عليهم بقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾[٤] الآية. ومن ذلك: قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾[٥].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾[٦]. ومن ذلك قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[٧].

ومن ذلك قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾[٨].

وكل هذه الأشياء فإخبار عن الله تعالى بها عن قوم مذمومين في أحوال لهم

---

(١) عون المعبود (١٣/ ٣١٥).
(٢) التغابن: الآية (٧).
(٣) الإسراء: الآية (٥٦).
(٤) الأنعام: الآية (٩٤).
(٥) الأنعام: الآية (١٣٦).
(٦) الأنعام: الآية (١٣٨).
(٧) الأنعام: الآية (٢٢).
(٨) النساء: الآية (٦٠).

مذمومة، وبأقوال كانت منهم كانوا فيها كاذبين مفترين على اللَّه تعالى، فكان مكروها لأحد من الناس لزوم أخلاق المذمومين في أخلاقهم، الكافرين في أديانهم، الكاذبين في أقوالهم.

وكان الأولى بأهل الإيمان لزوم أخلاق المؤمنين الذين سبقوهم بالإيمان، وما كانوا عليه من المذاهب المحمودة، والأقوال الصادقة التي حمدهم اللَّه تعالى عليها رضوان اللَّه عليهم ورحمته، وباللَّه التوفيق»[١].

قال البغوي: «إنما ذم هذه اللفظة لأنها تستعمل غالبا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، إنما هو شيء يحكى عن الألسن، فشبه النبي ﷺ ما يقدمه الرجل أمام كلامه، ليتوصل به إلى حاجته من قولهم: «**زعموا**» بالمطية التي يتوصل بها الرجل إلى مقصده الذي يؤمه، فأمر النبي ﷺ بالتثبت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فلا يروي حديثا حتى يكون مرويا عن ثقة»[٢].

* * *

(١) مشكل الآثار (١/ ١٧٤-١٧٦).

(٢) شرح السنة (١٢/ ٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾

★ **غريب الآية:**

مَرَحا: المرح: شدة الفرح والوسع فيه، وقيل: التكبر في المشي، وقيل: تجاوز الإنسان قدره.

تَخْرِقَ الأرض: أي: لن تثقبها بشدة وطئك، وقيل: لن تقطعها عرضًا وطولًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه -جل وعلا- الناس في هذه الآية الكريمة عن التجبر والتبختر في المشية..

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله عن لقمان مقررًا له: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

وقال: «وأظهر القولين عندي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أن معناه لن تجعل فيها خرقًا بدوسك لها وشدة وطئك عليها، ويدل لهذا المعنى قوله بعده ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي أنت أيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التأثير فيهما. فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها. فاعرف قدرك ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحًا. القول الثاني: أن

---

(١) لقمان: الآيتان (١٨-١٩).

(٢) الفرقان: الآية (٦٣).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٥٦).

معنى ﴿لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن تقطعها بمشيك. قاله ابن جرير»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ناهيًا عباده، عن التَّجَبّر والتبختر في المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: متبخترًا متمايلا مشي الجَبَّارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطع الأرض بمشيتك قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العَجَّاج:

وقَاتِم الأعْمَاق خَاوي المُخترق

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت في الصحيح: «**بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما، إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»[٢].

وكذلك أخبر اللَّه تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن اللَّه تعالى خسف به وبداره الأرض»[٣].

وقال: «وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أما من قرأ «سيئة» أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[٤] إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند اللَّه، لا يحبه ولا يرضاه.

وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٥] إلى ههنا، فسيئه؛ أي: فقبيحه مكروه عند الله»[٦].

قال القاسمي: «﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالًا؛ أي: مشية المعجب المتكبر، إذ لا يفيدك قوة ولا علوا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تجعل فيها خرقًا بدوسك لها وشدة وطأتك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تحاذيها بتطاولك ومد قامتك كما يفعله المختال تكلفًا، وفي هذا تهكم بالمختال،

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٥٦-١٥٧).
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٣).
(٤) الإسراء: الآية (٣١).
(٥) الإسراء: الآية (٢٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٤).

وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وبعض أجزائها . قال الناصر : وفي هذا التهكم والتقريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها . ولقد حفظ اللّٰه عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسألتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفًا من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء كأنما ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل، واللّٰه ولي التوفيق»[2].

قال القرطبي: «استدل العلماء بهذه الآية على ذم الرقص وتعاطيه.

قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وذم المختال. والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقها في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشعر معه على الطنبور والمزمار والطبل لاجتماعهما.

فما أقبح من ذي لحية، وكيف إذا كان ذا شيبة، يرقص ويصفق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصوات لنسوان ومردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدارين، يشمس بالرقص شمس البهائم، ويصفق تصفيق النسوان»[3].

قلت: سبحان الله! هذه الأوصاف الدقيقة التي ذكرها أبو عبد اللّٰه القرطبي فيمن يتخذ الرقص دينًا في عهده أصبحت صفة ملازمة لكثير من أهل هذه الأزمان، فكيف إذا رأيتهم وهم يرقصون ويصفقون قربة للّٰه وذكرًا بزعمهم!! وهو في الواقع من تخبط الشيطان وتلاعبه بأحبابه وخلانه، فقد أحدث المعاصرون لهذا الرقص آلات كهربائية تساعدهم على ذلك، وسموا ذلك بالأناشيد الإسلامية بدل الاصطلاح القديم الذي كان عليه المتصوفة المسمى بالسماع، الذي عقد له الغزالي في الإحياء بابًا، ودافع عنه، وفضله على قراءة القرآن من سبعة وجوه!! وقد رددت

---

(١) يوسف: الآية (١٠٥).

(٢) محاسن التأويل (١٠/ ٢٢٨-٢٢٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧١).

عليه في كتابي المسمى بـ(الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين).

فلا شك أن ما ذكره القرطبي من أوصاف الراقصين والراقصات؛ هو وصف للفساق المنحرفين، الذين يتجرءون على كل محرم؛ فالخمور ملازمة لهم، وأكل المخدرات مذهبهم، وفعل الفاحشة بالذكر والأنثى منهاجهم، وأكل أموال الناس بالباطل طعمتهم، فهم ينطقون بالشرك، ويرددون أقوال الغزل وكل ما يدعو إلى الخنا والفجور.

وهذا المذهب العفن قد اتخذته الجماعات المعاصرة منهاجًا لهم، واعتبرته من أهم وسائل الدعوة! فتفننوا فيه، ودافعوا عنه كما دافع أسلافهم، فرحمة اللَّه على الإمام الشافعي الفقيه الذي قال: (أدركت الزنادقة ببغداد يصنعون شيئًا يسمى التغبير، يشغلون به الناس عن كتاب الله)، فأضاعوا القرآن، وأماتوا السنن، وأطاعوا الشيطان، وأحدثوا الفتن، وضيعوا الشباب والشابات، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في النهي عن العجب والكبر والتبختر في المشي

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ، أو قال أبو القاسم ﷺ: **«بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه، مرجل جمته، إذ خسف اللَّه به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»**[1].

★ غريب الحديث:

حلة: إزار ورداء ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

مرجل: من فعل رجل شعره ترجيلًا، وترجيل الشعر: تسريحه بالمشط.

جمته: هي مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين وإلى أكثر من ذلك، وأما الذي لا يتجاوز الأذنين فهو الوفرة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٣١٦/ ٥٧٨٩)، ومسلم (٣/ ١٦٥٣/ ٢٠٨٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٨٣/ ٩٦٧٩).

يتجلجل: التجلجل التحرك، وقيل الجلجلة الحركة مع الصوت. والتجلجل أن يسوخ في الأرض مع اضطراب شديد ويندفع من شق إلى شق، فالمعنى: يتجلجل في الأرض أن ينزل فيها مضطربًا متدافعًا.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وإعجاب الرجل بنفسه: هو ملاحظته لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان مِنَّةِ اللَّه تعالى، فإن رفعها على الغير واحتقره فهو الكبر المذموم»[1].

قال ابن تيمية: «وحرم اللَّه الفخر والخيلاء واللباس الذي فيه الفخر والخيلاء كإطالة الثياب.. وفي الصحيح عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**» وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[2] فأخبر أن لباس التقوى خير من ذلك. وقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾[3] وقال تعالى في حق قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾[4]»[5].

وقال: «ومن ترك لبس الرفيع من الثياب تواضعا لله، لا بخلا ولا التزاما للترك المطلق، فإن اللَّه يثيبه على ذلك، ويكسوه من حلل الكرامة»[6].

قال النووي: «قيل يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة، فأخبر النبي ﷺ بأنه سيقع هذا. وقيل: بل هو إخبار عمن قبل هذه الأمة، وهذا هو الصحيح، وهو معنى إدخال البخاري له في باب ذكر بنى إسرائيل، واللَّه أعلم»[7].

* * *

(١) المفهم (٥/ ٤٠٦).
(٢) الأعراف: الآية (٢٦).
(٣) الزخرف: الآية (١٨).
(٤) القصص: الآية (٧٩).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٢٧-١٢٨).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٢/ ١٣٨).
(٧) شرح مسلم (١٤/ ٥٣).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا﴾ أي: تلومك نفسك والخلق. ﴿مَّدۡحُورًا﴾. قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا.

والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه -صلوات اللَّه وسلامه عليه- معصوم»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي بيَّنا لك يا محمد من الأخلاق الجميلة التي أمرناك بجميلها، ونهيناك عن قبيحها ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ يقول: من الحكمة التي أوحيناها إليك في كتابنا هذا.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾ يقول: ولا تجعل مع اللَّه شريكًا في عبادتك، فتُلقى في جهنم ملومًا؛ تلومك نفسك وعارفوك من الناس ﴿مَّدۡحُورًا﴾ يقول: مُبْعَدا مقصيًا في النار، ولكن أخلص العبادة لله الواحد القهَّار، فتنجو من عذابه»[2].

قال الرازي: «فهذه خمسة وعشرون نوعًا من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه، جمعها اللَّه تعالى في هذه الآية، وجعل فاتحتها قوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾[3] وخاتمتها قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٤).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٩٠).

(٣) الإسراء: الآية (٢٢).

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾»[1].

وقال: «من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وختمها بعين هذا المعنى، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد، تنبيهًا على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة، ثم إنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذمومًا مخذولًا، وذكر في الآية الأخيرة أن الشرك يوجب أن يلقي صاحبه في جهنم ملومًا مدحورًا، فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا، وإلقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة»[2].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢١٦).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٢١٦-٢١٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾

★ **غريب الآية:**

أَفَأَصْفَاكُم: الإصفاء جعل الشيء صفوًا؛ أي: خالصًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «الهمزة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ للإنكار ومعنى الآية. أفَخَصَّكُم ربكم على وجه الخصوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذ لنفسه أدونهم وهي البنات وهذا خلاف المعقول والعادة. فإن السادة لا يؤثرون عبيدهم بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب، ويتخذون لأنفسهم أردأها وأدونها. فلو كان -جل وعلا- متخذًا ولدًا -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- لاتخذ أجود النصيبين ولم يتخذ أردأهما ولم يصطفكم دون نفسه بأفضلهما.

وهذا الإنكار متوجه على الكفار في قولهم: الملائكة بنات اللَّه -سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا- فقد جعلوا له الأولاد ومع ذلك جعلوا له أضعفها وأردأها وهو الإناث وهم لا يرضونها لأنفسهم.

وقد بين اللَّه هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾[1]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩﴾[2]، وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾[3] والآيات بمثل هذا كثيرة جدًّا»[4].

قال ابن كثير: «يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن

---

(١) النجم: الآيتان (٢١-٢٢).
(٢) الطور: الآية (٣٩).
(٣) الزمر: الآية (٤).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٥٧).

الله- أن الملائكة بناتُ اللَّه، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات اللَّه، ثم عبدوهم فأخطئوا في كل من المقامات الثلاث خطأً عظيمًا، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: خصصكم بالذكور ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أي: في زعمكم أن لله ولدًا، ثم جعْلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يَكُنّ لكم، وربما قتلتموهُن بالوأد، فتلك إذا قسْمة ضِيزَى. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾(1)»(2).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للذين قالوا من مشركي العرب: الملائكة بنات اللَّه ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أيها الناس ﴿رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ يقول: أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم، بل تئدونهن، وتقتلونهن، فجعلتم لله ما لا ترضونه لأنفسكم ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المشركين الذين قالوا من الفرية على اللَّه ما ذكرنا: إنكم أيها الناس لتقولون بقيلكم: الملائكة بنات اللَّه، قولا عظيما، وتفترون على اللَّه فرية منكم»(3).

قال ابن عاشور: «وجملة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ تقرير لمعنى الإنكار وبيان له؛ أي: تقولون: اتخذ اللَّه الملائكة بنات. وأكد فعل «تقولون» بمصدره تأكيدًا لمعنى الإنكار. وجَعْله مجرد قول لأنه لا يعدو أن يكون كلامًا صدر عن غير روية؛ لأنه لو تأمله قائله أدنى تأمل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلًا.

والعظيم: القوي. والمراد هنا أنه عظيم في الفساد والبطلان بقرينة سياق الإنكار.

---

(1) مريم: الآيات (٨٨-٩٥).

(2) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٤-٧٥).

(3) جامع البيان (١٥/ ٩٠).

ولا أبلغ في تقبيح قولهم من وصفه بالعظيم؛ لأنه قول مدخول من جوانبه؛ لاقتضائه إيثار الله بأدْوَن صنفي البنوة مع تخويلهم الصنف الأشرف. ثم ما يقتضيه ذلك من نسبته خصائص الأجسام لله تعالى من تركيب وتولد واحتياج إلى الأبناء للإعانة، وليخلُفوا الأصل بعد زواله، فأي فساد أعظم من هذا»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٥/١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

★ غريب الآية:

صَرَّفْنَا: بَيَّنَّا.

نُفُورا: ذهابًا عن الحق وبعدًا منه وهربًا، والنفور مصدر من قولهم: نفر فلان من هذا الأمر ينفر منه نفرًا ونفورًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ لهؤلاء المشركين المفترين على اللَّه ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ العِبَر والآيات والحجج، وضربنا لهم فيه الأمثال، وحذّرناهم فيه وأنذرناهم ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يقول: ليتذكروا تلك الحجج عليهم، فيعقلوا خطأ ما هم عليه مقيمون، ويعتبروا بالعبر، فيتعظوا بها، وينيبوا من جهالتهم، فما يعتبرون بها، ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنُّذُر، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تذكيرنا إياهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ يقول: إلا ذهابًا عن الحقّ، وبُعدًا منه وهربًا»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن؛ أي: نَوَّعَ الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه، وما يضرهم فيدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورا عن آيات اللَّه لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات اللَّه لهم سمعًا ولا ألقوا لها بالًا.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكًّا ولا ريبًا»[2].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٩١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وفي معنى هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير، كلاهما حق ويشهد له قرآن..

الأول من الوجهين المذكورين: أن معنى الآية الكريمة: لو كان مع اللَّه آلهة أخرى كما يزعم الكفار ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ -أي: الآلهة المزعومة- أي: لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: اللَّه ﴿سَبِيلًا﴾ أي إلى مغالبته وإزالة ملكه؛ لأنهم إذًا يكونون شركاءه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض. سبحان اللَّه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا!

وهذا القول في معنى الآية هو الظاهر عندي، وهو المتبادر من معنى الآية الكريمة. ومن الآيات الشاهدة لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] وهذا المعنى في الآية مروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي علي الفارسي، والنقاش، وأبي منصور، وغيره من المتكلمين.

الوجه الثاني في معنى الآية الكريمة: أن المعنى ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا ووسيلة تقربهم إليه لاعترافهم بفضله. ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[3] ويروى هذا القول عن قتادة. واقتصر عليه ابن كثير في تفسيره. ولا شك

(١) المؤمنون: الآيتان (٩١-٩٢).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٢).
(٣) الإسراء: الآية (٥٧).

أن المعنى الظاهر المتبادر من الآية بحسب اللغة العربية هو القول الأول؛ لأن في الآية فرض المحال، والمحال المفروض الذي هو وجود آلهة مع اللَّه مشاركة له لا يظهر معه أنها تتقرب إليه، بل تنازعه لو كانت موجودة، ولكنها معدومة مستحيلة الوجود. والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه -لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

ثم نزَّه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: تعاليًا كبيرا، بل هو اللَّه الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد»[٢].

* * *

(١) أضواء البيان (٣/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

تفقهون: أصل الفقه الفهم، وقيل: فهم الأشياء الخفية، والمعنى: أي: ليس في وسعهم أن يعرفوا حقيقة ذلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن تيمية: «قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ يعني: وما من شيء إلا يسبح، قال ابن عباس: حتى النبات الذي خلقه يسبح بحمده.

وقال عكرمة: لا يسُبَّن أحدكم ثوبه ولا دابته فما من شيء إلا يسبح بحمده. وروي أن صرير الباب بالتسبيح. وقال سبحانه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾[1] وقد روي: سبحي. وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾[2] يعني: صاغرون. وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾[3] الآية.

وقوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[4] وسبح إخبار عن ماض وآت، وإعلام لنا أن كل شيء يسبح بحمده ويسجد لعظمته ويعترف بألوهيته ووحدانيته»[5].

قال السعدي: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ من حيوان ناطق وغير ناطق ومن أشجار ونبات وجامد وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي

---

(١) سبأ: الآية (١٠).
(٢) النحل: الآية (٤٨).
(٣) الحج: الآية (١٨).
(٤) الحديد: الآية (١).
(٥) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٥٠٥).

على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولًا تكاد السماوات والأرض تتفطر منه، وتخر له الجبال، ولكنه أمهلهم وأنعم عليهم وعافاهم ورزقهم ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته لسقطت السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة»[1].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: « ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ الآية، المعنى ينزهه عن هذه المقالة التي لكم، والاشتراك الذي أنتم بسبيله، ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ﴾، ثم أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل، وهو التسبيح، وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عم بعد ذلك الأشياء كلها، في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي ينزه الله ويحمده ويمجده، واختلف أهل العلم في التسبيح، فقالت فرقة هو تجوز، ومعناه إن كل شيء تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المعتبر، ومن حجة هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾[2] وقالت فرقة ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ لفظ عموم، ومعناه الخصوص في كل حي ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات البحتة، فمن هذا قول عكرمة: الشجرة تسبح والأسطوانة لا تسبح، وقال يزيد الرقاشي للحسن وهما في طعام، وقد قدم الخوان: أيسبح هذا الخوان يا أبا سعيد؟ فقال قد كان يسبح مرة، يريد أن الشجرة في زمان نموها واغتذائها تسبح، فمذ صارت خوانًا مدهونًا أو نحوه صارت جمادًا، وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبح تسبيحًا لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه أثر الصنعة لكان أمرًا مفقوهًا، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفقهون

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٣).

(٢) ص: الآية (١٨).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٥٩).

تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين»[١].

قال القرطبي: «وخبر الجذع أيضًا مشهور في هذا الباب خرجه البخاري في مواضع من كتابه. وإذا ثبت ذلك في جماد واحد جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيء من ذلك، فكل شيء يسبح للعموم»[٢].

وقال: «فالصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك لو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء، فالقول به أولى، والله أعلم»[٣].

قال ابن القيم: «وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها. وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[٤]، والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[٥] والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى، فإن هذا يكون لكل مصوت، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[٦] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[٧] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذِّبون، وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته»[٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٤).
(٤) ص: الآية (١٨).
(٥) سبأ: الآية (١٠).
(٦) الحج: الآية (١٨).
(٧) النور: الآية (٤١).
(٨) الروح (ص: ٧٢).

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: أنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر..

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى اللَّه وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[١].

وقال ههنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢] إلى أن قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[٣]»[٤].

قلت: فإذا ذكر اللَّه خبرًا في كتابه أو صحّ عن نبيه؛ فيجب التصديق به، ولا يجوز رده، ويجب أن يفهم الفهم اللائق به، فلا إفراط ولا تفريط. وعلم الإنسان بالمقارنة مع علم اللَّه قليل، فعلم اللَّه محيط، وصفة من صفاته، وعلم الإنسان مكتسب، يعلمه اللَّه من شاء، ويحجبه عمن شاء، فلا يلزم إذا أخبر اللَّه بخبر أن يقيس الإنسان كل أقواله وأفعاله عليه، فقد تكون هناك خصوصيات لا يعرفها إنسان؛ كما في خصوصيات صفات اللَّه وأفعاله، المسلم الحق يصدق بها ولا يكيفها، وكأخبار الجنة والنار أيضًا، فإن الإنسان يقرؤها ويصدق بها، ولا يعرف كنهها وكيفيتها، وتسبيح الجبال والجمادات ذكره اللَّه بلفظ التسبيح، فيبقى على أصله وحقيقته، فهي تسبح اللَّه كيف شاء، ومتى شاء، فما علينا إلا التصديق الكامل وعدم الرد للنصوص أو تأويلها بما لا يليق بها، هذا واللَّه أعلم.

---

(١) النساء: الآية (١١٠).

(٢) فاطر: الآية (٤١).

(٣) فاطر: الآية (٤٥).

(٤) تفسير القرآن (٥/ ٧٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**إن نبي اللَّه نوحًا لما حضرته الوفاة قال لابنه: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين؛ آمرك بلا إله إلا اللَّه وسبحان اللَّه وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق**»[١].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى اللَّه إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله**»[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «قوله: «**أمة من الأمم مسبحة**» استدل به على أن الحيوان يسبح اللَّه تعالى حقيقة، ويتأيد به قول من حمل قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ على الحقيقة»[٣].

قال القرطبي: «وقوله: «**أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح**» مقتضى هذا أنه تسبيح مقال ونطق، كما قد أخبر اللَّه تعالى عن النمل أن لها منطقًا، وفهمه سليمان عليه السلام معجزة له. وقد أخبر اللَّه تعالى عن النملة التي سمعها سليمان أنها قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[٤].

فهذا كله يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقًا وقولًا، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء اللَّه تعالى ممن خلق له العادة كالنبي، ولا ينكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك، فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه، ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولا وكلاما، ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٩-٢٢٠) وقال: رجال أحمد ثقات. وصححه ابن كثير في البداية (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣)، والبخاري (٦/ ١٨٩-١٩٠/ ٣٠١٩)، ومسلم (٤/ ١٧٥٩/ ٢٢٤١)، وأبو داود (٥/ ٤١٨/ ٥٢٦٦)، والنسائي (٧/ ٢٤٠/ ٤٣٦٩) وابن ماجه (٢/ ١٠٧٥/ ٣٢٢٥).

(٣) الفتح (٦/ ٤٤٣).

(٤) النمل: الآيتان (١٨-١٩).

(٥) المفهم (٥/ ٥٤٣).

* عن عبد اللَّه قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول اللَّه ﷺ في سفر فقَلَّ الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: حي على الطهور المبارك والبركة من اللَّه، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[1].

★ **غريب الحديث:**

حي على الطهور: أي: هلموا إلى الطهور، وهو بفتح الطاء والمراد به الماء.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «وهذا التسبيح تسبيح مسموع لا بالحال كما يقوله بعض النظار»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٦٠)، والبخاري (٦/ ٧٢٨/ ٣٥٧٩)، والترمذي (٥/ ٥٥٧/ ٣٦٣٣).
(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حِجَابًا: أي: حاجزًا ومانعًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة وجهان من التفسير:

الأول: أن المعنى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا﴾؛ أي: حائلًا وساترًا يمنعهم من تفهم القرآن وإدراكه لئلا يفقهوه فينتفعوا به. وعلى هذا القول: فالحجاب المستور هو ما حجب اللَّه به قلوبهم عن الانتفاع بكتابه. والآيات الشاهدة لهذا المعنى كثيرة؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[3] الآية. إلى غير ذلك من الآيات، وممن قال بهذا القول في معنى الآية: قتادة والزجاج وغيرهما.

الوجه الثاني في الآية: أن المراد بالحجاب المستور أن اللَّه يستره عن أعين الكفار فلا يرونه»[4].

قال ابن عطية: «هذه الآية تحتمل معنيين: أحدهما أن اللَّه تعالى أخبر نبيه أنه يحميه من الكفرة أهل مكة، الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته القرآن، وصلاته في المسجد، ويريدون مد اليد إليه، وأحوالهم في هذا المعنى مشهورة مروية. والمعنى

---

(١) فصلت: الآية (٥).
(٢) البقرة: الآية (٧).
(٣) الكهف: الآية (٥٧).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٥٩).

الآخر أنه أعلمه أنه يجعل بين الكفرة وبين فهم ما يقرأه محمد ﷺ حجابًا، فالآية على هذا التأويل في معنى التي بعدها، وعلى التأويل الأول هما آيتان لمعنيين»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث، ولا يقرّون بالثواب والعقاب، جعلنا بينك وبينهم حجابا، يحجب قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم، فينتفعوا به، عقوبة منا لهم على كفرهم. والحجاب ههنا: هو الساتر»[(٢)].

وقال: «وكان بعض نحويي أهل البصرة يقول: معنى قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ حِجابا ساترا، ولكنه أخرج وهو فاعل في لفظ المفعول، كما يقال: إنك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن؛ لأنه من شأمهم ويمنهم. قال: والحجاب ههنا: هو الساتر، وقال: مستورا. وكان غيره من أهل العربية يقول: معنى ذلك: حجابا مستورا عن العباد فلا يرونه.

وهذا القول الثاني أظهر بمعنى الكلام أن يكون المستور هو الحجاب، فيكون معناه: أن لله سترًا عن أبصار الناس فلا تدركه أبصارهم، وإن كان للقول الأوّل وجه مفهوم»[(٣)].

قال ابن القيم: «قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[(٤)] فأخبر سبحانه بأنه منعهم فقه كلامه، وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجة عليهم، فإنهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد اللَّه، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأن الذي غشي قلوبهم كالذي غشي آذانهم، ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة، ويصيروا كالأصم، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارة، ويثبته أخرى، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾[(٥)] ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن، وأمر الرسول

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٦٠).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٩٣).
(٣) جامع البيان (١٥/ ٩٣-٩٤).
(٤) الإسراء: الآيتان (٤٥-٤٦).
(٥) الأنفال: الآية (٢٣).

بإسماعهم إياه، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١]، فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه، والمعنى: ولو علم اللَّه فيهم خيرًا لأسمعهم سمعًا ينتفعون به وهو فقهه المعنى وعقله، وإلا فقد سمعوه سمعا تقوم به عليهم الحجة، ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه، والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به، فينزل منزلة من لم يسمعه»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أسماء بنت أبي بكر ﵄ قالت: لما نزلت «تبت يدا أبي لهب» أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر وهي تقول:

مُذَمَّمًا أَبَيْنَا وَدِينَهُ قَلَيْنَا
وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

والنبي ﷺ جالس في المسجد، ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول اللَّه، قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول اللَّه ﷺ: إنها لن تراني، وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال، وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول اللَّه ﷺ فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرت أن صاحبك هجاني فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها[٣].

---

(١) الملك: الآية (١٠).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٣) أخرجه: البيهقي في الدلائل (٢/ ١٩٥-١٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٦١) واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والحميدي (١/ ١٥٣-١٥٥/ ٣٢٣). وللحديث شاهد من حديث ابن عباس أخرجه: أبو يعلى (١/ ٣٣-٣٤/ ٢٥) و(٤/ ٢٤٦/ ٢٣٥٨)، والبزار (الكشف ٣/ ٨٣-٨٤/ ٢٢٩٤ و٢٢٩٥) وقال: وهذا أحسن الإسناد. وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٤٤٠/ ٦٥١١)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٤٤): «قال البزار: حسن الإسناد قلت: ولكن فيه عطاء بن السائب وقد اختلط». وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٩٥٨).

★ **غريب الحديث:**

ولولة: الوَلْوَلَة: صَوْتٌ متتابع بالوَيْل والاستغاثة. وقيل: هي حكاية صَوْتِ النائحة.

فهر: حجر.

قلينا: هجرنا وتركنا.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «قال الكلبي: الحجاب ههنا مانع يمنعهم من الوصول إلى رسول اللَّه ﷺ بالأذى من الرعب ونحوها مما يصدهم عن الإقدام عليه»[1].

* * *

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أَكِنَّة: جمع كنان، وهي الأغطية.

وَقْرًا: الوقر -بالفتح-: الثقل.

نُفُورا: جمع نافر، وهو الذي يفر من الشيء ويهرب منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الكفار أكنة، (جمع كنان) وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه، لئلا يفقهوا القرآن. أو كراهة أن يفقهوه لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن. أي فهم معانيه فهمًا ينتفع به صاحبه. وأنه جعل في آذانهم وقرًا؛ أي: صممًا وثقلًا لئلا يسمعوه سماع قبول وانتفاع.

وبين في مواضع أخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم اللَّه على كفرهم بطمس البصائر، وإزاغة القلوب والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾[1]، وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾[3]، وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات»[6].

---

(١) الصف: الآية (٥).
(٢) النساء: الآية (١٥٥).
(٣) الأنعام: الآية (١١٠).
(٤) البقرة: الآية (١٠).
(٥) التوبة: الآية (١٢٥).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٦٠-١٦١).

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[1]. بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، أن نبيه ﷺ إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال «لا إله إلا الله» ولى الكافرون على أدبارهم نفورًا، بغضًا منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به -جل وعلا-.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، مبينًا أن نفورهم من ذكره وحده -جل وعلا- سبب خلودهم في النار، كقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[4]، وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾[6]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[7]»[8].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة عند قراءتك عليهم القرآن أكنة، وهي جمع كِنان، وذلك ما يتغشَّاها من خِذلان اللَّه إياهم عن فهم ما يُتلى عليهم ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يقول: وجعلنا في آذانهم وقرا عن سماعه، وصمما، والوَقر بالفتح في الأذن: الثقل. والوِقر بالكسر: الحِمْل. وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ﴾ يقول: وإذا قلت: لا إله إلا اللَّه في القرآن وأنت تتلوه ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ يقول: انفضوا، فذهبوا عنك نفورا من قولك استكبارا له واستعظاما من أن يوحِّد اللَّه تعالى..

وقال آخرون: إنما عُني بقوله: ولوا على أدبارهم نفورا الشياطين، وإنها تهرب من قراءة القرآن، وذكر اللَّه..

---

(١) الإسراء: الآية (٤٦).
(٢) الزمر: الآية (٤٥).
(٣) غافر: الآية (١٢).
(٤) الصافات: الآيتان (٣٥-٣٦).
(٥) الشورى: الآية (١٣).
(٦) الحج: الآية (٧٢).
(٧) فصلت: الآية (٢٦).
(٨) أضواء البيان (٣/ ١٦١).

والقول الذي قلنا في ذلك أشبه بما دلّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن اللَّه تعالى أتبع ذلك قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(١) فأن يكون ذلك خبرا عنهم أولى إذا كان بخبرهم متصلًا من أن يكون خبرًا عمن لم يجز له ذكر»(٢).

قال ابن القيم: «وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾(٣)وهو جمع أغلف وهو الداخل في غلافه كقُلْف وأَقْلَف، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها اللَّه ﷻ على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله، فهي أكنة على القلوب، ووقر في الأسماع، وعمى في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة وَلَّى أصحابها على أدبارهم نفورا»(٤).

قال ابن عاشور: «لما كان الإخبار عنهم قبل هذا يقتضي أنهم لا يفقهون معاني القرآن، أتبع ذلك بأنهم يُعرضون عن فهم ما فيه خير لهم، فإذا سمعوا ما يبطل إلهية أصنامهم فهموا ذلك فَوَلّوا على أدبارهم نفورًا؛ أي: زادهم ذلك الفهم ضلالًا كما حرمهم عدمُ الفهم هديًا، فحالهم متناقض. فهم لا يسمعون ما يحق أن يسمع، ويسمعون ما يَهْوَوْنَ أن يسمعوه ليزدادوا به كفرًا»(٥).

قال القاسمي: « ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾أي غير مشفوع بذكر شيء من آلهتهم، ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾أي: هربًا من استماع التوحيد. قال القاشاني: لتشتت أهوائهم، وتفرق هممهم في عبادة متعبداتهم، من أصنام الجسمانيات والشهوات، فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة لتألفها بالكثرة واحتجابها بها»(٦).

قال الشنقيطي: «في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن

---

(١) الإسراء: الآية (٤٥).
(٢) جامع البيان (١٥/ ٩٤-٩٥).
(٣) البقرة: الآية (٨٨).
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٨).
(٥) التحرير والتنوير (١٥/١١٨).
(٦) محاسن التأويل (١٠/ ٢٣٧).

الشر لا يقع بمشيئة اللَّه، بل بمشيئة العبد. سبحان اللَّه وتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته؟ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[1]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[2]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات»[4].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٠٧).

(٢) السجدة: الآية (١٣).

(٣) الأنعام: الآية (٣٥).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

نَجْوَى: أي: متناجون، والتناجي الإسرار بالحديث.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: نحن أعلم يا محمد بما يستمع به هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قومك، إذ يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب اللَّه ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾. وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول: النجوى: فعلهم، فجعلهم هم النجوى، كما يقول: هم قوم رضا، وإنما رضا: فعلهم. وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ يقول: حين يقول المشركون بالله: ما تتبعون إلا رجلًا مسحورًا»[1].

وقال: «وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يذهب بقوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ إلى معنى: ما تتبعون إلا رجلًا له سَحْر: أي: له رئة، والعرب تسمي الرئة سَحْرًا، والمسحَّر من قولهم للرجل إذا جبن: قد انتفخ سَحْره، وكذلك يقال لكل ما أكَلَ أو شرب من آدميّ وغيره: مَسحور ومُسَحَّر، كما قال لبيد:

فإنْ تَسْأَلِينَا فِيم نَحْنُ فإنَّنا ... عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّر

وقال آخرون:

ونُسحَر بالطعام وبالشراب

أي: نغذّى بهما، فكأن معناه عنده كان: إن تتبعون إلا رجلًا له رئة، يأكل الطعام، ويشرب الشراب، لا مَلَكا لا حاجة به إلى الطعام والشراب، والذي قال

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٥).

من ذلك غير بعيد من الصواب»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى نبيه -صلوات اللَّه وسلامه عليه -بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءة رسول اللَّه ﷺ سرًا من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السّحر على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة؛ أي: إن تتبعون -إن اتبعتم محمدًا- إلا بَشَرًا يأكل ويشرب، كما قال الشاعر:

فَإن تَسألينا فيم نَحْنُ فَإنَّنا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّر

وقال الراجز: ونُسْحَر بالطَّعام وبالشراب

أي: نُغذى: وقد صوب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رَئِي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾[٢] أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصًا»[٣].

قال السعدي: « ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة لم يفده الاستماع شيئًا ولهذا قال: ﴿إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ أي: متناجين ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في مناجاتهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم وقد بنوها على أنه مسحور فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي لا يدري ما يقول»[٤].

قال ابن عاشور: «كان المشركون يحيطون بالنبي ﷺ في المسجد الحرام إذا قرأ القرآن يستمعون لما يقوله، ليتلقفوا ما في القرآن مما ينكرونه، مثل توحيد اللَّه، وإثبات البعث بعد الموت، فيعجب بعضُهم بعضًا من ذلك، فكان الإخبار عنهم بأنهم جُعلت في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، وأنهم يولون على أدبارهم

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٦).
(٢) الإسراء: الآية (٤٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٠-٨١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٥).

نفورًا إذا ذكر اللَّه وحده، ويثير في نفس السامع سُؤالًا عن سبب تجمعهم لاستماع قراءة النبي -عليه الصلاة والسلام-، فكانت هذه الآية جوابًا عن ذلك السؤال. فالجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا.

وافتتاح الجملة بضمير الجلالة لإظهار العناية بمضمونها. والمعنى: أنّ اللَّه يعلم علمًا حقًّا داعي استماعهم، فإن كثرت الظنون فيه فلا يعلم أحد ذلك السبب»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١١٩-١٢٠).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٤٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: انظر يا محمد بعين قلبك فاعتبر كيف مثَّلوا لك الأمثال، وشبهوا لك الأشباه، بقولهم: هو مسحور، وهو شاعر، وهو مجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ يقول: فجاروا عن قصد السبيل بقيلهم ما قالوا: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ يقول: فلا يهتدون لطريق الحقّ لضلالهم عنه وبُعدهم منه، وأن اللَّه قد خذلهم عن إصابته، فهم لا يقدرون على المَخْرَج مما هم فيه من كفرهم بتوفُّقهم إلى الإيمان به»[1].

قال القرطبي: «عجبه من صنعهم كيف يقولون تارة ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر. ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ أي: حيلة في صد الناس عنك. وقيل: ضلوا عن الحق فلا يجدون سبيلا؛ أي: إلى الهدى.

وقيل: مخرجًا، لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر»[2].

قال ابن عاشور: «والمعنى على هذا: أنهم تحيروا كيف يصفون حالك للناس لتوقعهم أن الناس يكذبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون في وصفه من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٧٧).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾

★ غريب الآية:

رفاتا: الرفات: ما تكسر وتحطم كالفتات وزنًا ومعنى، وهو ما بُولِغ في دقه وتفتيته وهو اسم لأجزاء ذلك الشيء المفتت.

فسينغضون إليك رؤوسهم: أي: يحركونها تحريك استهزاء، يقال: أنغض رأسه ينغضها؛ أي: حركها إلى فوق وإلى أسفل إنغاضًا فهو منغِض.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾ أي: ترابًا. قاله مجاهد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: غبارًا.

﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ أي: بعد ما بلينا وصرنا عدمًا لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾[1] قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾[2]. وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ وهما أشد امتناعًا من العظام والرفات ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾:

---

(١) النازعات: الآيات (١٠-١٢).

(٢) يس: الآيتان (٧٨-٧٩).

قال ابن إسحاق عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت.

وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك.

ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صِرْتُم مَوْتًا الذي هو ضد الحياة لأحياكم اللَّه إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده..

وقال مجاهد: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني: السماء والأرض والجبال.

وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم اللَّه بعد موتكم.

وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهري في قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبي ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء..

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾[٣].

وقوله: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

---

(١) الروم: الآية (٢٧).
(٢) الملك: الآية (٢٥).
(٣) الشورى: الآية (١٨).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[1] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمَانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[2] ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[3] وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[4] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وله الحمد في كل حال. .

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: في الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكما قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[5] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[8]»[9].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش، وقالوا بعنتهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ لم نتحطم ولم نتكسَّر بعد مماتنا وبلانا ﴿وَرُفَاتًا﴾ يعني ترابًا في قبورنا. .

وقوله: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قالوا، إنكارا منهم للبعث بعد الموت: إنا لمبعوثون بعد مصيرنا في القبور عظامًا غير منحطمة، ورفاتا منحطمة، وقد بَلِينا فصرنا فيها ترابا، خلقا مُنْشَأ كما كنا قبل الممات جديدا، نعاد كما بدئنا، فأجابهم

---

(١) الروم: الآية (٢٥).
(٢) القمر: الآية (٥٠).
(٣) النحل: الآية (٤٠).
(٤) النازعات: الآيتان (١٣-١٤).
(٥) النازعات: الآية (٤٦).
(٦) طه: الآيات (١٠٢-١٠٤).
(٧) الروم: الآية (٥٥).
(٨) المؤمنون: الآيات (١١٢-١١٤).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨١-٨٤).

-جلّ جلاله- يعرّفهم قُدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بِلاهم خلقًا جديدًا، على أيّ حال كانوا من الأحوال، عظامًا أو رُفاتًا، أو حجارة أو حديدًا، أو غير ذلك مما يعظُم عندهم أن يحدث مثله خَلْقا أمثالَهم أحياء، قل يا محمد كونوا حجارة أو حديدًا، أو خلقًا مما يكبر في صدوركم»[1].

وقال: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد للمكذّبين بالبعث بعد الممات من قومك القائلين ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ كونوا إن عجبتم من إنشاء اللَّه إياكم، وإعادته أجسامكم، خلقًا جديدًا بعد بِلاكم في التراب، ومصيركم رُفاتا، وأنكرتم ذلك من قُدرته حجارة أو حديدًا، أو خلقًا مما يكبر في صدوركم إن قدرتم على ذلك، فإني أحييكم وأبعثكم خلقًا جديدًا بعد مصيركم كذلك كما بدأتكم أوّل مرّة.

واختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾.

فقال بعضهم: عُنِي به الموت، وأريد به: أو كونوا الموت، فإنكم إن كنتموه أمتُّكم ثم بعثتكم بعد ذلك يوم البعث..

وقال آخرون: عنى بذلك السماء والأرض والجبال..

وقال آخرون: بل أريد بذلك: كونوا ما شئتم..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- قال: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾، وجائز أن يكون عنى به الموت؛ لأنه عظيم في صدور بني آدم؛ وجائز أن يكون أراد به السماء والأرض؛ وجائز أن يكون أراد به غير ذلك، ولا بيان في ذلك أبين مما بين جلّ ثناؤه، وهو كلّ ما كبر في صدور بني آدم من خلقه؛ لأنه لم يخصص منه شيئًا دون شيء.

وأما قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ فإنه يقول: فسيقول لك يا محمد هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ خلقا جديدا، إن كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر في صدورنا، فقل لهم: يعيدكم ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقول: يعيدكم كما كنتم قبل أن تصيروا حجارة أو حديدًا إنسًا أحياء، الذي خلقكم إنسا من غير شيء

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٧).

أوّل مرّة. .

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يقول: فإنك إذا قلت لهم ذلك، فسيهزُّون إليك رءوسهم برفع وخفض. .

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ يقول -جلّ ثناؤه-: ويقولون متى البعث، وفي أيّ حال ووقت يعيدنا خلقًا جديدًا، كما كنا أوّل مرّة، قال اللَّه ﷻ لنبيه: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد إذ قالوا لك: متى هو، متى هذا البعث الذي تعدنا، ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وإنما معناه: هو قريب؛ لأن عسى من اللَّه واجب»[1].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث وتكذيبهم به واستبعادهم بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: أجسادا بالية ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون ذلك وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل حيث كذبوا رسل اللَّه وجحدوا آيات اللَّه وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بِقُدَرِهِم الضعيفة العاجزة.

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرون عليه جعلوا قدرة اللَّه كذلك.

فسبحان من جعل خلقًا من خلقه يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثالًا في جهل أظهر الأشياء وأجلاها وأوضحها براهين وأعلاها ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانته، أو الهلاك والضلال. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[2].

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا:

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: يعظم لتسلموا بذلك على زعمكم من أن تنالكم قدرة اللَّه أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزي اللَّه في أي حالة تكونون، وعلى أي وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

---

(١) جامع البيان (١٥/ ٩٨-١٠١).

(٢) آل عمران: الآية (٨).

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم ولم تكونوا شيئًا مذكورا فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[1]، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يهزونها إنكارا وتعجبا مما قلت، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ ولا إقرار منهم لأصل البعث بل ذلك سفه منهم وتعجيز. ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته وإلا فكل ما هو آت فإنه قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور وينفخ في الصور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: تنقادون لأمره ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: هو المحمود تعالى على فعله ويجزي به العباد إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من سرعة وقوعه وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ يندمون غاية الندم عند وروده ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (١٠٤).

(٢) المطففين: الآية (١٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٦-٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

★ غريب الآية:

يَنْزَغ: يفسد، والنزغ الدخول في الأمر لإفساده. وأصله: الطعن السريع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد اللّه المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذا لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده؛ أي: فربما أصابه بها»[1].

قال السعدي: « ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى اللّه من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٤).

فيما بينهم لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه فإنه يدعوهم ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

وأما إخوانهم فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم وسعى في العداوة فإن الحزم كل الحزم السعي في ضد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمارة بالسوء التي يدخل الشيطان من قبلها، فبذلك يطيعون ربهم ويستقيم أمرهم ويهدون لرشدهم»[2].

قال ابن عاشور: «وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه. وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل[3]: أن النبي ﷺ أمره بأعمالٍ تُدخله الجنة ثم قال له: ألا أخبرك بمِلاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول اللَّه، فأخذ بلسانه وقال: كُفّ عليك هذا. قال: قلت: يا رسول اللَّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **«ثكلتك أمك! وهل يَكُبّ الناسَ في النار على وجوههم، أو قال على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم»**.

والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضًا بحسن المعاملة وإلانةِ القول؛ لأن القول ينم عن المقاصد، بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾.

ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابًا لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين وتصلبهم، فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم، قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[4]. والمسلمون في مكة يومئذٍ طائفة قليلة، وقد صرف اللَّه عنهم ضر أعدائهم بتصاريف من لطفه ليكونوا آمنين، فأمرهم أن لا يكونوا سببًا في إفساد تلك الحالة»[5].

---

(١) فاطر: الآية (٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٧)، والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣)، وصححه الحاكم (٢/ ٤١٢-٤١٣) ووافقه الذهبي.

(٤) فصلت: الآية (٣٤).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ١٣١-١٣٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن حسن الأخلاق وتفريج الكرب من أعظم مقاصد الإسلام

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يديه، فيقع في حفرة من النار**»(١).

★ غريب الحديث:

ينزغ: بالغين المعجمة نزغ الشيطان بين القوم نزغا حمل بعضهم على بعض بالفساد.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «المراد أنه يغري بينهم حتى يضرب أحدهما الآخر بسلاحه، فيحقق الشيطان ضربته له»(٢).

قال ابن بطال: «هو من باب الأدب وقطع الذرائع ألاَّ يشير أحد السلاح خوف ما يؤول منها، ويخشى من نزغ الشيطان»(٣).

قال القرطبي: «ولعن النبي ﷺ للمشير بالسلاح دليل على تحريم ذلك مطلقًا، جِدًّا كان أو هزلًا، ولا يخفى وجه لعن من تعمد ذلك؛ لأنه يريد قتل المسلم أو جرحه، وكلاهما كبيرة، وأما إن كان هازلا فلأنه ترويع مسلم، ولا يحل ترويعه، ولأنه ذريعة إلى القتل والجرح المحرمين، وقد نص في الرواية الأخرى على صحة مراعاة الذريعة، حيث قال: «**فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار**»»(٤).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد اللَّه إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (١٣/ ٢٩/ ٧٠٧٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٠/ ٢٦١٧).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (١٠/ ١٧).

(٤) المفهم (٦/ ٦٠١).

-ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «وقوله ﷺ: «وكونوا عباد اللَّه إخوانًا»: هذا ذكره النَّبيُّ ﷺ كالتَّعليل لِما تقدَّم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم إذا تركُوا التَّحاسُدَ، والتَّناجُشَ، والتَّباغُضَ، والتدابرَ، وبيعَ بعضِهم على بيعِ بعضٍ، كانوا إخوانًا.

وفيه أمرٌ باكتساب ما يصيرُ المسلمون به إخوانًا على الإطلاق، وذلك يدخلُ فيه أداءُ حقوقِ المسلم على المسلم مِنْ رَدِّ السلامِ، وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة، وإجابةِ الدَّعوة، والابتداء بالسَّلام عندَ اللِّقاء، والنُّصح بالغيب»(٢).

وقال: «وقد حرَّم اللَّه على المؤمنين ما يُوقع بينهم العداوة والبغضاء، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٣). وامتنَّ على عباده بالتَّأليف بين قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٤)، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(٥).

ولهذا المعنى حرم المشي بالنَّميمة، لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورُخِّصَ في الكذب في الإصلاح بين النَّاس، ورغَّب اللَّه في الإصلاح بينهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٦)، وقال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾(٧)، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٧) ومسلم (٤/ ١٩٨٦/ ٢٥٦٤) وابن ماجه (٢/ ١٢٩٨/ ٣٩٣٣)، كلهم من طريق أبي سعيد مولى عامر بن كريز عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧١).

(٣) المائدة: الآية (٩١).

(٤) آل عمران: الآية (١٠٣).

(٥) الأنفال: الآيتان (٦٢-٦٣).

(٦) النساء: الآية (١١٤).

(٧) الحجرات: الآية (٩).

﴿بَيْنِكُمْ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال: «وقوله ﷺ: «**المسلمُ أخو المسلم، لا يظلِمُه، ولا يَخذُلُه، ولا يَكذِبُه، ولا يَحقِرُه**»، هذا مأخوذ من قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[(٣)]، فإذا كان المؤمنون إخوةً، أُمروا فيما بينهم بما يُوجب تآلُفَ القلوب واجتماعَها، ونُهوا عمَّا يوجبُ تنافرَ القلوب واختلافَها، وهذا من ذلك.

وأيضًا، فإنَّ الأخ مِنْ شأنه أنْ يوصِلَ إلى أخيه النَّفع، ويكفَّ عنه الضَّرر، ومن أعظم الضرِّ الذي يجبُ كفُّه عَنِ الأَخِ المسلم الظُّلم»[(٤)].

* * *

(١) الأنفال: الآية (١).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).
(٣) الحجرات: الآية (١٠).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لهؤلاء المشركين من قريش الذين قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[1]: ﴿رَّبُّكُمْ﴾ أيها القوم ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ فيتوب عليكم برحمته، حتى تنيبوا عما أنتم عليه من الكفر به وباليوم الآخر، و﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بأن يخذلكم عن الإيمان، فتموتوا على شرككم، فيعذّبكم يوم القيامة بكفركم به..

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وما أرسلناك يا محمد على من أرسلناك إليه لتدعوه إلى طاعتنا ربًّا ولا رقيبًا، إنما أرسلناك إليهم لتبلغهم رسالاتنا، وبأيدينا صرفهم وتدبيرهم، فإن شئنا رحمناهم، وإن شئنا عذّبناهم»[2].

قال ابن كثير: «يقول اللَّه تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار»[3].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٤٩).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٠٢-١٠٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ من جميع أصناف الخلائق فيعطي كلا منهم ما يستحقه وتقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحيه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما منَّ به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبورا، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتبا، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ ما أنزله اللَّه عليه، وما فضله به من النبوة والكتاب»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾، كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾[٢].

وهذا لا ينافي ما في الصحيحين[٣] عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٨٥).

(٢) البقرة: الآية (٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٤) ومسلم (٤/ ١٨٤٣-١٨٤٤/ ٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[١]، وفي الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[٢].
ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور. .
وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه»[٣].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: وربك يا محمد أعلم بمن في السماوات والأرض وما يصلحهم فإنه هو خالقهم ورازقهم ومدبرهم، وهو أعلم بمن هو أهل للتوبة والرحمة، ومن هو أهل للعذاب، أهدي للحقّ من سبق له مني الرحمة والسعادة، وأُضلّ من سبق له مني الشقاء والخذلان، يقول: فلا يكبرنّ ذلك عليك، فإن ذلك من فعلي بهم لتفضيلي بعض النبيين على بعض، بإرسال بعضهم إلى بعض الخلق، وبعضهم إلى الجميع، ورفعي بعضهم على بعض درجات»[٤].

قال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي يشتمل على الحكمة وفصل الخطاب، ففضلناه به. قيل: الآية رد عليهم إذ استبعدوا أن يكون ﷺ نبيًا، دون من يعدونه عظيمًا بينهم في الغنى والجاه. وذكر من في السموات لإبطال قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٥]، وذكر منهم في الأرض لرد قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٦] وتخصيص داود بالذكر، إشارة لتفضيل النبي ﷺ، كما دل عليه ما كتب فيه من ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٧] ففيه تلميح إلى ما وقع فيه من وصفه بما ذكر فيه، وإيثار الزبور على الملك بيان لحيثية شرفه، وأنه بما أوحى إليه من الكتاب والعلم، لا بالملك والمال، كذا قالوا. والظاهر أنه للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما بلغ في الحكمة والملك. وقد اختصه اللّه بهما وميزه اللّه على أهل عصره. وإذا كان ذلك اختصاصًا ربانيًا، فلا غرابة من أن يختص سبحانه من العرب من علم أنه

---

(١) الأحزاب: الآية (٧).
(٢) الشورى: الآية (١٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٥).
(٤) جامع البيان (١٥/ ١٠٣).
(٥) الفرقان: الآية (٢١).
(٦) الزخرف: الآية (٣١).
(٧) الأنبياء: الآية (١٠٥).

أرجحهم عقلًا، وأكملهم فضلًا، لختم نبوته، وهداية بريته بمنهاجه وشرعته»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة نبي الله داود ﷺ

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خفف على داود ﷺ القرآن. فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

انظر فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ الآية (١٦٣).

* * *

(١) محاسن التأويل (١٠/ ٢٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٦/ ٥٦٠/ ٣٤١٧).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الوَسِيلة: القربة والزلفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن المعبودين من دون اللَّه الذين زعم الكفار أنهم يقربونهم إلى اللَّه زلفى، ويشفعون لهم عنده لا يملكون كشف الضر عن عابديهم؛ أي: إزالة المكروه عنهم، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تحويله من إنسان إلى آخر، أو تحويل المرض إلى الصحة، والفقر إلى الغنى، والقحط إلى الخصب ونحو ذلك. ثم بين فيها أيضًا أن المعبودين الذين عبدهم الكفار من دون اللَّه يتقربون إلى اللَّه بطاعته، ويبتغون الوسيلة إليه، أي الطريق إلى رضاه، ونيل ما عنده من الثواب بطاعته، فكان الواجب عليكم أن تكونوا مثلهم».

وقال: «وهذا المعنى الذي بينه -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: من أن كل معبود من دون اللَّه لا ينفع عابده، وأن كل معبود من دونه مفتقر إليه ومحتاج له -جل وعلا-، بينه أيضًا في مواضع أخر كقوله «في سبإ» ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[1]، وقوله «في الزمر»: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ

---

(١) سبأ: الآيتان (٢٢-٢٣).

﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[1]، إلى غير ذلك من الآيات»[2].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿قُلۡ﴾ للمشركين باللَّه الذين اتخذوا من دونه أندادا يعبدونهم كما يعبدون اللَّه، ويدعونهم كما يدعونه ملزما لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين: ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ آلهة من ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ فانظروا هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم الضر، ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾من مرض أو فقر أو شدة ونحو ذلك فلا يدفعونه بالكلية، ﴿وَلَا﴾ يملكون أيضًا تحويله من شخص إلى آخر من شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة، فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم ولا فعال نافعة، فاتخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجب أن السفه عند الاعتياد والممارسة وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي السديد والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة هو السفه والأمر المتعجب منه؛ كما قال المشركون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[3].

ثم أخبر أيضًا أن الذين يعبدونهم من دون اللَّه في شغل شاغل عنهم باهتمامهم بالافتقار إلى اللَّه وابتغاء الوسيلة إليه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى اللَّه تعالى، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التي وصف اللَّه بها هؤلاء

---

(١) الزمر: الآية (٣٨).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٦٢-١٦٣).

(٣) ص: الآية (٥).

المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره اللَّه أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى اللَّه، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب اللَّه بغير ذلك فهو كاذب»(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لمشركي قومك الذين يعبدون من دون اللَّه من خلقه، ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه عند ضرّ ينزل بكم، فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم، أو تحويله عنكم إلى غيركم، فتدعوهم آلهة، فإنهم لا يقدرون على ذلك، ولا يملكونه، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم. وقيل: إن الذين أمر النبيّ ﷺ أن يقول لهم هذا القول، كانوا يعبدون الملائكة وعزيرا والمسيح، وبعضهم كانوا يعبدون نفرا من الجنّ»(٢).

وقال: «يقول -تعالى ذكره-: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابًا ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يقول: يبتغي المدعوّون أربابًا إلى ربهم القُربة والزُّلفة؛ لأنهم أهل إيمان به، والمشركون باللَّه يعبدونهم من دون اللَّه ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أيهم بصالح عمله واجتهاده في عبادته أقرب عنده زلفة ﴿وَيَرْجُونَ﴾ بأفعالهم تلك ﴿رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ﴾ بخلافهم أمره ﴿عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿كَانَ مَحْذُورًا﴾ مُتَّقى. وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل، غير أنهم اختلفوا في المدعوّين، فقال بعضهم: هم نفر من الجنّ..

وقال آخرون: بل هم الملائكة..

وقال آخرون: بل عزير وعيسى، وأمه..

وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قول عبد اللَّه بن مسعود الذي رويناه عن أبي معمر عنه، وذلك أن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٩٠-٢٩٢).
(٢) جامع البيان (١٥/ ١٠٣).

أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبيّ ﷺ؛ ومعلوم أن عُزيرا لم يكن موجودا على عهد نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فيبتغي إلى ربه الوسيلة، وأن عيسى قد كان رُفع، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجودا حيا يعمل بطاعة اللَّه، ويتقرّب إليه بالصالح من الأعمال. فأما من كان لا سبيل له إلى العمل، فبم يبتغي إلى ربه الوسيلة. فإذ كان لا معنى لهذا القول، فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل، أو قول من قال: هم الملائكة، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل»[1].

قلت: لا شك في أن توجيه ابن جرير هو داخل تحت الصواب في الآية، فالقرآن نزل على الرسول ﷺ وقومه يعبدون الحجارة والجن والملائكة، والملائكة لا شك أنهم عباد مكرمون جبلهم اللَّه على عبادته، وبدليل العقل فالعبد لا يجوز أن يكون معبودًا، فالذي يعبده العابد هو الذي ينبغي أن يعبد، فمعبود الملائكة هو اللَّه تعالى الذي لا إله غيره، فكل وسيلة تقرب إليه بها عباده الصالحون؛ ينبغي للعبد أن يتقرب بها، ورجح الإمام ابن جرير -وهو الصواب- عدم دخول عيسى وعزير في مفهوم المدعوين لعدم وجودهما في ذلك الوقت، لكن نرى -واللَّه أعلم- أن الآية عامة في كل من عبد مع اللَّه أحدًا أو اتخذ الوسائط لهم؛ من مقبور وميت وإنس وجان وملك وحجر وشجر؛ فكل هذه لا يصلح أن تكون معبودة لفقدان الصفة فيها؛ فإن من صفة المعبود أنه هو الذي يخلق، والذي يهدي، والذي يطعم ويسقي، والذي يميت ثم يحيي، والذي يغفر الخطيئة يوم الدين، وأما ما سواه فعبادته أكبر العبث، بل هي حمق وضياع. اللهم اجعلنا مخلصين لك، واجعل عبادتنا كلها إليك، ووفقنا لذلك.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء ينبعث على الطاعات.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: ينبغي أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذًا باللَّه منه»[2].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٠٤-١٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٧).

قال ابن عاشور: «لما جرى ذكر الأفضلين من الأنبياء في أثناء آية الرد على المشركين مقالتهم في اصطفاء محمد ﷺ للرسالة، واصطفاء أتباعه لولايته ودينه، وهي آية ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] إلى آخرها، جاءت المناسبة لرد مقالة أخرى من مقالاتهم الباطلة، وهي اعتذارهم عن عبادة الأصنام بأنهم ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى اللَّه زلفى، فجعلوهم عبادًا مقربين ووسائل لهم إلى اللَّه.

فلما جرى ذكر المقربين حقًا انتُهزت مناسبة ذكرهم لتكون مخلصًا إلى إبطال ما ادعوه من وسيلة أصنامهم على عادة إرشاد القرآن من اغتنام مناسبات الموعظة، وذلك من أسلوب الخطباء. فهذه الآية متصلة المعنى بآية ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾[2]. فبعد أن أبطل أن يكون مع اللَّه آلهة ببرهان العقل عاد إلى إبطال إلهيتهم المزعومة ببرهان الحسّ. وهو مشاهدة أنها لا تغني عنهم كشف الضر»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين وبيان أن هذا هو الشرك الأكبر

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم[4].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله «فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم» أي: استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا، وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة. وروى الطبري من وجه آخر عن ابن مسعود فزاد فيه: والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، وهذا هو المعتمد في تفسير هذه الآية»[5].

---

(١) الإسراء: الآية (٥٥).
(٢) الإسراء: الآية (٤٢).
(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٣٨-١٣٩).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٠٦/ ٤٧١٤)، ومسلم (٤/ ٢٣٢١/ ٣٠٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٠/ ١١٢٨٩).
(٥) فتح الباري (٨/ ٥٠٧).

قال في فتح المجيد: « ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأمه، والعزير والملائكة، وقد نهى اللَّه عن ذلك أشد النهي، كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك. وهذا يدل على أن دعاءهم من دون اللَّه شرك باللَّه، ينافي التوحيد، وينافي شهادة أن لا إله إلا اللَّه، فإن التوحيد: أن لا يدعى إلا اللَّه وحده. وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك؛ لأن دعوة غير الله: تأليه وعبادة له.. وفي هذه الآية أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان ولا من صفة إلى صفة، ولو كان المدعو نبيًّا أو ملكًا. وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون اللَّه كائنًا من كان؛ لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان إليها؛ لأنه أشرك مع اللَّه من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله»[١].

قال في قرة العيون: «أي: أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير، فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون اللَّه ووصفهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، فيطلبون القرب من اللَّه بالإخلاص له وطاعته فيما أمر، وترك ما نهاهم عنه.

وأعظم القرب التوحيد الذي بعث اللَّه به أنبياءه ورسله، وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه، وهذا الذي يقربهم إلى اللَّه أي إلى عفوه ورضاه، ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، فلا يرجون أحدا سواه ولا يخافون غيره، وذلك هو توحيده؛ لأن ذلك يمنعهم من الشرك، ويوجب لهم الطمع في رحمة اللَّه والهرب من عقابه، والداعي لهم والحالة هذه قد عكس الأمر، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك باللَّه في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون اللَّه. ففيه معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[٣]. وفيه: الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة

(١) فتح المجيد (١١٨-١١٩).
(٢) فاطر: الآية (١٤).
(٣) الأحقاف: الآية (٦).

الأصنام، وتبين بهذه الآية أن اللَّه تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره اللَّه، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الإخلاص.

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد، فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير، فهم المعنيون بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر، يعني يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره. وأعظم الوسائل إلى اللَّه تعالى التوحيد الذي بعث به اللَّه أنبياءه ورسله، وخلق الخلق لأجله. ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات..

وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك. فالتوسل إلى اللَّه هو بما يحبه ويرضاه، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وقوله في الإنكار على من اتخذ الشفعاء: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]. وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير يأمر عباده بإخلاص العبادة له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاءوهم به من التوحيد والنهي عن الشرك. فأوقع اللَّه تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم؛ فإنهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك، وقالوا لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[5]. وقالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٢) الطور: الآية (٤٣).
(٣) يوسف: الآية (١٠٨).
(٤) يونس: الآية (١٨).
(٥) هود: الآية (٢٧).

ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١]، الآيات. وقالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[٢]. وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[٣].

فتدبر ما قص اللَّه تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم؛ فإن اللَّه تعالى أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة.

وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم»، فإنه لا يخالف ما تقدم؛ لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع اللَّه وليا من الأولين والآخرين»[٤].

قال شيخ الإسلام: «الآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون اللَّه، فكل من دعا ميتا أو غائبا من الأنبياء والصالحين، سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره اللَّه بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى عن دعائهم وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾»[٥].

«وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحًا ويقول: أنا لا أشرك باللَّه شيئًا، الشرك عبادة الأصنام»[٦].

* * *

(١) هود: الآية (٥٣).

(٢) هود: الآية (٦٢).

(٣) هود: الآية (٨٧).

(٤) هامش فتح المجيد (ص: ١١٩-١٢٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢٦).

(٦) فتح المجيد (ص: ١٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

★ غريب الآية:

مسطورًا: أي: مثبتًا محفوظًا؛ لأن ما كتب فقد أثبت وحفظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه ﷻ بأنه قد حتَمَ وقضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء، فمبيدوهم استئصالًا قبل يوم القيامة، أو معذّبوها، إما ببلاء من قتل بالسيف، أو غير ذلك من صنوف العذاب ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾. وقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يعني: في الكتاب الذي كتب فيه كلّ ما هو كائن، وذلك اللوح المحفوظ»[4].

قال ابن عاشور: «لما عرضَ بالتهديد للمشركين في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[5]، وتحداهم بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾[6] جاء بصريح التهديد على مسمع منهم بأن كل قرية مثل قريتهم في الشرك؛

---

(١) هود: الآية (١٠١).
(٢) الطلاق: الآيتان (٨ و ٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٧).
(٤) جامع البيان (١٥/ ١٠٦-١٠٧).
(٥) الإسراء: الآية (٥٧).
(٦) الإسراء: الآية (٥٦).

لا يعدوها عذاب الاستئصال وهو يأتي على القرية وأهلها، أو عذاب الانتقام بالسيف والذل والأسر والخوف والجوع، وهو يأتي على أهل القرية مثل صرعى بدر، كل ذلك في الدنيا. فالمراد: القرى الكافرُ أهلُها لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[2] في سورة القصص»[3].

* * *

(١) هود: الآية (١١٧).

(٢) القصص: الآية (٥٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مُبْصِرة: أي: آية واضحة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾. بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه آتى ثمود الناقة في حال كونها آية مبصرة، أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحًا لا لبس فيه فظلموا بها. ولم يبين ظلمهم بها ههنا، ولكنه أوضحه في مواضع أخر، كقوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[1]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[2]، وقوله ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال ابن كثير: « ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال اللَّه تعالى في المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[5]، وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة، فقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[6]؛ ولهذا قال تعالى:

---

(١) الأعراف (٧٧).
(٢) الشمس: الآية (١٤).
(٣) القمر: الآية (٢٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٦٤-١٦٥).
(٥) المائدة: الآية (١١٥).
(٦) هود: الآية (٦٥).

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها، فأبادهم اللَّه عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن اللَّه يُخوف الناس بما يشاء من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

وهكذا رُوي أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، واللَّه لئن عادت لأفعلن ولأفعلن»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذّبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما آتاهم ما سألوا منه كذّبوا رسلهم، فلم يصدّقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات؛ لأنّا لو أرسلنا بها إليها، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها»[(٢)].

وقال: «يقول -تعالى ذكره-: وقد سأل الآيات يا محمد مِن قَبْل قومك ثمود، فآتيناها ما سألت، وجعلنا تلك الآية ناقة مبصرة.. وقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ يقول ﷻ: فكان بها ظلمهم، وذلك أنهم قتلوها وعقروها، فكان ظلمهم بعقرها وقتلها، وقد قيل: معنى ذلك: فكفروا بها، ولا وجه لذلك إلا أن يقول قائله أراد: فكفروا باللَّه بقتلها، فيكون ذلك وجها.

وأما قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فإنه يقول: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفًا للعباد»[(٣)].

قال ابن عاشور: «والمعنى: أننا نعلم أنهم لا يؤمنون كما لم يؤمن من قبلهم من الكفرة لما جاءتهم أمثال تلك الآيات. فعلم الناس أن الإصْرار على الكفر سجية للمشرك لا يقلعها إظهار الآيات، فلو آمن الأولون عندما أظهرت لهم الآيات لكان

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٨٨-٨٩).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٠٧).

(٣) جامع البيان (١٥/ ١٠٨-١٠٩).

لهؤلاء أن يجعلوا إيمانهم موقوفًا على إيجاد الآيات التي سألوها. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾[1].

والأظهر أن هذا تثبيت لأفئدة المؤمنين لئلا يفتنهم الشيطان، وتسلية للنبي ﷺ لحرصه على إيمان قومه، فلعله يتمنى أن يجيبهم اللَّه لما سألوا من الآيات ولحزنه من أن يظنوه كاذبًا.

وجملة ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ في محل الحال من ضمير الجلالة في ﴿مَنَعَنَآ﴾، أي وقد آتينا ثمودًا آية كما سألوه فزادوا كفرًا بسببها حتى عجل لهم العذاب وخص بالذكر ثمود وآيتها لشهرة أمرهم بين العرب، ولأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من أهل مكة يبصرها صادرهم وواردهم في رحلاتهم بين مكة والشام»[2].

وقال: « ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ هذا بيان لحكمة أخرى في ترك إرسال الآيات إلى قريش، تشير إلى أن اللَّه تعالى أراد الإبقاء عليهم ليدخل منهم في الإسلام كثير، ويكون نشر الإسلام على يد كثير منهم.

وتلك مكرمة للنبي ﷺ، فلو أرسل اللَّه لهم الآيات كما سألوا مع أن جبلتهم العناد لأصروا على الكفر، فحقت عليهم سنّة اللَّه التي قد خلت في عباده، وهي الاستئصال عقب إظهار الآيات؛ لأن إظهار الآيات تخويف من العذاب، واللَّه أراد الإبقاء على هذه الأمة، قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[3] الآية، فعوضنا تخويفهم بدلًا عن إرسال الآيات التي اقترحوها»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن سؤال الآيات دلالة على العناد وعدم قبول الحق وإلا فأمر النبوة والرسالة واضح لكل عاقل وذي فطرة سليمة

* عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول اللَّه ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا، قال اللَّه ﷻ: إن شئت آتيناهم ما سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، وإن شئت نستأني بهم لعلنا ننتج منهم.

(١) يونس: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٣-١٤٤).
(٣) الأنفال: الآية (٣٣).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٤-١٤٥).

فقال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[(١)].

★ **غريب الحديث:**

فيزدرعوا: فيزرعوا.

نستأني: استفعال من أَنِيَ كرضي؛ أي: ننتظر ونتربص إلى أن يهديهم اللَّه ويوفقهم.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم اللَّه منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا، فقيل للرسول ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة»[(٢)].

قال القرطبي: « ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه خمسة أقوال:

الأول: العبر والمعجزات التي جعلها اللَّه على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذبين.

الثاني: أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصي.

الثالث: أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك، وهذا قول أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

الرابع: القرآن.

الخامس: الموت الذريع قاله الحسن»[(٣)].

وقال السعدي: «يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي اقترحها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوفًا من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها،

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٠/ ١١٢٩٠)، والحاكم (٢/ ٣٦٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٨٣).

عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها»[(١)].

* عن عائشة ﵂ قالت: قال: رسول اللَّه ﷺ: **«إن الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته. ولكنهما من آيات اللَّه يخوف اللَّه بهما عباده. فإذا رأيتم كسوفا فاذكروا اللَّه حتى ينجليا»**[(٢)].

★ فوائد الحديث:

قوله: «إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته. ولكنهما آيتان من آيات الله» قال الحافظ: «قوله: **«آيتان»** أي: علامتان **«من آيات الله»** أي: الدالة على وحدانية اللَّه وعظيم قدرته، أو على تخويف العباد من بأس اللَّه وسطوته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾»[(٣)].

قال النووي: «قال العلماء: والحكمة في هذا الكلام أن بعض الجاهلية الضلال كانوا يعظمون الشمس والقمر، فبين أنهما آيتان مخلوقتان لله تعالى لا صنع لهما، بل هما كسائر المخلوقات يطرأ عليهما النقص والتغير كغيرهما، وكان بعض الضلال من المنجمين وغيرهم يقول لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك، فبين أن هذا باطل لا يغتر بأقوالهم لا سيما وقد صادف موت إبراهيم ﵁»[(٤)].

قال ابن بطال: «قال المهلب: مصداق هذا الحديث في قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ يدل ذلك أن الآيات تحذير للعباد فينبغي عند نزولها مبادرة الصلاة والخشوع والإخلاص لله، واستشعار التوبة والإقلاع عن المعاصي، ألا ترى أنه ﷺ عرض عليه في مقامه الجنة والنار؛ ليتوعد بالنار أهل المعاصي، ويشوق بالجنة أهل الطاعة، وأخبرهم أن الكسوف ليس كما زعم الجهال أنه من أجل موت ابنه إبراهيم، وإنما هو تخويف وتحذير»[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٦٢٠-٦٢١/ ٩٠١)، وأبو داود (١/ ٦٩٥-٦٩٦/ ١١٧٧)، والنسائي (٣/ ١٤٧/ ١٤٦٩)، من طريق عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة.

(٣) الفتح (٢/ ٦٧١).

(٤) شرح مسلم (٥/ ١٧٨).

(٥) شرح ابن بطال (٣/ ٣٦-٣٧).

قال الحافظ: «قال ابن دقيق العيد: ربما يعتقد بعضهم أن الذي يذكره أهل الحساب ينافي قوله «**يخوف اللَّه بهما عباده**» وليس بشيء؛ لأن لله أفعالًا على حسب العادة، وأفعالًا خارجة عن ذلك، وقدرته حاكمة على كل سبب، فله أن يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض. وإذا ثبت ذلك فالعلماء باللَّه لقوة اعتقادهم في عموم قدرته على خرق العادة وأنه يفعل ما يشاء إذا وقع شيء غريب حدث عندهم الخوف لقوة ذلك الاعتقاد، وذلك لا يمنع أن يكون هناك أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء اللَّه خرقها. وحاصله أن الذي يذكره أهل الحساب إن كان حقا في نفس الأمر لا ينافي كون ذلك مخوفًا لعباد اللَّه تعالى»[١].

قال ابن تيمية: «الخسوف والكسوف لهما أوقات مقدرة كما لطلوع الهلال وقت مقدر، وذلك مما أجرى اللَّه عادته بالليل والنهار والشتاء والصيف، وسائر ما يتبع جريان الشمس والقمر، وذلك من آيات اللَّه تعالى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٨].

---

(١) فتح الباري (٢/ ٦٨٣).
(٢) الأنبياء: الآية (٣٣).
(٣) يونس: الآية (٥).
(٤) الرحمن: الآية (٥).
(٥) الأنعام: الآية (٩٦).
(٦) البقرة: الآية (١٨٩).
(٧) التوبة: الآية (٣٦).
(٨) يس: الآيات (٣٧-٤٠).

وكما أن العادة التي أجراها اللّه تعالى أن الهلال لا يستهل إلا ليلة ثلاثين من الشهر أو ليلة إحدى وثلاثين، وأن الشهر لا يكون إلا ثلاثين أو تسعة وعشرين، فمن ظن أن الشهر يكون أكثر من ذلك أو أقل فهو غالط، فكذلك أجرى اللّه العادة أن الشمس لا تكسف إلا وقت الاستسرار.

وأن القمر لا يخسف إلا وقت الإبدار، ووقت إبداره هي الليالي البيض التي يستحب صيام أيامها: ليلة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، فالقمر لا يخسف إلا في هذه الليالي، والهلال يستسر آخر الشهر إما ليلة وإما ليلتين كما يستسر ليلة تسع وعشرين وثلاثين.

والشمس لا تكسف إلا وقت استسراره.

وللشمس والقمر ليال معتادة، من عرفها عرف الكسوف والخسوف، كما أن من علم كم مضى من الشهر يعلم أن الهلال يطلع في الليلة الفلانية أو التي قبلها، لكن العلم بالعادة في الهلال، علم عام يشترك فيه جميع الناس وأما العلم بالعادة في الكسوف والخسوف، فإنما يعرفه من يعرف حساب جريانهما وليس خبر الحاسب بذلك من باب علم الغيب، ولا من باب ما يخبر به من الأحكام التي يكون كذبه فيها أعظم من صدقه، فإن ذلك قول بلا علم ثابت وبناء على غير أصل صحيح.. ومن قال من الفقهاء إن الشمس تكسف في غير وقت الاستسرار فقد غلط وقال ما ليس له به علم»[1].

وقال: «والعلم بوقت الكسوف والخسوف وإن كان ممكنا، لكن هذا المخبر المعين قد يكون عالما بذلك، وقد لا يكون، وقد يكون ثقة في خبره، وقد لا يكون.

وخبر المجهول الذي لا يوثق بعلمه وصدقه ولا يعرف كذبه موقوف، ولو أخبر مخبر بوقت الصلاة وهو مجهول لم يقبل خبره، ولكن إذا تواطأ خبر أهل الحساب على ذلك فلا يكادون يخطئون.

ومع هذا فلا يترتب على خبرهم علم شرعي، فإن صلاة الكسوف والخسوف لا تصلى إلا إذا شاهدنا ذلك، وإذا جوز الإنسان صدق المخبر بذلك أو غلب على

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

ظنه، فنوى أن يصلي الكسوف والخسوف عند ذلك، واستعد ذلك الوقت لرؤية ذلك، كان هذا حثا من باب المسارعة إلى طاعة اللَّه تعالى وعبادته، فإن الصلاة عند الكسوف متفق عليها بين المسلمين، وقد تواترت بها السنن عن النبي ﷺ ورواها أهل الصحيح والسنن، والمسانيد، من وجوه كثيرة.

واستفاض عنه أنه صلى بالمسلمين صلاة الكسوف يوم مات ابنه إبراهيم، وكان بعض الناس ظن أن كسوفها كان لأن إبراهيم مات، فخطبهم النبي ﷺ وقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فافزعوا إلى الصلاة**».

وفي رواية في الصحيح: «**ولكنهما آيتان من آيات اللَّه يخوف بهما عباده**».

وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب بالناس، فإن اللَّه إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم.

فلولا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف: أمر بالصلاة، والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق حتى يكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين في الكسوف صلاة طويلة»[1].

* * *

(١) الفتاوى الكبرى (١/ ٣٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ﴾. بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أخبر نبيه ﷺ أنه أحاط بالناس؛ أي: فهم في قبضته يفعل فيهم كيف يشاء فيسلط نبيه عليهم ويحفظه منهم.

قال بعض أهل العلم: ومن الآيات التي فصلت بعض التفصيل في هذه الإحاطة، قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ﴾[(٣)]. وفي هذا أن هذه الآية مكية، وبعض الآيات المذكورة مدني. أما آية القمر وهي قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ فلا إشكال في البيان بها لأنها مكية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ﴾، التحقيق في معنى هذه الآية الكريمة: أن اللَّه -جل وعلا- جعل ما أراه نبيه ﷺ من الغرائب والعجائب ليلة الإسراء والمعراج فتنة للناس؛ لأن عقول بعضهم ضاقت عن قبول ذلك، معتقدة أنه لا يمكن أن يكون حقًّا، قالوا: كيف يصلي ببيت المقدس، ويخترق السبع الطباق، ويرى ما رأى في ليلة واحدة، ويصبح في محله بمكة؟ هذا محال فكان هذا الأمر فتنة لهم لعدم تصديقهم به، واعتقادهم أنه لا يمكن، وأنه -جل وعلا- جعل الشجرة الملعونة في القرآن التي

---

(١) القمر: الآية (٤٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٢).

(٣) المائدة: الآية (٦٧).

هي شجرة الزقوم فتنة للناس؛ لأنهم لما سمعوه ﷺ يقرأ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾[1] قالوا: ظهر كذبه؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟ فصار ذلك فتنة. وبين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾[2]، وهو واضح كما ترى. وأشار في موضع آخر إلى الرؤيا التي جعلها فتنة لهم، وهو قوله: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[3].

وقد قدمنا إيضاح هذا في أول هذه السورة الكريمة. وبهذا التحقيق الذي ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن الرؤيا التي أراه اللَّه إياها هي رؤياه في المنام بني أمية على منبره، وإن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية لا يعول عليه. إذ لا أساس له من الصحة. والحديث الوارد بذلك ضعيف لا تقوم به حجة. وإنما وصف الشجرة باللعن لأنها في أصل النار، وأصل النار بعيد من رحمة اللَّه. واللعن: الإبعاد عن رحمة اللَّه، أو لخبث صفاتها التي وصفت بها في القرآن، أو للعن الذين يطعمونها. والعلم عند اللَّه تعالى»[4].

قال ابن جرير: «هذا حضّ من اللَّه -تعالى ذكره- نبيه محمدًا ﷺ، على تبليغ رسالته، وإعلام منه أنه قد تقدّم منه إليه القول بأنه سيمنعه، من كلّ من بغاه سوءا وهلاكا، يقول -جلّ ثناؤه-: واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس قدرة، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته، ونحن مانعوك منهم، فلا تتهيَّب منهم أحدًا، وامض لما أمرناك به من تبليغ رسالتنا»[5].

وقال: «وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم:

هو رؤيا عين، وهي ما رأى النبيّ ﷺ لما أُسري به من مكة إلى بيت المقدس. .

---

(١) الصافات: الآية (٦٤).
(٢) الصافات: الآيات (٦٢-٦٤).
(٣) النجم: الآيات (١٢-١٨).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٦٥-١٦٦).
(٥) جامع البيان (١٥/ ١٠٩).

وقال آخرون: هي رؤياه التي رأى أنه يدخل مكة..

وقال آخرون ممن قال: هي رؤيا منام: إنما كان رسول اللَّه ﷺ رأى في منامه قوما يعلون منبره..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى به رؤيا رسول اللَّه ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس، وبيت المقدس ليلة أُسري به، وقد ذكرنا بعض ذلك في أوّل هذه السورة.

وإنما قُلنا ذلك أولى بالصواب، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك، وإياه عنى اللَّه ﷻ بها، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس، إلا فتنة للناس: يقول: إلا بلاء للناس الذين ارتدّوا عن الإسلام، لمَّا أُخبروا بالرؤيا التي رآها، -عليه الصلاة والسلام- وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا بسماعهم ذلك من رسول اللَّه ﷺ تماديا في غيهم، وكفرا إلى كفرهم..

وأما قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا فيها، فقال بعضهم: هي شجرة الزَّقُّوم.. وقال آخرون: هي الكشوث.. وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال: عنى بها شجرة الزقوم، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، ونصبت الشجرة الملعونة عطفا بها على الرؤيا. فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فكانت فتنتهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداد من ارتدّ، وتمادِي أهل الشرك في شركهم، حين أخبرهم رسول اللَّه ﷺ بما أراه اللَّه في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أُسري به، وكانت فتنتهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه: يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل الشجر فكيف تنبت فيها؟

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ يقول: ونخوّف هؤلاء المشركين بما نتوعدهم من العقوبات والنكال، فما يزيدهم تخويفنا إلا طغيانًا كبيرًا، يقول: إلا تماديا وغيا كبيرا في كفرهم وذلك أنهم لما خُوّفوا بالنار التي طعامهم فيها الزقوم دعوا بالتمر والزبد، وقالوا: تزقموا من هذا»[1].

(١) جامع البيان (١٥/ ١١٠-١١٥).

قال السعدي: «والمعنى إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفا رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان خارقا للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضًا من الخوارق فهذا الذي أوجب لهم التكذيب. فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم اللَّه وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن؛ لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريبًا في قلوب بعض المؤمنين ومانعًا يمنع من لم يدخل الإسلام ومنفرًا عنه.

بل ذكر اللَّه ألفاظا عامة تتناول جميع ما يكون. واللَّه أعلم.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبته، وبغض الخير وعدم الانقياد له»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، قال: هي رؤيا عين، أريها رسول اللَّه ﷺ ليلة أسري به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ قال: هي شجرة الزقوم[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «لم يصرح بالمرئي، وعند سعيد بن منصور من طريق أبي مالك قال: هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس. وزاد في آخر الحديث: وليست رؤيا منام»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٩٣-٢٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢١) والبخاري (٨/ ٥٠٨/ ٤٧١٦)، والترمذي (٥/ ٢٨٢/ ٣١٣٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨١/ ١١٢٩٢).

(٣) أفاده ابن حجر في الفتح (٨/ ٥٠٨).

وقال: «قوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ قال: شجرة الزقوم، هذا هو الصحيح، وذكره ابن أبي حاتم عن بضعة عشر نفسا من التابعين»[1].

قال القرطبي: «وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن أبى نجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي ﷺ أنه أسري به. وقيل: كانت رؤيا نوم.

وهذه الآية تقضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها»[2].

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٥٠٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

★ غريب الآية:

لأحتنكن: عبارة عن تمكنه منهم بالوسوسة تمكن قائد الدابة الواضع اللجام في حنكها لتطيعه حيث يقودها، وقيل: هو من قولهم: احتنك الجراد الأرض: إذا استولى عليها بحنكه فاستأصلها أكلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: قوله تعالى في هذه الآية عن إبليس: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يدل فيه إنكار إبليس للسجود بهمزة الإنكار على إبائه واستكباره عن السجود لمخلوق من طين، وصرح بهذا الإباء والاستكبار في مواضع أخر؛ فصرح بهما معًا «في البقرة» في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] وصرح بإبائه «في الحجر» بقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2]، وباستكباره «في ص» بقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، وبين سبب استكباره بقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[4]»[5].

وقال: «قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن إبليس اللعين قال له ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أي أخبرني هذا الذي كرمته علي فأمرتني بالسجود له وهو

---

(١) البقرة: الآية (٣٤).
(٢) الحجر: الآية (٣١).
(٣) ص: الآية (٧٤).
(٤) ص: الآية (٧٦).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٦٦).

آدم. أي لم كرمته علي وأنا خير منه.. وهذا الذي ذكر -جل وعلا- عن إبليس في هذه الآية من قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، بينه أيضًا في مواضع أخر من كتابه؛ كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.. وقوله في هذه الآية ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بين المراد بهذا القليل في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4] كما تقدم إيضاحه.

وقول إبليس في هذه الآية. ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾. قاله ظنًا منه أنه سيقع وقد تحقق له هذا الظن. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]»[6].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد تمادي هؤلاء المشركين في غيهم وارتدادهم عتوًّا على ربهم بتخويفه إياهم تحقيقهم قول عدوّهم وعدوّ والدهم، حين أمره ربه بالسجود له فعصاه وأبى السجود له، حسدًا واستكبارًا ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وكيف صدّقوا ظنه فيهم، وخالفوا أمر ربهم وطاعته، واتبعوا أمر عدوّهم وعدوّ والدهم. ويعني بقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

واذكر إذ قلنا للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنه استكبر وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ يقول: لمن خلقته من طين؛ فلما حذفت «من» تعلّق به قوله ﴿خَلَقْتَ﴾ فنصب، يفتخر عليه الجاهل بأنه خُلِقَ من نار، وخلق آدم من طين.. وقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾؛ يقول -تعالى ذكره-: أرأيت هذا الذي كرّمته عليّ، فأمرتني بالسجود له، ويعني بذلك آدم ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أقسم عدوُّ اللَّه، فقال لربه: لئن أخرت إهلاكي إلى يوم القيامة ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول:

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٦-١٧).
(٢) ص: الآية (٨٢).
(٣) ص: الآيتان (٨٢-٨٣).
(٤) الحجر: الآيتان (٣٩-٤٠).
(٥) سبأ: الآية (٢٠).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٦٦-١٦٧).

لأستولين عليهم، ولأستأصلنهم، ولأستميلنهم»[١].

قال ابن عطية: «وقاس إبليس في هذه النازلة فأخطأ، وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه، من حيث رأى النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء، إنما تكون حيث خصصها اللَّه تعالى، ولا ينظر إلى أصولها

وكفر إبليس في أنْ جهِل صفة العدل من اللَّه تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحسد، ولذلك قيل: إن أول ما عُصي اللَّه بالحسد، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٢] حسبما ذكر اللَّه في آية أخرى»[٣].

قال ابن عاشور: «والمقصود من هذا هو تذكير النبي ﷺ بما لقي الأنبياء قبله من معاندة الأعداء والحسدة، من عهد آدم حين حسده إبليس على فضله؛ وأنهم لا يَعدمون مع ذلك معترفين بفضلهم وهم خيرة زمانهم كما كانت الملائكة نحو آدم عليه السلام، وأن كلا الفريقين في كل عصر يَمتّ إلى أحد الفريقين الذي في عهد آدم، فلفريق الملائكة المؤمنون ولفريق الشيطان الكافرون، كما أومأ إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾[٤] الآية، ففي ذلك تسلية للنبي -عليه الصلاة والسلام-. فأمْرُ اللَّه نبيئه بأن يذكر ذلك يتضمن تذكيره إياه به، وذكر النبي ذلك موعظةٌ للناس بحال الفريقين لينظر العاقل أين يضع نفسه»[٥].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ١١٦).

(٢) الأعراف: الآية (١٢).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٦٩).

(٤) الإسراء: الآية (٦٣).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

موفورًا: أي غير منقوص، يقال: وفرته أفِرُه وفرا فهو موفور؛ أي: لا تُنْقصون من جزائكم شيئًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «وهذا الوعيد الذي أوعد به إبليس ومن تبعه في هذه الآية الكريمة بينه أيضًا في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[(٢)] إلى غير ذلك من الآيات»[(٣)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال اللَّه لإبليس إذ قال له: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اذهب فقد أخرتك، فمن تبعك منهم، يعني من ذرّية آدم عليه السلام فأطاعك، فإن جهنم جزاؤك وجزاؤهم، يقول: ثوابك على دعائك إياهم على معصيتي، وثوابهم على اتباعهم إياك وخلافهم أمري ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾: يقول: ثوابًا مكثورًا مكمَّلًا»[(٤)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ هذا أمر إهانة؛ أي: اجهد جهدك فقد أنظرناك ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ أي أطاعك من ذرية آدم.

﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: وافرًا، عن مجاهد وغيره»[(٥)].

قال ابن كثير: «لما سأل إبليس عليه اللعنة النظرة قال اللَّه له: ﴿ٱذْهَبْ﴾ فقد

---

(١) ص: الآيتان (٨٤-٨٥).
(٢) الشعراء: الآيتان (٩٤-٩٥).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٦٨).
(٤) جامع البيان (١٥/ ١١٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٨٦-١٨٧).

أنظرتك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[١]، ثم أوعده ومن تَبِعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: على أعمالكم ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ قال مجاهد: وافرًا. وقال قتادة: مُوَفّرا عليكم، لا ينقص لكم منه»[٢].

* * *

(١) الحجر: الآيتان (٣٧-٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩١).

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

★ غريب الآية:

استفزز: الاستفزاز: الاستخفاف، واستفزني فلان: استخفني حتى خدعني لما يريده.

أجلب: أي: أجمع عليهم ما قدرت عليه من جندك ومكايدك، وأجلب عليه: توعده بالشر، وجمع عليه الجيش، وأجلب عليه: صاح عليه بقهر.

رَجلك: الرجْل والرجِل هو الماشي على قدميه، فهي بمعنى رجُل بالضم بمعنى: راجل، يقال: رجِل يرجَل إذا صار راجلا، وهو مفرد أريد به الجمع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «اعلم أن اللّه قد بين في آيات من كتابه بعض ما تضمنته هذه الآية من مشاركة الشيطان لهم في الأموال والأولاد، كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[1]، فقتلهم أولادهم المذكور في هذه الآية طاعةً للشيطان مشاركةٌ منه لهم في أولادهم حيث قتلوهم في طاعته. وكذلك تحريم بعض ما رزقهم اللّه المذكور في الآية طاعة له مشاركة منه لهم في أموالهم أيضًا. وكقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[2]، وكقوله: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ

(١) الأنعام: الآية (١٤٠).

(٢) الأنعام: الآية (١٣٦).

بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

وقال: «وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ بين فيه أن مواعيد الشيطان كلها غرور وباطل. كوعده لهم بأن الأصنام تشفع لهم وتقربهم عند اللَّه زلفى، وأن اللَّه لما جعل لهم المال والولد في الدنيا سيجعل لهم مثل ذلك في الآخرة، إلى غير ذلك من المواعيد الكاذبة.

وقد بين تعالى هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[5]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات»[7].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناه جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ فقال بعضهم: عنى به: صوت الغناء واللعب.. وقال آخرون: عنى به ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية اللَّه.. وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: إن اللَّه -تبارك وتعالى- قال لإبليس: واستفزز من ذرّية آدم من استطعت أن تستفزّه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته، وخلافا للدعاء إلى طاعة اللَّه، فهو داخل في معنى صوته الذي قال اللَّه -تبارك وتعالى- اسمه له ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[8].

---

(١) الأنعام: الآية (١٣٨).
(٢) يونس: الآية (٥٩).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٠).
(٤) النساء: الآية (١٢٠).
(٥) الحديد: الآية (١٤).
(٦) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٧) أضواء البيان (٣/ ١٧١).
(٨) قلت: للَّه در الإمام ابن جرير على هذا الفهم الطيب العميق، الذي جعل كل دعاء إلى باطل صوتًا من أصوات إبليس، سواء كان من أصوات الأغاني أو الأناشيد، أو سماع الصوفية، أو هرطقتهم بأقوالهم وأفعالهم، أو ترنم المبتدعة، أو قارئ دلائل الخيرات، أو بردة البوصيري أو همزيته، أو غيرها من القصائد، فلا شك أنها من أصوات إبليس، وأنها دعوة إلى الشرك الصريح وإلى البدعة المقيتة؛ كقول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم=

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: وأجمع عليهم من ركبان جندك ومُشاتهم من يجلب عليها بالدعاء إلى طاعتك، والصرف عن طاعتي.. وأما قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في المشاركة التي عنيت بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فقال بعضهم: هو أمره إياهم بإنفاق أموالهم في غير طاعة اللّه واكتسابهموها من غير حلها..

وقال آخرون: بل عُني بذلك كلّ ما كان من تحريم المشركين ما كانوا يحرّمون من الأنعام كالبحائر والسوائب ونحو ذلك..

وقال آخرون: بل عُني به ما كان المشركون يذبحونه لآلهتهم..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك كلّ مال عصي اللّه فيه بإنفاق في حرام أو اكتساب من حرام، أو ذبح للآلهة، أو تسييب، أو بحر للشيطان، وغير ذلك مما كان معصيا به أو فيه، وذلك أن اللّه قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ فكلّ ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصى اللّه فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض ذلك دون بعض.

وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ اختلف أهل التأويل في صفة شركته بني آدم في أولادهم، فقال بعضهم: شركته إياهم فيهم بزناهم بأمهاتهم..

وقال آخرون: عنى بذلك: وأدُهم أولادَهم وقتلهموهم..

= وقوله:

وإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقوله:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخلق الدنيا من العدم

وغيرها من الأبيات التي فيها من الغلو والشرك ما هو واضح. وكقول صاحب دلائل الخيرات: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ما سجعت الحمائم، وحمت الحوائم، وسرحت البهائم، ونفعت التمائم، وشدت العمائم، ونمت النوائم)، وقوله: (اللهم صل على محمد عدد ما أحاط به علمك وأضعاف ذلك)!! وغيرها من الكفريات الواضحة. وكتاب إحياء الغزالي مليء بمثل هذه الخزعبلات والضلالات، وقد بينتها في كتاب مستقل، وكذلك الشعراني في طبقاته، واليافعي في تاريخه، والدباغ في إبريزه...

والدعاة الذين استعملهم إبليس صوتًا له؛ لا حصر لهم، فلا كثرهم اللّه، نسأل اللّه السلامة والعافية من أن نكون صوتًا لإبليس في قولنا وفعلنا، فما أكثر أصوات إبليس! فهي كعدد الرمال، وقطرات البحار، وحصى الجبال، وورق الأشجار!

وقال آخرون: بل عنى بذلك: صبغهم إياهم في الكفر..

وقال آخرون: بل عنى بذلك تسميتهم أولادهم عبد الحرث وعبد شمس..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: كل ولد ولدته أنثى عصى اللَّه بتسميته ما يكرهه اللَّه، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه اللَّه، أو بالزنا بأمه، أو قتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى اللَّه بها بفعله به أو فيه، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك المولود له أو منه؛ لأن اللَّه لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكلّ ما عصى اللَّه فيه أو به، وأطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة من عصى اللَّه فيه أو به إبليس فيه.

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول -تعالى ذكره- لإبليس: وعد أتباعك من ذرّية آدم، النصرة على من أرادهم بسوء، يقول اللَّه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ لأنه لا يغني عنهم من عقاب اللَّه إذا نزل بهم شيئًا، فهم من عداته في باطل وخديعة، كما قال لهم عدو اللَّه حين حصحص الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ﴾(١)»(٢).

قال ابن عطية: «﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ عام: لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصرف في المعصية، هو خط إبليس، فمن ذلك البحائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي، وثمن الخمر، وحلوان الكاهن، والربا، وغير ذلك مما يوجد في الناس دأبًا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ عام لكل ما يصنع في أمر الذرية من المعاصي فمن ذلك الإيلاد بالزنا، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبد الجدي، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه. ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صنعهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه تحبل المرأة من الإنس

---

(١) إبراهيم: الآية (٢٢).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١١٨-١٢٢).

فضعيف كله. وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهِم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذه مشاركة في النفوس، ثم أخبر اللَّه تعالى أنه يعدهم ﴿غُرُورًا﴾ منه؛ لأنه لا يغني عنهم شيئًا»[1].

قال الرازي: «قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾، واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل، والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق، ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر البتة في فعله، ومع ذلك فإنه يفيد المنافع العظيمة، والتنفير عن الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة، إذا ثبت هذا فنقول: إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولًا أنه لا مضرة في فعله البتة، وذلك إنما يمكن إذا قال لا معاد ولا جنة ولا نار، ولا حياة بعد هذه الحياة، فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة البتة في فعل هذه المعاصي، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعًا من اللذة والسرور، ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به، فتفويتها غبن وخسران كما قال الشاعر:

خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ سُرُورٍ وَلَذَّةٍ   فَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولًا عنده أنه لا فائدة فيه وتقريره من وجهين؛ الأول: أن يقول لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب. والثاني: أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود فكانت عبثًا محضًا، فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الإنسان أنه لا فائدة فيها، وإذا فرغ عن هذا المقام قال إنها توجب التعب والمحنة، وذلك أعظم المضار، فهذه مجامع تلبيس الشيطان، فقوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ يتناول كل هذه الأقسام، قال المفسرون قوله: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي بأنه لا جنة ولا نار، وقال آخرون: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بتسويف التوبة، وقال آخرون ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالأماني الباطلة، مثل قوله لآدم: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[2]، وقال آخرون: وعدهم بشفاعة الأصنام عند اللَّه تعالى، وبالأنساب الشريفة، وإيثار العاجل على

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٧٠-٤٧١).

(٢) الأعراف: الآية (٢٠).

الآجل، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة، وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه»[١].

قال القاسمي: «وقد أشار القاشاني إلى أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان على أصناف. وعبارته: تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام؛ لأن الاستعدادات متفاوتة. فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه، أي استخفه بصوته، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولَمّة، ومن كان قوي الاستعداد، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات النفسانية، أو أخلصه اللّه تعالى عن شوائب الغيرية؛ فليس له إلى إغوائه سبيل، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[٢] وإلا فإن كان منغمسا في الشواغل الحسية، غارزا رأسه في الأمور الدنيوية، شاركه في أمواله وأولاده، بأن يحرضه على إشراكهم باللّه في المحبة، بحبهم كحب اللّه، ويسول له التمتع بهم، والتكاثر والتفاخر بوجودهم، ويمنّيه الأماني الكاذبة، ويزين عليه الآمال الفارغة، وإن لم ينغمس؛ فإن كان عالما بصيرا بتسويلاته، أجلب عليه بخيله ورجله، أي مكر به بأنواع الحيل، وكاده بصنوف الفتن، وأفتى له في تحصيل أنواع الحطام والملاذ بأنها من جملة مصالح المعاش، وغرَّه بالعلم وحمله على الإعجاب، وأمثال ذلك، حتى يصير ممن أضله اللّه على علم، وإن لم يكن عالما بل عابدا متنسكا، أغواه بالوعد والتمنية، وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون»[٣].

قال القرطبي: «في الآية ما يدل على تحريم المزامير والغناء واللهو، لقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التنزه عنه»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة إبليس وجنوده وأخطاره وطرق الوقاية منه

* عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: **«أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله: بسم اللّه، اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما في ذلك**

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٨-٩).

(٢) الإسراء: الآية (٦٥).

(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٢٤٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٨٨).

أو قضي ولد لم يضره شيطان أبدًا»[١] .

* عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته : **«ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبدا حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا»**[٢] .

⋆ غريب الحديث:

نحلته : أعطيته .

حنفاء : مسلمين .

اجتالتهم : أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل .

⋆ فوائد الحديثين:

قال الشنقيطي : «فاجتيال الشياطين لهم عن دينهم، وتحريمها عليهم ما أحل اللَّه لهم في الحديث الأول، وضرها لهم لو تركوا التسمية في الحديث الثاني، كل ذلك من أنواع مشاركتهم فيهم»[٣] .

قال السندي : «قوله : «لم يضره» لم يحمل هذا الحديث أحدهم على عموم الضرر لعموم ضرر الوسوسة للكل . . فقيل : لا يضره بالإغواء والإضلال بالكفر، وقيل : بالكبائر، وقيل : بالصرف عن التوبة إذا عصى، وقيل : أي يأمن مما يصيب الصبيان من جهة الجان، قيل : بل لا يكون للشيطان عليه سلطان، فيكون من المحفوظين، قال تعالى : ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[٤] والله أعلم»[٥] .

---

(١) أخرجه : أحمد (١/ ٢١٦-٢١٧، ٢٢٠، ٢٤٣، ٢٨٣)، والبخاري (٩/ ٢٨٤/ ٥١٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠٥٨/ ١٤٣٤)، وأبو داود (٢/ ٦١٧/ ٢١٦١)، والترمذي (٣/ ٤٠١/ ١٠٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٢٧/ ٩٠٣٠)، وابن ماجه (١/ ٦١٨/ ١٩١٩).

(٢) أخرجه : أحمد (٤/ ١٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٠).

(٤) الحجر : الآية (٤٢).

(٥) هامش المسند (٣/ ٣٦١-٣٦٢).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِر النبي ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال: **أشعرت أن اللَّه أفتاني فيما فيه شفائي؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا؟ قال: في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان**، فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: **نخلها كأنه رؤوس الشياطين**، فقلت: استخرجته؟ فقال: **لا، أما أنا فقد شفاني اللَّه، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًّا**، ثم دفنت البئر[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم -إذا هو نام- ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل، فارقد، فإن استيقظ فذكر اللَّه انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[2].

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: ذكر عند النبي ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: «**ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه**»، أو قال: «**في أذنه**»[3].

★ فوائد الأحاديث:

- تقدمت فوائد هذه الأحاديث عند قوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾[4] من سورة النساء.

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تبرز، وإذا غاب حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب، ولا تحينوا**

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣)، والبخاري (٦/ ٤١٢/ ٣٢٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧١٩-١٧٢٠/ ٢١٨٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٠/ ٧٦١٥) وابن ماجه (٢/ ١١٧٣/ ٣٥٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٣) والبخاري (٦/ ٤١٢-٤١٣/ ٣٢٦٩)، ومسلم (١/ ٥٣٨/ ٧٧٦)، وأبو داود (٢/ ٧٢-٧٣/ ١٣٠٦)، والنسائي (٣/ ٢٢٥/ ١٦٠٦)، وابن ماجه (١/ ٤٢١-٤٢٢/ ١٣٢٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٥)، والبخاري (٦/ ٤١٣/ ٣٢٧٠)، ومسلم (١/ ٥٣٧/ ٧٧٤)، والنسائي (٣/ ٢٢٥-٢٢٦/ ١٦٠٧)، وابن ماجه (١/ ٤٢٢/ ١٣٣٠).

(٤) النساء: الآية (١١٧).

بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بين قرني شيطان، أو الشيطان»[1].

⋆ غريب الحديث:

حاجب الشمس: وهو طرف قرصها الذي يبدو عند طلوع الشمس ويبقى عند الغروب.

ولا تحينوا: أي: لا تطلبوا حينها، والحين الوقت.

قرني الشيطان: أي: ناحيتي رأسه وجانبيه.

⋆ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «قوله: «**بين قرني الشيطان**» يتأول على وجوه، أحدها: أن الشيطان ينتصب في محاذاة مطلع الشمس، حتى إذا طلعت كانت بين فودي رأسه وهما قرناه؛ أي: جانبا رأسه، فتقع العبادة له إذا سجدت عبدة الشمس.

وقيل: إن قرن الشيطان: جمعه وأصحابه، وكل نشوء زمان قرن. وقيل: معنى القرن، القوة، من قولك: أنا مقرن لهذا الأمر؛ أي: مطيق له، قوي عليه، والقرون لذوات القرون كالأسلحة. يقول: إن الشمس تطلع حين قوة الشيطان واستحواذه على عبدة الشمس. وقيل: إن معنى القرن في هذا اقترانه بها، والوجه الأول أشبه لانتظامه معنى التثنية في القرنين»[2].

قال النووي: «وهذا -أي القول الأول- هو الأقوى. قالوا ومعناه أنه يدني رأسه إلى الشمس في هذه الأوقات ليكون الساجدون لها من الكفار كالساجدين له في الصورة، وحينئذ يكون له ولبنيه تسلط ظاهر وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم، فكرهت الصلاة حينئذ صيانة لها كما كرهت في الأماكن التي هي مأوى الشيطان»[3].

* عن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من**

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٤١٣/ ٣٢٤٢-٣٢٧٣)، ومسلم (١/ ٥٦٨/ ٨٢٩)، والنسائي (١/ ٣٠٢-٣٠٣/ ٥٧٠).
(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٥٠٨-١٥٠٩).
(٣) المنهاج (٦/ ٩٨).

خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ باللَّه ولينته»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «وجه هذا الحديث ومعناه ترك الفكر فيما يخطر بالقلب من وساوس الشيطان، والامتناع من قبولها واللياذ باللَّه ﷻ في الاستعاذة منه، والكف عن مجاراته في حديث النفس ومطاولته في المحاجة والمناظرة، والاشتغال بالجواب على ما يوجبه حق النظر في مثله لو كان المناظر عليه بشرًا، وكلمك في مثل هاك، فإن من ناظرك وتسمع كلامه ويسمع كلامك لا يمكنه أن يغالطك فيما يجري بينكما من الكلام حتى يخرجك من حدود النظر ورسوم الجدل، فإن باب السؤال والجواب وما يجري فيه من المعارضة والمناقضة معلوم، والأمر فيه محدود محصور، فإذا رعيت الطريقة وأصبت الحجة وألزمتها خصمك انقطع وكفيت مؤنته وحسمت شغبه.

وباب ما يوسوس به الشيطان إليك غير محدود ولا متناه؛ لأنك كلما ألزمته حجة، وأفسدت عليه مذهبا راغ إلى نوع آخر من الوساوس التي أعطي التسليط فيها عليك، فهو لا يزال يوسوس إليك حتى يؤديك إلى الحيرة والضلال، فأرشد النبي ﷺ عندما يعرض من وساوسه في هذا الباب إلى الاستعاذة باللَّه من شره، والانتهاء عن مراجعته، وحسم الباب فيه بالإعراض عنه، والاستعاذة بذكر اللَّه والاشتغال بأمر سواه، وهذا حيلة بليغة وجُنَّة حصينة يخزى معها الشيطان ويبطل كيده»[٢].

قال القرطبي: «وقوله «**فليستعذ باللَّه ولينته**» لما كانت هذه الوساوس من إلقاء الشيطان ولا قوة لأحد بدفعه إلا بمعونة اللَّه وكفايته أمر بالالتجاء إليه، والتعويل في دفع ضرره عليه، وذلك معنى الاستعاذة على ما يأتي، ثم عقب ذلك بالأمر بالانتهاء عن تلك الوساوس والخواطر؛ أي: عن الالتفات إليها والإصغاء نحوها، بل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣١) والبخاري (٦/ ٤١٣-٤١٤/ ٣٢٧٦)، ومسلم (١/ ١١٩/ ١٣٤)، وأبو داود (٥/ ٩١-٩٢/ ٤٧٢١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٠/ ١٠٤٩٩).

(٢) أعلام الحديث (٣/ ١٥١١-١٥١٢).

يعرض عنها، ولا يبالي بها، وليس ذلك نهيا عن إيقاع ما وقع منها، ولا عن ألا يقع منه؛ لأن ذلك ليس داخلا تحت الاختيار ولا الكسب، فلا يكلف به، والله أعلم»[١].

وقال: وقوله في الحديث الآخر: «قل آمنت بالله» أمر بتذكر الإيمان الشرعي واشتغال القلب به لتمحى تلك الشبهات، وتضمحل تلك الترهات. وهذه كلها أدوية للقلوب السليمة الصحيحة المستقيمة التي تعرض الترهات لها، ولا تمكث فيها، فإذا استعملت هذه الأدوية على نحو ما أمر به بقيت القلوب على صحتها، وانحفظت سلامتها، فأما القلوب التي تمكنت أمراض الشبه فيها، ولم تقدر على دفع ما حل بها بتلك الأدوية المذكورة فلابد من مشافهتها بالدليل العقلي، والبرهان القطعي»[٢].

* عن عائشة ﵂ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم»**[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال سليمان بن عبد الله: «قوله: «**فيكذب معها مائة كذبة**» أي يكذب الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألقاها إليه وَلِيُّه من الشياطين «**مائة كذبة**» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من الإنس، فما جاؤوا به على وجهه فهو صدق، وما خلط فيه فهو كذب، ومع هذا فيفتتن الإنس بالإنس الساحر والكاهن، ويفتتنان بوليهما من الشياطين، ويقبلون ما جاؤوا به من الصدق والكذب، لكونهم قد يَصْدُقون فيما يأتون به من خبر السماء»[٤].

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام: نزول الملائكة في

---

(١) المفهم (١/ ٣٤٥). (٢) المفهم (١/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٧)، والبخاري (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢١٠)، ومسلم (٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٦٧).

السحاب، وتحدثهم بما قضي في السماء من الأمر، واستراق الشياطين السمع بما يتكلم به الملائكة، وإلقاء الشياطين إلى الكهان ما سمعت، وكذب الشياطين بما لم تسمع، وإلقاء كذبهم إلى الكهان أيضًا»(١).

وقال: «وفيه دليل على قدرة الشياطين على الكذب، يؤخذ ذلك من قوله ﷺ: «**فيكذبون معها من عند أنفسهم مائة كذبة**»، ولا تكون الكذبات إلا مما يشاكل ذلك الأمر حتى يكون خروج ذلك الحق الذي سمعوه سببًا إلى تصديق كذبهم؛ لأنه إذا كان الكذب الذي كذبوه عن خلاف ذلك الحق بالحكمة، لا يكون عليه دليل قوي في تصديقهم عند كهانهم»(٢).

* عن عائشة ﵂ قالت: سألت النبي ﷺ عن التفات الرجل في الصلاة فقال: «**هو اختلاس يختلس الشيطان من صلاة أحدكم**»(٣).

★ غريب الحديث:

اختلاس: أي اختطاف بسرعة.

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «المعنى: أن المصلي إذا التفت يمينًا أو شمالًا يظفر به الشيطان في ذلك الوقت ويشغله عن العبادة، فربما يسهو أو يغلط لعدم حضور قلبه باشتغاله بغير المقصود، ولما كان هذا الفعل غير مرضي عنه نسب إلى الشيطان»(٤).

قال ابن القيم: «والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه فإنه قد قام في أعظم مقام، وأقربه وأغيظه للشيطان، وأشده عليه. فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه؛ بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام أقبل عدو اللَّه تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه،

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٢٢٤).

(٢) بهجة النفوس (٣/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٠) والبخاري (٦/ ٤١٦/ ٣٢٩١)، وأبو داود (١/ ٥٦٠/ ٩١٠) والترمذي (٢/ ٤٨٤/ ٥٩٠) والنسائي (٣/ ١٢/ ١١٩٥).

(٤) عمدة القاري (٤/ ٤٣٣).

فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله ﷻ، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال اللَّه تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه ﷻ الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تَخِفَّ عنه بالصلاة، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي اللَّه تعالى بقلبه وقالبه»[(١)].

قال ابن أبي جمرة: «وفيه دليل على أن كل ما يكون من الخلل في الصلاة أنه من تسويل الشيطان، يؤخذ ذلك من الحديث الذي قبل هذا مع هذا الحديث إذا جمع إليه؛ لأنه في الذي قبل شغله بالحديث حتى أنساه وهنا لم يتعرض له في الحديث، فكان أصل المكيدة خفية حتى أخبر بها الصادق ﷺ، فعلى هذا، فكل ما نجد في الصلاة من خلل نعلم أنه من العدو علمنا سببه أو لم نعلمه»[(٢)].

وقال: «وفيه دليل على أن من حصل له شيء من الأشياء حِسًّا كان أو معنى بحيلة غير محققة أنه يصدق عليه اسم مختلس، يؤخذ ذلك من كون الشيطان احتال على المصلي حتى وقع له الخلل في صلاته وهو مقصود العدو، فسماه سيدنا ﷺ مختلسا»[(٣)].

وقال: «وفيه دليل على كثرة لطف اللَّه -تبارك وتعالى- بنا، يؤخذ ذلك من إرسال هذا السيد ﷺ رسولا إلينا حتى يخبرنا بهذه الفوائد كلها، حتى نعرف كيف نحترز من عدونا، وكيف الخلاص من مكائده، جعلنا اللَّه ممن خلصه منها بفضله لا رب سواه»[(٤)].

* * *

---

(١) الوابل الصيب (ص: ٢٦-٢٧).

(٢) بهجة النفوس (٤/ ٣٠-٣١).

(٣) بهجة النفوس (٤/ ٣٠).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن عباده الصالحين لا سلطان للشيطان عليهم. فالظاهر أن في الآية الكريمة حذف الصفة كما قدرنا، ويدل على الصفة المحذوفة إضافته العباد إليه إضافة تشريف. وتدل لهذه الصفة المقدرة أيضًا آيات أخر؛ كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لإبليس: إن عبادي الذين أطاعوني، فاتبعوا أمري وعصوك يا إبليس، ليس لك عليهم حجة.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يقول -جلّ ثناؤه- لنبيّه محمد ﷺ: وكفاك يا محمد ربك حفيظًا، وقيمًا بأمرك، فانقد لأمره، وبلغ رسالاته هؤلاء المشركين، ولا تخف أحدًا، فإنه قد توكل بحفظك ونصرتك»[5].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الآية، قول من اللَّه تعالى لإبليس، وقوله: ﴿عِبَادِى﴾ يريد المؤمنين في الكفر، والمتقين في المعاصي، وخصهم باسم العباد، وإن كان اسمًا عامًا لجميع الخلق، من حيث قصد تشريفهم والتنويه بهم، كما يقول رجل لأحد بنيه إذا رأى منه ما يحب: هذا ابني، على معنى التنبيه

---

(١) الحجر: الآية (٤٠).

(٢) النحل: الآيتان (٩٩-١٠٠).

(٣) الحجر: الآية (٤٢).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١٧١).

(٥) جامع البيان (١٥/ ١٢٢).

منه والتشريف له. . والسلطان: الملكة والتغلب»[١].

قال الرازي: « ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ فيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة، وكان ذلك سببًا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ومعناه: أن الشيطان وإن كان قادرًا فاللَّه تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه.

البحث الثاني: هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه اللَّه تعالى، وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة؛ لأنه لو كان الإقدام على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه، لوجب أن يقال: وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان، فلما لم يقل ذلك بل قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ علمنا أن الكل من اللَّه، ولهذا قال المحققون: لا حول عن معصية اللَّه إلا بعصمة اللَّه، ولا قوة على طاعة اللَّه إلا بتوفيق الله»[٢].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٧١).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يزجي: أي: يسوق ويسير، وقيل: هو دفع الشيء لينساق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمشركين به: ربكم أيها القوم هو الذي يسير لكم السفن في البحر، فيحملكم فيها ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لتوصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجاراتكم ومطالبكم ومعايشكم، وتلتمسون من رزقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ يقول: إن اللّه كان بكم رحيمًا حين أجرى لكم الفلك في البحر، تسهيلًا منه بذلك عليكم التصرّف في طلب فضله في البلاد النائية التي لولا تسهيله ذلك لكم لصعب عليكم الوصول إليها»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم»[٢].

قال السعدي: «يذكر تعالى نعمته على العباد بما سخر لهم من الفلك والسفن والمراكب وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر الملتطم يحملها على ظهره لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده فإنه لم يزل بهم رحيمًا رؤوفًا يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم»[٣].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٩٨).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته، وقد ذكرنا أن المقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول عاد الكلام بعده إلى ذكر دلائل التوحيد، والمذكور ههنا الوجوه المستنبطة من الإنعامات في أحوال ركوب البحر.

فالنوع الأول: كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ والإزجاء سوق الشيء حالًا بعد حال، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله: ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾[1] والمعنى: ربكم الذي يسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله في طلب التجارة إنه كان بكم رحيمًا، والخطاب في قوله: ﴿رَّبُّكُمُ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ عام في حق الكل»[2].

* * *

(١) يوسف: الآية (٨٨).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ١١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة: أن الكفار إذا مسهم الضر في البحر؛ أي: اشتدت عليهم الريح فغشيتهم أمواج البحر كأنها الجبال، وظنوا أنهم لا خلاص لهم من ذلك ضل عنهم؛ أي: غاب عن أذهانهم وخواطرهم في ذلك الوقت كل ما كانوا يعبدون من دون اللَّه -جل وعلا-. فلا يدعون في ذلك الوقت إلا اللَّه -جل وعلا- وحده. لعلمهم أنه لا ينقذ من ذلك الكرب وغيره من الكروب إلا هو وحده -جل وعلا-، فأخلصوا العبادة والدعاء له وحده في ذلك الحين الذي أحاط بهم فيه هول البحر، فإذا نجاهم اللَّه وفرج عنهم، ووصلوا البر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

وهذا المعنى المذكور في هذه الآية الكريمة أوضحه اللَّه -جل وعلا- في آيات كثيرة. كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]، وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا

(١) يونس: الآيتان (٢٢-٢٣).
(٢) الأنعام: الآيتان (٦٣-٦٤).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٥).

نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[١]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا نالتكم الشدّة والجهد في البحر ضلّ من تدعون: يقول: فقدتّم من تدعون من دون اللَّه من الأنداد والآلهة، وجار عن طريقكم فلم يغثكم، ولم تجدوا غير اللَّه مغيثًا يغيثكم دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد، والبراءة من الآلهة، وإفراده بالألوهة كفرا منكم بنعمته ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ يقول: وكان الإنسان ذا جحد لنعم ربه»[٤].

قال السعدي: «ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون اللَّه في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات، لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات، الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف اللَّه عنهم الضر ونجاهم إلى البر ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم، وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى اللَّه فمن عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى الصراط المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف الشدائد وينجي من الأهوال هو الذي يستحق أن يفرد، وتخلص له سائر الأعمال في الشدة والرخاء واليسر والعسر.

وأما من خذل ووكل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة وإنجاءه في تلك الحال. فلما حصلت له النجاة وزالت عنه المشقة ظن

---

(١) لقمان: الآية (٣٢).

(٢) الزمر: الآية (٨).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧١-١٧٢).

(٤) جامع البيان (١٥/ ١٢٣).

بجهله أنه قد أعجز اللَّه، ولم يخطر بقلبه شيء من العواقب الدنيوية فضلا عن أمور الآخرة»[١].

قال الشنقيطي: «لا يخفى على الناظر في هذه الآية الكريمة: أن اللَّه ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصة يخلصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئًا من حقه لمخلوق. وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيره في حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة، ويعلم من ذلك أن بعض جهلة المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالًا من عبدة الأوثان. فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأهوال والكروب التجؤوا إلى غير اللَّه ممن يعتقدون فيه الصلاح. في الوقت الذي يخلص فيه الكفار العبادة لله. مع أن اللَّه -جل وعلا- أوضح في غير موضع: أن إجابة المضطر، وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره.

ومن أوضح الأدلة في ذلك قوله تعالى «في سورة النمل»: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[٢].. الآيات، فتراه -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمات جعل إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء عنه من حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد. كخلقه السموات والأرض، وإنزاله الماء من السماء، وإنباته به الشجر، وجعله الأرض قرارًا، وجعله خلالها أنهارًا، وجعله لها رواسي، وجعله بين البحرين حاجزًا، إلى آخر ما ذكر في هذه الآيات من غرائب صنعه وعجائبه التي لا يشاركه فيها أحد. ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢٩٨-٣٠٠).
(٢) النمل: الآيات (٥٩-٦٢).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يخسف: الخسف الخرق، وهو أن تنهار الأرض بالشيء، يقال: خسفه اللَّه وخَسَفَ به.

حاصبًا: هي الريح القوية التي تقلع الحصباء، وهي صغار الحصى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «إن اللَّه -جل وعلا- بين في هذا الموضع الذي نحن بصدده سخافة عقول الكفار، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب اللَّه. مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر، بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر فتبتلعهم الأرض، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم، أو يعيدهم مرة أخرى في البحر فتغرقهم أمواجه المتلاطمة. كما قال هنا منكرًا عليهم أمنهم وكفرهم بعد وصول البر ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾..

وهذا المعنى الذي بينه -جل وعلا- هنا من قدرته على إهلاكهم في غير البحر بخسف أو عذاب من السماء، أوضحه في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] الآية، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[2] الآية، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[3]، وقوله في قوم لوط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم

---

(١) سبأ: الآية (٩).
(٢) الأنعام: الآية (٦٥).
(٣) الملك: الآيتان (١٦-١٧).

بِسَحَرٍ﴾[١]، وقوله: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه! ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذي فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾[٤]، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٥]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[٦].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه»[٧].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، وعظيم ما كنتم قد أشرفتم عليه من الهلاك، فلما نجاكم وصرتم إلى البرّ كفرتم، وأشركتم في عبادته غيره ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ يعني: ناحية البر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يقول: أو يمطركم حجارة من السماء تقتلكم، كما فعل بقوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة عنكم من عذابه وما يمنعكم منه»[٨].

قال الرازي: «وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم كانوا خائفين من هول البحر، فلما نجاهم منه أمنوا، فقال: هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر؟ فإنه تعالى قادر على أن يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق، أما من جانب التحت فبالخسف. وأما من جانب الفوق فبإمطار الحجارة عليهم، وهو المراد من قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ فكما لا يتضرعون إلا إلى اللَّه تعالى عند ركوب البحر، فكذلك يجب أن لا يتضرعوا إلا إليه في كل الأحوال»[٩].

---

(١) القمر: الآية (٣٤).
(٢) الذاريات: الآية (٣٣).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٢-١٧٣).
(٤) القمر: الآية (٣٤).
(٥) الحجر: الآية (٧٤).
(٦) الملك: الآيتان (١٦-١٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٤).
(٨) جامع البيان (١٥/ ١٢٣).
(٩) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قاصفًا: هو الذي إذا مر على شيء قصفه وكسره من بناء وشجر وغير ذلك.

تبيعًا: التبيع: المطالب بحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها.

وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيرًا. وقال مجاهد: نصيرًا ثائرًا؛ أي: يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحدًا يتبعنا بشيء من ذلك»[1].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٤).

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾

⋆ غريب الآية:

كرَّمنا: أي جعلنا لهم كرمًا؛ أي: شرفا وفضلًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. قال بعض أهل العلم: من تكريمه لبني آدم خلقه لهم على أكمل الهيئات وأحسنها. فإن الإنسان يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه. وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه.

ومما يدل لهذا من القرآن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(١)، وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(٢)، وفي الآية كلام غير هذا. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: في البر على الأنعام، وفي البحر على السفن.

والآيات الموضحة لذلك كثيرة جدًّا. كقوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾(٤)»(٥).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بتسليطنا إياهم على غيرهم من الخلق، وتسخيرنا سائر الخلق لهم ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدوابّ والمراكب ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ في الفلك التي سخرناها لهم ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يقول: من طيبات المطاعم والمشارب، وهي حلالها ولذيذاتها ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

---

(١) التين: الآية (٤).
(٢) التغابن: الآية (٣).
(٣) المؤمنون: الآية (٢٢).
(٤) الزخرف: الآية (١٢).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٧٥).

﴿كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ذكر لنا أن ذلك تمكنهم من العمل بأيديهم، وأخذ الأطعمة والأشربة بها ورفعها بها إلى أفواههم، وذلك غير متيسر لغيرهم من الخلق»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢] أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه -وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه- وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي «البحر» أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات»[٣].

قال الرازي: «ومن تمام كرامته على الله تعالى أنه تعالى لما خلقه في أول الأمر وصف نفسه بأنه أكرم، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾[٤]، ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للإنسان فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ووصف نفسه بالكرم في آخر أحوال الإنسان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[٥]، وهذا يدل على أنه لا نهاية لكرم الله تعالى ولفضله وإحسانه مع الإنسان. والله أعلم»[٦].

قال القرطبي: «لما ذكر من الترهيب ما ذكر بيّن النعمة عليهم أيضًا.. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٢٥).
(٢) التين: الآية (٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٤-٩٥).
(٤) العلق: الآيات (١-٤).
(٥) الانفطار: الآية (٦).
(٦) مفاتيح الغيب (٢١/ ١٦).

امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة. وغاية كل حيوان يأكل لحمًا نيئًا أو طعامًا غير مركب.

وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم. وروي عن ابن عباس، ذكره المهدوي والنحاس، وهو قول الكلبي ومقاتل، ذكره الماوردي. وقال الضحاك: كرمهم بالنطق والتمييز. وقال عطاء: كرمهم بتعديل القامة وامتدادها. وقال يمان: بحسن الصورة. وقال محمد بن كعب: بأن جعل محمدًا ﷺ منهم.

وقيل: أكرم الرجال باللحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبري: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم. وقيل: بالكلام والخط. وقيل: بالفهم والتمييز. والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف اللَّه ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب.

فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء. وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض.

وقد جعل اللَّه في بعض الحيْوان خصالًا يفضل بها ابن آدم أيضًا، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه واللَّه أعلم»[1].

قال ابن عاشور: «قد جمعت الآية خمس مِنن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

فأما منة التكريم فهي مزية خص بها اللَّه بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية. والتكريم: جعله كريمًا، أي نفيسًا غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٩٠-١٩١).

حركة مشيه وفي بشرته، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة ولا اللباس، ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره، ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها، والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع، وعن قبول التطور في أساليب حياته وحضارته. وقد مثل ابن عباس للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه، يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه، بل برفعه إلى فيه بيده، ولا يكرع في الماء بل يرفعه إلى فيه بيده، فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقَدَح، فذلك من زيادة التكريم وهو تناول باليد.

والحمل: الوضع على المركب من الرواحل. فالراكب محمول على المركوب. وأصله في ركوب البر، وذلك بأن سخر لهم الرواحل وألهمهم استعمالها. وأما الحمل في البحر فهو الحصول في داخل السفينة. . ومعنى حمل اللَّه الناس في البحر: إلهامه إياهم استعمال السفن والقلوع والمجاذيف، فجعل تيسير ذلك كالحمل.

وأما الرزق من الطيبات فلأن اللَّه تعالى ألهم الإنسان أن يطعَم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات أكثر جدًّا مما يتناوله غيره من الحيوان الذي لا يأكل إلا أشياء اعتادها، على أن أقرب الحيوان إلى الإنسية والحضارة أكثرها اتساعًا في تناول الطعوم.

وأما التفضيل على كثير من المخلوقات، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع الامتنان. وذلك الذي جِماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحيلته، وكفى بذلك تفضيلًا على البقية.

والفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشريفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شؤونه، ودفع الأضرار عنه، وبأنواع المعارف والعلوم، هذا هو التفضيل المراد.

وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان وأنواع من الموجودات الخفية عنا كالملائكة والجن؛ فليست بمقصودة هنا، وإنما تعرف بأدلة توقيفية من قِبل

الشريعة. فلا تفرض هنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة المختلف في تفاصيلها بيننا وبين المعتزلة. وقد فرضها الزمخشري هنا على عادته من التحكك على أهل السنّة، والتعسف لإرغام القرآن على تأييد مذهبه، وقد تجاوز حد الأدب في هذه المسألة في هذا المقام، فاستوجب الغضاضة والملام.

ولا شك أن إقحام لفظ ﴿كَثِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مراد منه التقييد والاحتراز والتعليم الذي لا غرور فيه، فيعلم منه أن ثَم مخلوقات غير مفضل عليها بنو آدم، تكون مساوية أو أفضل إجمالًا أو تفصيلًا، وتبيينه يُتلقى من الشريعة فيما بينته من ذلك، وما سكتت فلا نبحث عنه»[١].

قال القرطبي: «هذه الآية ترد ما روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت قال رسول اللَّه ﷺ: «**احرموا أنفسكم طيب الطعام فإنما قوي الشيطان أن يجري في العروق منها**»[٢].

وبه يستدل كثير من الصوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأن القرآن يرده، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرر في غير موضع. وقد حكى أبو حامد الطوسي قال: كان سهل يقتات من ورق النبق مدة.

وأكل دقاق ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم ابن البنا قال: صحبت ذا النون من إخميم إلى الإسكندرية، فلما كان وقت إفطاره أخرجت قرصًا وملحًا كان معي، وقلت: هلم.

فقال لي: ملحك مدقوق؟ قلت نعم. قال: لست تفلح! فنظرت إلى مزوده وإذا فيه قليل سويق شعير يسف منه. وقال أبو يزيد: ما أكلت شيئًا مما يأكله بنو آدم أربعين سنة.

قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حمل النفس عليه؛ لأن اللَّه تعالى أكرم الآدمي بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصح مزاحمة الدواب في أكل التبن، وأما سويق الشعير فإنه يورث القولنج، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجريش فإنه ينحرف مزاجه؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف، والملح يابس قابض

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) حديث موضوع؛ انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤/ ٣٥٧) للشيخ الألباني.

يضر الدماغ والبصر. وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فمنعت فقد قوومت حكمة الباري سبحانه بردها، ثم يؤثر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفا للشرع والعقل.

ومعلوم أن البدن مطية الآدمي، ومتى لم يرفق بالمطية لم تبلغ.

وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبز حواري، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرجال. وكان الثوري يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة والأعراف وغيرهما.

والأول غلو في الدين إن صح عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[1]»[2].

قلت: هذا المنهاج القديم الذي حكاه القرطبي عن الصوفية؛ بسطه أبو حامد في إحيائه، وركز عليه، وهو منهاج مستورد عن شذاذ الهنود، وبعض النصارى، والذين انحرفوا بسياحتهم في البراري والكهوف، وزعم الصوفية أن هذا أدب ورياضة في الوصول إلى ما يسمى بالكشف وإزالة الحجب! وهو مخالف لنصوص القرآن ونصوص السنن؛ فإن اللَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[3]، وقال ﷺ: «**إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا**»[4]، وأكل رسول اللَّه ﷺ الشواء، وشرب العسل، وجاء إبراهيم عليه السلام لأضيافه بعجل حنيذ، وذكر اللَّه ذلك على سبيل المدح، فالمسلم حسب واقعه وما أعطاه اللَّه إياه، فإن وجد خيرًا حمد اللَّه وأثنى عليه، وإن أصيب بقلةٍ صَبَرَ واسترجع، وحوقل، وسبح، وحمد. وصلى اللَّه على من قال: «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير سرف ولا مخيلة**»[5].

---

(١) الحديد: الآية (٢٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٩١-١٩٢).

(٣) البقرة: الآية (١٧٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٨)، ومسلم (٢/ ٧٠٣/ ١٠١٥)، والترمذي (٥/ ٢٠٥/ ٢٩٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١)، والبخاري (١٠/ ٣١٠) أول كتاب اللباس معلقًا، والنسائي (٥/ ٨٣/ ٢٥٥٨)، وابن ماجه ٢/ ١١٩٢/ ٣٦٠٥)، والحاكم (٤/ ١٣٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي. كلهم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

فلله العجب كيف تنكب هؤلاء نصوص الكتاب والسنة! وزعموا لأنفسهم الورع والصلاح، فإن صح عنهم ما قيل فقد فاقوا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين هم خير خلقه وخير عباده، فإن كان الاقتداء فبِهِم، وإلا فالهلاك والانحراف، واللَّه المستعان.

قال أبو السعود: « ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا فحق عليهم أن يشكروا هذه النعمَ ولا يكفروها، ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائدِ الحقّةِ، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي لا يقبله أحدٌ ممن له أدنى تمييزٍ»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٨٦).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾. قال بعض العلماء: المراد «بإمامهم» هنا كتاب أعمالهم؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾[4]، واختار هذا القول ابن كثير. لدلالة آية «يس» المذكورة عليه. وهذا القول رواية عن ابن عباس ذكرها ابن جرير وغيره، وعزاه ابن كثير لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن. وعن قتادة ومجاهد: أن المراد «بإمامهم» نبيهم.

ويدل لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[6]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[7]، وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾[8].. الآية.

قال بعض السلف: وفي هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ.

وقال بعض أهل العلم: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من

---

(١) يس: الآية (١٢).
(٢) الجاثية: الآية (٢٨).
(٣) الكهف: الآية (٤٩).
(٤) الإسراء: الآية (١٣).
(٥) يونس: الآية (٤٧).
(٦) النساء: الآية (٤١).
(٧) النحل: الآية (٨٩).
(٨) الزمر: الآية (٦٩).

التشريع. وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقال بعض أهل العلم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي ندعو كل قوم بمن يأتمون به؛ فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم-، وأهل الكفر أئمتهم سادتهم وكبراؤهم من رؤساء الكفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[1] وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله تعالى.

فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية، وما يشهد لها من قرآن. وقوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال.

وذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يقرؤونه ولا يظلمون فتيلًا.

وقد أوضح هذا في مواضع أخر، كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[2]، إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «يخبر -تبارك وتعالى- عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم.

وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم، وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[5]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبي ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، من التشريع.

واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد أنه قال: بكتبهم، فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية،

---

(١) القصص: الآية (٤١).

(٢) الحاقة: الآية (١٩).

(٣) الحاقة: الآية (٢٥).

(٤) أضواء البيان (٥/ ١٧٥-١٧٦).

(٥) يونس: الآية (٤٧).

والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهدا عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾[4]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[5]..

ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾[6]»[7].

قال السعدي: «وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، هل عملت به أم لا؟

وأنهم لا يؤاخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ومخالفته لها. وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم، ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك؛ لأنهم لا يقدرون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم»[8].

(١) يس: الآية (١٢).
(٢) الكهف: الآية (٤٩).
(٣) الجاثية: الآيتان (٢٨-٢٩).
(٤) الزمر: الآية (٦٩).
(٥) النساء: الآية (٤١).
(٦) الحاقة: الآيات (١٩-٢٦).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٦).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٢-٣٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: المراد بالعمى في هذه الآية الكريمة: عمى القلب لا عمى العين. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[1] لأن عمى العين مع إبصار القلب لا يضر، بخلاف العكس. فإن أعمى العين يتذكر فتنفعه الذكرى ببصيرة قلبه، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾[2]»[3].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أشير إليه بقوله ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾، فقال بعضهم: أشير بذلك إلى النعم التي عدّدها -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ فقال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن قُدرة اللَّه فيها وحججه، فهو في الآخرة أعمى..

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج اللَّه على أنه المنفرد بخلقها وتدبيرها، وتصريف ما فيها، فهو في أمر الآخرة التي لم يرها ولم يعاينها، وفيما هو كائن فيها أعمى وأضلّ سبيلًا يقول: وأضلّ طريقا منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها.

وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاته بالصواب؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- لم يخصص

---

(١) الحج: الآية (٤٦).

(٢) عبس: الآيات (١-٤).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٦-١٧٧).

في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عمى الكافر به عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجه ذلك إلى عماه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم، وحمله إياهم في البرّ والبحر، وما عدد في الآية التي ذكر فيها نعمه عليهم، بل عمّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهم كما عمّ -تعالى ذكره-»[1].

قال ابن عاشور: «ووجه كون ضلاله في الآخرة أشد، أن ضلاله في الدنيا كان في مُكنته أن ينجو منه بطلب ما يرشده إلى السبيل الموصل من هدي الرسول والقرآن مع كونه خليًا عن لحاق الألم به، وأما ضلاله في الآخرة فهو ضلال لا خلاصَ منه، وهو مقارن للعذاب الدائم، فلا جرم كان ضلاله في الآخرة أدخل في حقيقة الضلال وماهيته»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ١٢٧-١٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ١٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

★ غريب الآية:

لَيَفْتِنُونَكَ: ليزيلونك، وقيل: ليصرفونك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «معنى الآية الكريمة: أن الكفار كادوا يفتنونه، أي قاربوا ذلك. ومعنى يفتنونك: يزلونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره مما لم نوحه إليك.

قال بعض أهل العلم: قاربوا ذلك في ظنهم لا فيما في نفس الأمر. وقيل: معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم.

وبين في موضع آخر: أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحي إليه، وأنه امتنع أشد الامتناع وقال لهم: إنه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه. بل يتبع ما أوحي إليه ربه، وذلك في قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]»[2].

قال ابن جرير: «إن اللَّه -تعالى ذكره- أخبر عن نبيّه ﷺ، أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه اللَّه إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على اللَّه، وجائز أن يكون ذلك كان ما ذكر عنهم من ذكر أنهم دعوه أن يمسّ آلهتهم، ويلمّ بها، وجائز أن يكون كان ذلك ما ذُكر عن ابن عباس من أمر ثقيف، ومسألتهم إياه ما سألوه مما

(١) يونس: الآية (١٥).

(٢) أضواء البيان (٣/ ١٧٨).

ذكرنا، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في خبر يقطع العذر أيّ ذلك كان، والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا، فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره، حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عُني بذلك منه.

وقوله: ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ولو فعلت ما دَعَوْك إليه من الفتنة عن الذي أوحينا إليك لاتخذوك إذا لأنفسهم خليلًا، وكنت لهم وكانوا لك أولياء»[1].

قال السعدي: «يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا﴾ أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على اللَّه غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل اللَّه إليك.

﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ما يهوون ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي حبيبًا صفيًا، أعز عليهم من أحبابهم، لما جبلك اللَّه عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحببة للقريب والبعيد، والصديق والعدو.

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به لا لذاتك، كما قال اللَّه تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2]»[3].

قلت: هذه الآية وما فهمه أهل العلم منها في النبي ﷺ وأن اللَّه صانه من أن يلتفت إلى الكفرة والمشركين فيوافقهم على بعض ما يريدون؛ هو منهاج مستمر في النبي وغيره، فما من أحد إلا وتجد له مخالفين يراودونه عن أن يتنازل عما هو عليه من الحق ويوافقهم فيما هم فيه من الباطل، بداية من الصحابة، ومرورًا بكل عالم في كل عصر ممن هو على الكتاب والسنة. ولو قرأت تراجمهم لوجدت من ذلك أمثلة كثيرة، فالإمام أحمد لم يطلب منه أكثر من أن يقول بخلق القرآن، ولو قالها

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٣٠-١٣١).

(٢) الأنعام: الآية (٣٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٣-٣٠٤).

لكان رأسًا عند الخليفة المأمون يبجل ويكرم، ويكون أقرب إليه من أحمد بن أبي دؤاد ومن كان في صفه، ولكن اللَّه ثبته وجعل الحق على لسانه، وأصبح هذا الموقف من أعظم مناقبه التي يذكر بها. وكذلك الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فمن قرأ مجالسه ومناظراته؛ لوجد فيه مثالًا لما ذكر؛ فإنه طلب منه موافقة معاصرين من أهل الباطل من صوفية وأشعرية، فرفض وثبته اللَّه. والأمثلة بفضل اللَّه كثيرة جدًّا. فنرجو اللَّه أن يثبتنا وأن لا يزيغ قلوبنا وأعمالنا.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

★غريب الآية:

تَرْكَنُ: تميل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة تثبيته لنبيه ﷺ، وعصمته له من الركون إلى الكفار. وأنه لو ركن إليهم لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات؛ أي: مثلي عذاب الحياة في الدنيا ومثلي عذاب الممات في الآخرة. وبهذا جزم القرطبي في تفسيره. وقال بعضهم: المراد بضعف عذاب الممات: العذاب المضاعف في القبر، والمراد بضعف الحياة: العذاب المضاعف في الآخرة بعد حياة البعث. وبهذا جزم الزمخشري وغيره. والآية تشمل الجميع، وهذا الذي ذكره هنا من شدة الجزاء لنبيه لو خالف، بيّنه في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1].

وهذا الذي دلت عليه هذه الآية من أنه إذا كانت الدرجة أعلى، كان الجزاء عند المخالفة أعظم، بينه في موضع آخر؛ كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[2].

ولقد أجاد من قال:

وَكَبَائِرُ الرَّجُلِ الصَّغِيرِ صَغَائِرٌ وَصَغَائِرُ الرَّجُلِ الكَبِيرِ كَبَائِرُ»[3].

---

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٦).

(٢) الأحزاب: الآية (٣٠).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٧٩).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تأييد رسوله -صلوات اللَّه عليه وسلامه-، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليما كثيرًا إلى يوم الدين»[١].

قال ابن عطية: «ورسول اللَّه ﷺ لم يركن، لكنه كاد بحسب همه بموافقتهم طمعًا منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت، ونحو هذا ذهب في ذلك إلى نفي الهم بذلك عن النبي ﷺ، فحمل اللفظ ما لا يحتمل، وقوله: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك، وهذا الهم من النبي ﷺ إنما كانت خطرة مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل ﴿كِدتَّ﴾، وهي تعطي أنه لم يقع ركون، ثم قيل ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ إذ كانت المقاربة التي تتضمنها ﴿كِدتَّ﴾ قليلة، خطرة لم تتأكد في النفس، وهذا الهمّ هو كهمّ يوسف ﷺ، والقول فيهما واحد»[٢].

قال السعدي: « ﴿وَ﴾ مع هذا فـ ﴿لَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق، وامتنناعليك بعدم الإجابة لداعيهم، ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهدايتهم.

﴿إِذًا﴾ لو ركنت إليهم بما يهوون ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لأصبناك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة اللَّه عليك، وكمال معرفتك.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينقذك مما يحل بك من العذاب، ولكن اللَّه تعالى عصمك من أسباب الشر ومن الشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة وأبلغ منحة»[٣].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءة نبينا ﷺ من مقاربة الركون إلى الكفار، فضلًا عن نفس الركون؛ لأن «لولا» حرف امتناع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٧٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٤).

لوجود. فمقاربة الركون منعتها «لولا» الامتناعية لوجود التثبيت من اللَّه -جل وعلا- لأكرم خلقه ﷺ. فصح يقينًا انتفاء مقاربة الركون فضلًا عن الركون نفسه. وهذه الآية تبين ما قبلها، وأنه لم يقارب الركون إليهم البتة؛ لأن قوله: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾؛ أي: قاربت تركن إليهم، هو عين الممنوع بـ«لولا» الامتناعية كما ترى. ومعنى ﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾: تميل إليهم»[1].

قال القاسمي: «جاء في حواشي جامع البيان ما مثاله بالحرف: من الفوائد الجليلة في هذه الآية أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون اللَّه، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض، مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شرك عندها وبها، فإن اللات -على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد- رجل كان يلت لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه، ولم يقولوا: إن اللات خلقت السموات والأرض، بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها والشرك بها والتمسح بها، وتقبيلها واستلامها، وما طلبوا من رسول اللَّه ﷺ إلا مجرد مس آلهتهم، كما قالوا: نؤمن بك إن تمس آلهتنا، وما التمسوا منه إلا التمتيع باللات سنة من غير عبادة، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان، فإنهم لم يدعوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه بالقبور، فإنا لله وإنا إليه راجعون، بل كثير منهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف باللَّه فاجرا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك أو بمعتقدك الولي الفلاني تلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين، ويا ملوك المسلمين أي رزء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧٩).

عبادة غير اللّه، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبا، فاللهم انصر من نصر الحق، واهدنا إلى سواء السبيل»[1].

قلت: ما ذكره القاسمي من وصف لعباد القبور في وقته وفي وقتنا، ومقارنته ذلك باللات والعزى ومناة؛ قد أصاب فيه كبد الحقيقة؛ فعباد القبور في وقته ووقتنا فاقوا في شركهم شرك عباد اللات والعزى، وعلماء السوء الذين انتسبوا إلى العلم، ومعهم بعض الأمراء وحكام الوقت الذين انتسبوا إلى الإسلام وإلى حكم الأمة به؛ يرون ذلك ويشاهدونه، وربما يشاركونهم! وربما يبنون تلك المشاهد، وينفقون الأموال الباهظة على قيامها، وعلى من سكنها وأمها ممن يحدث فيها الشرك الأكبر، ولا يتورع عن أي صفة من صفاته! فيا لها من مصيبة! ويا لها من كارثة! فإنا للّه وإنا إليه راجعون. فكيف تفلح أمة هذا واقعها؟! وكيف ترتفع وتسمو وهذا حالها؟! فواللّه ما علت أمة بالشرك، ولا سمت بالضلال؛ ولكن نصرت بالتوحيد واتباع الأنبياء.

* * *

---

(١) محاسن التأويل (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول ﷻ: وإن كاد هؤلاء القوم ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: يقول: ليستخفونك من الأرض التي أنت بها ليخرجوك منها ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتى أهلكهم بعذاب عاجل.

واختلف أهل التأويل في الذين كادوا أن يستفزّوا رسول اللَّه ﷺ ليخرجوه من الأرض وفي الأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها، فقال بعضهم: الذين كادوا أن يستفزوا رسول اللَّه ﷺ من ذلك اليهود، والأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها المدينة..

وقال آخرون: بل كان القوم الذين فعلوا ذلك قريشا، والأرض مكة..

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول قتادة ومجاهد، وذلك أن قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ في سياق خبر اللَّه ﷻ عن قريش وذكره إياهم، ولم يجر لليهود قبل ذلك ذكر، فيوجه قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾ إلى أنه خبر عنهم، فهو بأن يكون خبرا عمن جرى له ذكر أولى من غيره. وأما القليل الذي استثناه اللَّه جلّ ذكره في قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإنه فيما قيل، ما بين خروج رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى أن قتل اللَّه من قتل من مشركيهم ببدر..

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: لو أخرجوك لم يلبثوا خلافك إلا قليلا، ولأهلكناهم بعذاب من عندنا، سنتنا فيمن قد أرسلنا قبلك من رسلنا، فإنا كذلك كنا نفعل بالأمم إذا أخرجت رسلها من بين أظهرهم، ونصبت السنة على الخروج من معنى قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا

قَلِيلًا﴾ لأن معنى ذلك: لعذّبناهم بعد قليل كسنتنا في أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا، ولا تجد لسنتنا تحويلا عما جرت به»[١].

قال ابن كثير: «قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول اللَّه ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة. وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.. والأظهر أن هذا ليس بصحيح؛ فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[٣]. وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، واللَّه أعلم..

وقيل: نزلت في كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم اللَّه بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرًا. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم اللَّه وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى سراتهم؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ﴾ أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم، ويأتيهم العذاب. ولولا أنه -عليه الصلاة والسلام- رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[٤]»[٥].

قال السعدي: «﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك عنها.

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك إلا قليلا حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) التوبة: الآية (١٢٣).

(٣) التوبة: الآية (٢٩).

(٤) الأنفال (٣٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٧-٩٨).

اللَّه التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها اللَّه بالعقوبة.

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلًا حتى أوقع اللَّه بهم ببدر وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت اللَّه إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقًا لربه، أن يثبته على الإيمان، ساعيًا في كل سبب موصل إلى ذلك لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال اللَّه له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1] فكيف بغيره؟» وفيها تذكير اللَّه لرسوله منته عليه، وعصمته من الشر، فدل ذلك على أن اللَّه يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم -عند وجود أسباب الشر- بالعصمة منه، والثبات على الإيمان..

وفيها: أن اللَّه إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من اللَّه فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم إذا أخرجوا رسولهم»[2].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٧٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٤-٣٠٦).

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾

★ غريب الآية:

لِدُلوك: الدلوك الزوال، وهو ميلها عن الاستواء إلى الغروب.

غسق: غسق الليل: هو ظلامه وسواده، يقال: غسق الليل يَغْسِق غسوقًا وغَسَقًا: إذا اشتد ظلامه فهو غاسق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ قد بينا «**في سورة النساء**»: أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي أشارت لأوقات الصلاة؛ لأن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي لزوالها على التحقيق، فيتناول وقت الظهر والعصر. بدليل الغاية في قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي ظلامه، وذلك يشمل وقت المغرب والعشاء. وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ أي صلاة الصبح، كما تقدم إيضاحه وأشرنا للآيات المشيرة لأوقات الصلوات، كقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ﴾[1]، وقوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾[2]. وأقمنا بيان ذلك من السنة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[3]»[4].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يا محمد ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾.

واختلف أهل التأويل في الوقت الذي عناه اللّه بدلوك الشمس، فقال بعضهم: هو وقت غروبها، والصلاة التي أمر بإقامتها حينئذ: صلاة المغرب..

(١) هود: الآية (١١٤).
(٢) الروم: الآية (١٧).
(٣) النساء: الآية (١٠٣).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٧٩-١٨٠).

وقال آخرون: دلوك الشمس: ميلها للزوال، والصلاة التي أمر رسول اللَّه ﷺ بإقامتها عند دلوكها: الظهر.. وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى بقوله ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾: صلاة الظهر، وذلك أن الدلوك في كلام العرب: الميل، يقال منه: دلك فلان إلى كذا: إذا مال إليه. ومنه الخبر الذي رُوي عن الحسن أن رجلا قال له: أيُدالك الرجل امرأته؟ يعني بذلك: أيميل بها إلى المماطلة بحقها..

فإذا كان صحيحا ما قلنا بالذي به استشهدنا، فبين إذن أن معنى قوله جلّ ثناؤه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أن صلاة الظهر والعصر بحدودهما مما أوجب اللَّه عليك فيهما؛ لأنهما الصلاتان اللتان فرضهما اللَّه على نبيّه من وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل، وغسق الليل: هو إقباله ودنوه بظلامه، كما قال الشاعر:

آبَ هَـذَا اللَّـيْـلُ إذْ غَـسَـقَـا

وبنحو الذي قلنا في ذلك، قال أهل التأويل على اختلاف منهم في الصلاة التي أمر رسول اللَّه ﷺ بإقامتها عنده، فقال بعضهم: الصلاة التي أمر بإقامتها عنده صلاة المغرب..

وقال آخرون: هي صلاة العصر.. وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: الصلاة التي أمر النبيّ ﷺ بإقامتها عند غسق الليل، هي صلاة المغرب دون غيرها؛ لأن غسق الليل هو ما وصفنا من إقبال الليل وظلامه، وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس. فأما صلاة العصر، فإنها مما تقام بين ابتداء دلوك الشمس إلى غسق الليل، لا عند غسق الليل، وأما قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ فإن معناه وأقم قرآن الفجر؛ أي: ما تقرأ به صلاة الفجر من القرآن، والقرآن معطوف على الصلاة في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾. وكان بعض نحويي البصرة يقول: نصب قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ على الإغراء، كأنه قال: وعليك قرآن الفجر ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ يقول: إن ما تقرأ به في صلاة الفجر من القرآن كان مشهودًا، يشهده فيما ذكر ملائكة الليل وملائكة النهار. وبالذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل: وجاءت الآثار عن رسول اللَّه ﷺ..

وأما قوله: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ فإنه يقول: ملائكة الليل وملائكة النهار يشهدون تلك الصلاة»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله ﷺ آمرًا له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ قيل لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي وهو رواية أيضًا عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة، فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنة عن رسول اللَّه ﷺ تواترًا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفًا عن سلف، وقرنًا بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد»[٢].

قال أبو السعود: « ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى اجتماع ظلمتِه وهو وقتُ صلاةِ العِشاء، وليس المرادُ إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرارِ، بل إقامة كل صلاةٍ في وقتها الذي عُيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام، كما أن أعدادَ ركعاتِ كل صلاةٍ موكولةٌ إلى بيانه عليه السلام، ولعل الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلواتِ من غير فصل بينها؛ لِما أن الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظة، فبعضُها متصلٌ ببعض، بخلاف أولِ وقتِ العشاءِ والفجرِ، فإنه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدُهما عن الآخر، ولذلك فُصل وقتُ الفجر عن سائر الأوقات»[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لما ذكر مكايد

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٣٤-١٤٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٩٨-٩٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٨٩).

المشركين أمر نبيه ﷺ بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء.

ومثله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[1]»[2].

قال الرازي: «قوله ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.. هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة.. الفقهاء بينوا أن السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات، فالمقصود من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ الحث على أن تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب؛ لأن التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قرآن الفجر كان مشهودا

* عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دلوك الشمس: غروبها، تقول العرب إذا غربت الشمس: دلكت الشمس براح[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن جرير: «وقد ذكرت في الخبر الذي رويت عن عبد الله بن مسعود، أنه قال حين غربت الشمس: دلكت براح؛ يعني براح: مكانًا، ولست أدري هذا التفسير؛ أعني قوله: براح مكانا مِنْ كلام من هو ممن في الإسناد، أو من كلام عبد الله، فإن يكن من كلام عبد الله، فلا شك أنه كان أعلم بذلك من أهل الغريب الذين ذكرت قولهم، وأن الصواب في ذلك قوله، دون قولهم، وإن لم يكن من كلام عبد الله، فإن أهل العربية كانوا أعلم بذلك منه، ولما قال أهل الغريب في ذلك شاهد من قول العجاج، وهو قوله:

---

(١) الحجر: الآيتان (٩٧-٩٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٩٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٢٨-٢٩).

(٤) أخرجه: الطبراني في الكبير (٩/ ٢٣٠/ ٩١٢٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٥/ ٦٢٧٧)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٣١١) وقال: إسناده حسن. وفي الباب عن علي وابن عباس عند: ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤-٤٥/ ٦٢٧٤ و٦٢٨٢).

والشَّمْسُ قد كادَتْ تَكُونُ دَنَفا أدْفَعُها بالرَّاح كَيْ تَزَحْلَفا

فأخبر أنه يدفع شعاعها لينظر إلى مغيبها براحه. ومن روى ذلك بفتح الباء، فإنه جعله اسما للشمس وكسر الحاء لإخراجه إياه على تقدير قَطامِ وحَذامِ ورَقاشِ، فإذا كان معنى الدلوك في كلام العرب هو الميل، فلا شكّ أن الشمس إذاَ زالت عن كبد السماء، فقد مالت للغروب، وذلك وقت صلاة الظهر»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**فضل صلاة الجمع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح**». يقول أبو هريرة ﷺ: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: «قيل: يشهده اللّه ﷻ وملائكته، وقيل: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك، فيجتمعون في صلاة الفجر، وذلك لأنها هي أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل، فيشهدها ملائكة الليل والنهار، واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**» لقول أبي هريرة: واقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ رواه البخاري في الصحيح، قال أصحاب القول الأول: وهذا لا ينافي قولنا وهو أن يكون اللّه سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر، وليس المراد الشهادة العامة، فإن اللّه على كل شيء شهيد، بل المراد شهادة خاصة وهي شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله إلى سماء الدنيا في الشطر الأخير من الليل»[٣].

---

(١) تفسير ابن جرير (١٥/ ١٣٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٨/ ٥٠٩/ ٤٧١٧) ومسلم (١/ ٤٥٠/ ٦٤٩[٢٤٦]) والترمذي (٥/ ٢٨٢/ ٣١٣٥) والنسائي (١/ ٢٦١-٢٦٢/ ٤٨٥) وابن ماجه (١/ ٢٢٠/ ٦٧٠).

(٣) طريق الهجرتين (ص: ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

★ غريب الآية:

فَتَهَجَّدْ: أي: اترك الهجود وهو النوم، فتَفَعَّلَ فيه للسلب، نحو تَحَنَّثَ أي: جانب الحنث، فحقيقة التهجد: السهر وإلقاء النوم، والمراد هنا التنفل بالصلاة.

نَافِلَةً لَكَ: أي: زيادة على ما فرض عليك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: صلِّ به في سائر أوقاته. ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك على اللَّه، أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمدك فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم اللَّه من هول الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقامًا يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ ومن الليل فاسهر بعد نومة يا محمد بالقرآن، نافلة لك خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة من الليل..

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٧).

وأما قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فإنه يقول: نفلا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك.

واختُلف في المعنى الذي من أجله خصّ بذلك رسول اللّه ﷺ، مع كون صلاة كلّ مصلّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجوده قد كان أدّى فرائضه نافلة نفلا إذ كانت غير واجبة عليه، فقال بعضهم: معنى خصوصه بذلك: هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوّع، وقيل له: أقمها نافلة لك: أي فضلا لك من الفرائض التي فرضتها عليك عما فرضت على غيرك..

وقال آخرون: بل قيل ذلك له ﷺ لأنه لم يكن فعله ذلك يكفّر عنه شيئًا من الذنوب؛ لأن اللّه تعالى كان قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فكان له نافلة فضل، فأما غيره فهو له كفارة، وليس هو له نافلة..

وأولى القولين بالصواب في ذلك، القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وذلك أن رسول اللّه ﷺ كان اللّه تعالى قد خصه بما فرض عليه من قيام الليل، دون سائر أمته، فأما ما ذكر عن مجاهد في ذلك، فقول لا معنى له؛ لأن رسول اللّه فيما ذُكِر عنه أكثر ما كان استغفارا لذنوبه بعد نزول قول اللّه ﷻ عليه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] وذلك أن هذه السورة أنزلت عليه بعد مُنْصَرَفه من الحديبية، وأنزل عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[2] عام قبض. وقيل له فيها ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[3] فكان يُعدُّ له ﷺ في المجلس الواحد استغفار مائة مرّة ومعلوم أن اللّه لم يأمره أن يستغفر إلا لما يغفر له باستغفاره ذلك، فبين إذن وجه فساد ما قاله مجاهد..

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وعسى من اللّه واجبة، وإنما وجه قول أهل العلم: عسى من اللّه واجبة، لعلم المؤمنين أن اللّه لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شكّ أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع

(١) الفتح: الآية (٢).

(٢) النصر: الآية (١).

(٣) النصر: الآية (٣).

الإطماع الذي تقدم منه لصاحبه على تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبه غارّ بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له. وإذ كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جلّ ثناؤه من صفته الغرور لعباده صحّ ووجب أن كلّ ما أطمعهم فيه من طمع على طاعته، أو على فعل من الأفعال، أو أمر أو نهي أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه موف لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسى ولعلّ من الله واجبة.

وتأويل الكلام: أقم الصلاة المفروضة يا محمد في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجد فرضا فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاما تقوم فيه محمودا تحمده، وتغبط فيه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود، فقال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدّة ذلك اليوم..

وقال آخرون: بل ذلك المقام المحمود الذي وعد الله نبيّه أن يبعثه إياه، هو أن يقاعده معه على عرشه..

وأولى القولين في ذلك بالصواب ما صحّ به الخبر عن رسول الله ﷺ، وذلك ما حدثنا به أبو كريب، قال: ثنا وكيع، عن داود بن يزيد، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها، قال: «**هِيَ الشَّفاعَةُ**»[1].

قال الرازي: «في تفسير المقام المحمود أقوال؛ الأول: أنه الشفاعة، قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبي ﷺ في هذه الآية: «**هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي**» وأقول: اللفظ مشعر به، وذلك لأن الإنسان إنما يصير محمودًا إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقامًا أنعم رسول الله ﷺ فيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع؛ لأن ذلك

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٤١-١٤٥).

كان حاصلًا في الحال. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ تطميع، وتطميع الإنسان في الشيء الذي وعده في الحال محال، فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محمودًا إنعامًا سيصل منه (حصل له) بعد ذلك إلى الناس وما ذاك إلا شفاعته عند اللَّه، فدل هذا على أن لفظ الآية وهو قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ يدل على هذا المعنى، وأيضًا التنكير في قوله مقامًا محمودًا يدل على أنه يحصل للنبي ﷺ في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخليص عن العقاب أعظم من حمده في السعي في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها؛ لأن احتياج الإنسان إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب، على ما هو مذهب أهل السنة، ولَمَّا ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعارًا قويًّا، ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في فضل قيام الليل وما يقال فيه

* عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال: سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ وأي الصيام أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة، الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام، بعد شهر رمضان، صيام شهر اللَّه المحرم**»[2].

⋆ فوائد الحديث:

فيه دليل لما اتفق العلماء عليه أن تطوع الليل أفضل من تطوع النهار[3].

قال ابن القيم: «قد اختلف السلف والخلف في أنه هل كان فرضا عليه أم لا؟

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (٢/ ٨٢١/ ١١٦٣)، وأبو داود (٢/ ٨١١/ ٢٤٢٩) والترمذي (٢/ ٣٠١/ ٤٣٨)، والنسائي (٣/ ٢٢٨-٢٢٩/ ١٦١٢ و١٦١٣)، وابن ماجه (١/ ٥٥٤/ ١٧٤٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (٧/ ٤٥).

والطائفتان احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾[1] قالوا: فهذا صريح في عدم الوجوب، قال الآخرون: أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]. ولم يجئ ما ينسخه عنه، وأما قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة له، وإنما المراد بالنافلة الزيادة، ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾[3] أي زيادة على الولد، وكذلك النافلة في تهجد النبي ﷺ زيادة في درجاته وفي أجره، ولهذا خصه بها فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات، وأما النبي ﷺ فقد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو المراتب، وغيره يعمل في التكفير. قال مجاهد: إنما كان نافلة للنبي ﷺ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت طاعته نافلة؛ أي: زيادة في الثواب، ولغيره كفارة لذنوبه، قال ابن المنذر في تفسيره: حدثنا يعلى بن أبي عبيد حدثنا الحجاج عن ابن جريج عن عبد اللَّه بن كثير عن مجاهد قال: ما سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب، وليست للناس نوافل، إنما هي للنبي ﷺ خاصة، والناس جميعا يعملون ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها. حدثنا محمد بن نصر حدثنا عبد اللَّه حدثنا عمرو عن سعيد وقبيصة عن سفيان عن أبي عثمان عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾. قال: لا تكون نافلة الليل إلا للنبي ﷺ، وذكر عن الضحاك قال: نافلة للنبي ﷺ خاصة.

وذكر سليم بن حيان حدثنا أبو غالب حدثنا أبو أمامة قال: إذا وضعت الطهور مواضعه قمت مغفورا لك، فإن قمت تصلي كانت لك فضيلة وأجرا، فقال رجل: يا أبا أمامة، أرأيت إن قام يصلي تكون له نافلة؟ قال لا، إنما النافلة للنبي ﷺ، فكيف يكون له نافلة وهو يسعى في الذنوب والخطايا؟ تكون له فضيلة وأجرا، قلت: والمقصود أن النافلة في الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه كالمستحب والمندوب، وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات، وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب، فلا يكون قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافيًا لما دل عليه الأمر من الوجوب»[4].

---

(١) الإسراء: الآية (٧٩).
(٢) المزمل: الآيتان (١-٢).
(٣) الأنبياء: الآية (٧٢).
(٤) زاد المعاد (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت أو لا إله غيرك**». قال سفيان: وزاد عبدالكريم أبو أمية: ولا حول ولا قوة إلا بالله[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «وفي هذا الحديث ما كان عليه رسول الله ﷺ من المداومة على قيام الليل، والإخبات عند قيامه، والدعاء والتضرع والإخلاص، والثناء على الله عز وجل بما هو أهله، والإقرار بوعده ووعيده، والتسليم والابتهال، وفيه ﷺ الأسوة الحسنة، فطوبى لمن وفق وأعين على ذلك»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير المقام المحمود وأنه هو الشفاعة للخلائق

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان، اشفع. حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٣/ ٣/ ١١٢٠)، ومسلم (١/ ٥٣٢-٥٣٣/ ٧٦٩)، وأبو داود (١/ ٤٨٨-٤٨٩/ ٧٧١)، والترمذي (٥/ ٤٤٩/ ٣٤١٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٥/ ٧٧٠٤-٧٧٠٥)، وابن ماجه (١/ ٤٣٠-٤٣١/ ١٣٥٥).

(٢) فتح البر (٦/ ١٠٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٠٩/ ٤٧١٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨١/ ١١٢٩٥) من طريق آدم بن علي عن ابن عمر.

★ **غريب الحديث:**

جُثًا: بضم أوله والتنوين؛ أي: جماعات، جمع جثوة.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ سئل عنها قال: هي الشفاعة[1].

* عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، فيكسوني ربي حلة خضراء فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود**»[2].

★ **غريب الحديث:**

تل: موضع مرتفع.

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: يجمع الناس في صعيد ولا تكلم نفس، فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك والمهدي من هديت، وعبدك وابن عبدك، وبك وإليك ولا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، فهذا قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[3].

* عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ. فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم**»[4].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٤)، والترمذي (٥/ ٢٨٣/ ٣١٣٧) وقال: هذا حديث حسن.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٦)، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ٣٩٩/ ٦٤٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (١٩/ ٧٢-٧٣/ ١٤٢). وفي الأوسط (٩/ ٣٦٨/ ٨٧٩٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وفي (١٠/ ٣٧٧) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي الكبير رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨١/ ١١٢٩٤)، والحاكم (٢/ ٣٦٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٩/ ٣٤٨٠٠)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ١٦٧/ ٣٤٦٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧٧) وقال: رواه البزار موقوفا ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٣١/ ١٤٧٥) معلقا، ووصله الطبراني في الأوسط (٩/ ٣٣١/ ٨٧٢٠) وابن منده في الإيمان (٢/ ٨٥٤-٨٥٥/ ٨٨٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧١): «رواه الطبراني في الأوسط عن المطلب بن شعيب عن عبد الله بن صالح، وكلاهما قد وثق على ضعف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ -آدم فمن سواه- إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر. قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك. فيقول: إني أذنبت ذنبا أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحا. فيأتون نوحا فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول اللَّه ﷺ: ما منها كذبة إلا ماحل بها عن دين اللَّه ولكن ائتوا موسى، فيأتون موسى، فيقول: إني قد قتلت نفسًا ولكن ائتوا عيسى. فيأتوا عيسى ﷺ فيقول: إني عبدت من دون اللَّه، ولكن ائتوا محمدا. قال: فيأتونني فأنطلق معهم قال ابن جدعان: قال أنس فكأني أنظر إلى رسول اللَّه ﷺ. قال: فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد. فيفتحون لي ويرحبون فيقولون: مرحبًا فأخر ساجدًا فيلهمني اللَّه ﷺ من الثناء والحمد، فيقال لي: ارفع رأسك سل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك. وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾**»[(١)].

* **غريب الحديث:**

فأقعقعها: أي: فأحركها.

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة**»[(٢)].

* عن أبي بن كعب ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم. غير فخر**»[(٣)].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣١٤٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٣/ ٢) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨) مختصرا، وللحديث شواهد كثيرة.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٥٤)، والبخاري (٨/ ٥٠٩/ ٤٧١٩)، وأبو داود (١/ ٣٦٢/ ٥٢٩)، والترمذي (١/ ٤١٣/ ٢١١)، والنسائي (٢/ ٣٥٥-٣٥٦/ ٦٧٩)، وابن ماجه (١/ ٢٣٩/ ٧٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٧) والترمذي (٥/ ٥٤٧/ ٣٦١٣) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٣/ ٤٣١٤) وصححه الحاكم (١/ ٧١) ووافقه الذهبي.

* عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك اللَّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناكم -ويذكر ذنبه فيستحي- ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه اللَّه إلى أهل الأرض. فيأتونه فيقول: لست هناكم ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحي فيقول: ائتوا خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم ائتوا موسى عبدا كلمه اللَّه وأعطاه التوراة، فيأتونه فيقول: لست هناكم- ويذكر قتل النفس بغير نفس - فيستحي من ربه فيقول- ائتوا عيسى عبد اللَّه ورسوله وكلمة اللَّه وروحه، فيقول لست هناكم، ائتوا محمدًا ﷺ عبدا غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأنطلق حتى أستأذن على ربي فيؤذن، فإذا رأيت ربي وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء اللَّه، ثم يقال: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حدًّا، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه، فإذا رأيت ربي -مثله- ثم أشفع، فيحد لي حدًّا، فأدخلهم الجنة. ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود».

قال أبو عبد الله: إلا من حبسه القرآن يعني قول اللَّه تعالى: خالدين فيها[1].

* فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: اختلف الناس في المقام المحمود على خمسة أقوال:

الأول: أنه الشفاعة العامة للناس يوم القيامة كما تقدم. قاله حذيفة بن اليمان وابن عمر ﷺ.

الثاني: أنه إعطاؤه ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، قلت: وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول، فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. . .

الثالث: ما حكاه الطبري عن فرقة منها مجاهد. أنها قالت: المقام المحمود هو

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦)، والبخاري (٨/ ٢٠٢-٢٠٣/ ٤٤٧٦)، ومسلم (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤-٣٦٥/ ١١٢٤٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٢-١٤٤٣/ ٤٣١٢).

أن يجلس اللَّه محمدًا ﷺ معه على كرسيه، وروت في ذلك حديثا، قلت: وهذا قول مرغوب عنه، وإن صح الحديث فيتأول على أنه يجلسه مع أنبيائه وملائكته، قال ابن عبد البر في كتاب التمهيد: ومجاهد وإن كان أحد الأئمة بتأويل القرآن، فإن له قولين مهجورين عند أهل العلم؛ أحدهما: هذا، والثاني: في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] قال تنتظر الثواب ليس من النظر.

الرابع: إخراجه طائفة من النار، روى مسلم عن يزيد الفقير قال: كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد الحج، ثم نخرج على الناس، فمررنا على المدينة فإذا جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه يحدث الناس أو القوم إلى سارية عن رسول ﷺ قال: «وإذا هو قد ذكر الجهنميين، قال: فقلت له: يا صاحب رسول اللَّه ما هذا الذي تحدثون واللَّه تعالى يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[2] ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[3] فما هذا الذي تقولون فقال: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم، فقال: فهل سمعت بمقام محمد ﷺ يعني الذي يبعثه اللَّه عز وجل فيه قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد ﷺ الذي يخرج اللَّه به من يخرج. وذكر الحديث[4]، وفي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ وفيه: «**وقد سمعته يقول: فأخرج فأخرجهم وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن**» أي: وجب عليه الخلود قال: ثم تلا هذه الآية ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: هو المقام المحمود الذي وعده نبيكم ﷺ.

الخامس: ما روي أن مقامه المحمود شفاعته رابع أربعة وسيأتي»[5].

وقال الحافظ: «والجمهور على أن المراد به الشفاعة وبالغ الواحدي فنقل فيه الإجماع، ولكنه أشار إلى ما جاء عن مجاهد وزيفه، وقال الطبري: قال أكثر أهل التأويل المقام المحمود هو الذي يقومه النبي ﷺ ليريحهم من كرب الموقف، ثم أخرج عدة أحاديث في بعضها التصريح بذلك، وفي بعضها مطلق الشفاعة...

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٢-٢٣).

(٢) آل عمران: الآية (١٩٢).

(٣) السجدة: الآية (٢٠).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ١٧٩-١٨٠/ ١٩١[٣٢٠]).

(٥) التذكرة (ص: ٢٤٧-٢٤٨).

والراجح: أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة لكن الشفاعة التي وردت في الأحاديث المذكورة في المقام المحمود نوعان: الأول: العامة في فصل القضاء، والثاني: الشفاعة في إخراج المذنبين من النار...

وقال الماوردي في تفسيره: اختلف في المقام المحمود على ثلاثة أقوال، فذكر القولين: الشفاعة والإجلاس، والثالث: إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة، قال القرطبي: هذا لا يغاير القول الأول، وأثبت غيره رابعًا وهو ما أخرجه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن أبي هلال أحد صغار التابعين أنه بلغه أن المقام المحمود أن رسول اللَّه ﷺ يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل، فيغبطه بمقامه ذلك أهل الجمع. قلت: وخامسًا وهو ما اقتضاه حديث حذيفة وهو ثناؤه على ربه... ولكنه لا يغاير الأول أيضًا. وحكى القرطبي سادسًا وهو ما اقتضاه حديث ابن مسعود الذي أخرجه أحمد والنسائي والحاكم، قال: «**يشفع نبيكم رابع أربعة جبريل ثم إبراهيم ثم موسى أو عيسى ثم نبيكم لا يشفع أحد أكثر مما يشفع فيه**»[1] الحديث، وهذا الحديث لم يصرح برفعه، وقد ضعفه البخاري وقال: المشهور قوله ﷺ: «**أنا أول شافع**». قلت: وعلى تقدير ثبوته فليس في شيء من طرقه التصريح بأنه المقام المحمود، مع أنه لا يغاير حديث الشفاعة في المذنبين، وجوز المحب الطبري سابعا وهو ما اقتضاه حديث كعب بن مالك الماضي ذكره فقال بعد أن أورده: هذا يشعر بأن المقام المحمود غير الشفاعة، ثم قال: ويجوز أن تكون الإشارة بقوله: «**فأقول**» إلى المراجعة في الشفاعة. قلت: وهذا هو الذي يتجه، ويمكن رد الأقوال كلها إلى الشفاعة العامة، فإن إعطاءه لواء الحمد وثناءه على ربه وكلامه بين يديه وجلوسه على كرسيه وقيامه أقرب من جبريل كل ذلك صفات المقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضى بين الخلق، وأما شفاعته في إخراج المذنبين من النار فمن توابع ذلك، واختلف في فاعل الحمد من قوله: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ فالأكثر على أن المراد به أهل الموقف، وقيل النبي ﷺ أي إنه هو يحمد عاقبة ذلك المقام بتهجده في الليل، والأول أرجح لما ثبت من حديث ابن عمر الماضي في الزكاة بلفظ: «**مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمع كلهم**» ويجوز أن يحمل على أعم من

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢/ ١١٢٩٦) والحاكم (٤/ ٥٩٨-٥٩٩).

ذلك، أي مقامًا يحمده القائم فيه وكل من عرفه، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، واستحسن هذا أبو حيان وأيده بأنه نكرة فدل على أنه ليس المراد مقامًا مخصوصًا»[(١)].

وقال القاضي عياض: «والذي يستخرج من جملة الأحاديث أن مقامه المحمود هو كون آدم ومن ولد تحت لوائه يوم القيامة من أول عرصاتها إلى دخولهم الجنة، وإخراج من يخرج من النار، فأول مقاماته إجابة المنادي وتحميده ربه وثناؤه عليه بما ذكر وبما ألهمه من محامده، ثم الشفاعة من إراحة العرض وكرب المحشر، وهذا مقامه الذي حمده فيه الأولون والآخرون، ثم شفاعته لمن لا حساب عليه من أمته، ثم لمن يخرج من النار، حتى لا يبقى فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم يتفضل اللَّه بإخراج من قال: لا إله إلا اللَّه ومن لم يشرك به، ولا يبقى في النار إلا المخلدون، وهذه آخر عرصات القيامة ومناقل المحشر، فهو في جميعها له المقام المحمود، وبيده فيها لواء الحمد»[(٢)].

قال ابن عبدالبر: «وروى أبو أسامة ووكيع عن داود بن يزيد الأودي عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول اللَّه ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: «**المقام المحمود الذي أشفع فيه لأمتي**» وعبد اللَّه ابن إدريس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله.

قال أبو عمر: على هذا أهل العلم في تأويل قول اللَّه ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ أنه الشفاعة.

وقد روي عن مجاهد أن المقام المحمود أن يقعده معه يوم القيامة على العرش وهذا عندهم منكر في تفسير هذه الآية، والذي عليه جماعة العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين أن المقام المحمود هو المقام الذي يشفع فيه لأمته، وقد روي عن مجاهد مثل ما عليه الجماعة من ذلك فصار إجماعًا في تأويل الآية من أهل العلم بالكتاب والسنة.

ذكر ابن أبي شيبة... عن مجاهد في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا

---

(١) الفتح (١١/ ٥٢٠-٥٢٢).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٥٧١).

﴿مَّحْمُودًا﴾ قال شفاعة محمد ﷺ.

وذكر بقي . . . عن ابن مسعود ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الشفاعة.

وذكر الفريابي . . . عن ابن مسعود مثله.

وذكر ابن أبي شيبة . . . عن سلمان قال المقام المحمود الشفاعة.

وروى سفيان وإسرائيل عن أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة قال: يجتمع الناس في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، زاد سفيان في حديثه: حفاة عراة سكوتا كما خلقوا قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه، ثم اجتمعا فينادي مناد: يا محمد، على رؤوس الأولين والآخرين، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. زاد سفيان: والشر ليس إليك، ثم اجتمعا، والمهدي من هديت، تباركت وتعاليت، ومنك وإليك، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، قال حذيفة: فذلك المقام المحمود. . .

وروى يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: ذكر لنا أن نبي اللّٰه ﷺ خير بين أن يكون عبدا نبيا، أو ملكا نبيا فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فاختار نبي اللّٰه ﷺ أن يكون عبدا نبيا، فأعطي بها اثنين: أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع. قال قتادة: وكان أهل العلم يرون أن المقام المحمود الذي قال اللّٰه ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ الشفاعة يوم القيامة، وممن روي عنه أيضًا أن المقام المحمود الشفاعة: الحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وعلي بن الحسين بن علي، وابن شهاب، وسعيد بن أبي هلال، وغيرهم»[1].

* * *

(١) التمهيد (فتح البر- ٢/ ١٠٠-١٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: وقل يا محمد: يا ربّ ﴿أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى مُدْخل الصدق الذي أمر اللّه نبيّه ﷺ أن يرغب إليه في أن يدخله إياه، وفي مخرج الصدق الذي أمره أن يرغب إليه في أن يخرجه إياه، فقال بعضهم: عَنَى بمُدْخل الصِّدق: مُدْخل رسول اللّه ﷺ المدينة، حين هاجر إليها، ومُخْرَج الصدق: مُخْرجه من مكة، حين خرج منها مهاجرًا إلى المدينة..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وقل ربّ أمتني إماتة صِدْق، وأخرجني بعد الممات من قبري يوم القيامة مُخْرج صدق.. وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مُدْخل صدق، وأخرجني منه مُخْرَج صدق.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني مدخل صدق: الجنة، وأخرجني مخرج صدق: من مكة إلى المدينة.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني في الإسلام مُدْخل صدق.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أدخلني مكة آمنا، وأخرجني منها آمنا..

وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك، قول من قال: معنى ذلك: وأدخلني المدينة مُدْخل صدق، وأخرجني من مكة مُخْرج صدق.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن ذلك عقيب قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾[1]. وقد

(١) الإسراء: الآية (٧٦).

دللنا فيما مضى، على أنه عَنَى بذلك أهل مكة؛ فإذ كان ذلك عقيب خبر اللَّه عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول اللَّه ﷺ، ليخرجوه عن مكة، كان بيّنا، إذ كان اللَّه قد أخرجه منها، أن قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أمر منه له بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي هم المشركون بإخراجه منها مُخْرج صدق، وأن يدخله البلدة التي نقله اللَّه إليها مُدْخل صدق.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾:

اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: واجعل لي ملكًا ناصرًا ينصرني على من ناوأني، وعِزّا أقيم به دينك، وأدفع به عنه من أراده بسوء..

وقال آخرون: بل عُني بذلك حجة بينة.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك أمر من اللَّه تعالى نبيّه بالرغبة إليه في أن يؤتيه سلطانا نصيرا له على من بغاه وكاده، وحاول منعه من إقامته فرائض اللَّه في نفسه وعباده.

وإنما قلت ذلك أولى بالصواب؛ لأن ذلك عقيب خبر اللَّه عما كان المشركون هموا به من إخراجه من مكة، فأعلمه اللَّه ﷻ أنهم لو فعلوا ذلك عوجلوا بالعذاب عن قريب، ثم أمره بالرغبة إليه في إخراجه من بين أظهرهم إخراج صدق يحاوله عليهم، ويدخله بلدة غيرها، بمدخل صدق يحاوله عليهم ولأهلها في دخوله إليها، وأن يجعل له سلطانا نصيرا على أهل البلدة التي أخرجه أهلها منها، وعلى كلّ من كان لهم شبيها، وإذا أوتي ذلك، فقد أوتي لا شكّ حجة بينة»[1].

وقال ابن كثير: «واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[2]»[3].

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي حجة بينة ظاهرة

(١) جامع البيان (١٥/ ١٤٨-١٥١).

(٢) الحديد: الآية (٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٠٩).

تنصرني بها على جميع من خالفني. وبالجملة فقد سأل اللّه تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة، وقد أجاب اللّه تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2]، وقال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3]»[4].

* * *

(١) المائدة: الآية (٦٧).

(٢) المجادلة: الآية (٢٢).

(٣) التوبة: الآية (٣٣).

(٤) مفاتيح الغيب (٢٠/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

زَهَقَ: أي: ذهب واضمحل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الإسلام جاء ثابتًا راسخًا، وأن الشرك بالله زهق؛ أي: ذهب واضمحل وزال، تقول العرب: زهقت نفسه: إذا خرجت وزالت من جسده.

ثم بين -جل وعلا- أن الباطل كان زهوقًا؛ أي: مضمحلًا غير ثابت في كل وقت. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع، وذكر أن الحق يزيل الباطل ويذهبه؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1]، وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾[2] الآية»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين كادوا أن يستفزوك من الأرض ليخرجوك منها: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى الحقّ الذي أمر اللَّه نبيّه ﷺ أن يُعْلم المشركين أنه قد جاء، والباطل الذي أمره أن يعلمهم أنه قد زَهَق، فقال بعضهم: الحقّ: هو القرآن في هذا الموضع، والباطل: هو الشيطان.. وقال آخرون: بل عُنِي بالحقّ جهاد المشركين وبالباطل الشرك..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر اللَّه -تبارك وتعالى- نبيّه ﷺ أن يخبر المشركين أن الحقّ قد جاء، وهو كلّ ما كان لله فيه رضا وطاعة، وأن الباطل قد

---

(١) سبأ: الآيتان (٤٨-٤٩).

(٢) الأنبياء: الآية (١٨).

(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨٠).

زهق: يقول: وذهب كلّ ما كان لا رضا لله فيه ولا طاعة مما هو له معصية وللشيطان طاعة، وذلك أن الحقّ هو كلّ ما خالف طاعة إبليس، وأن الباطل: هو كلّ ما وافق طاعته، ولم يخصص اللَّه عز ذكره بالخبر عن بعض طاعاته، ولا ذهاب بعض معاصيه، بل عمّ الخبر عن مجيء جميع الحقّ، وذهاب جميع الباطل، وبذلك جاء القرآن والتنزيل، وعلى ذلك قاتل رسول اللَّه ﷺ أهل الشرك باللَّه، أعني على إقامة جميع الحقّ، وإبطال جميع الباطل»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من اللَّه الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه اللَّه به من القرآن والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾[2]»[3].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على كسر نصب المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله وما لا يصلح إلا لمعصية اللَّه كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر اللَّه تعالى، قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصور المتخذة من المدر والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه، ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص إذا غيرت عما هي عليه وصارت نقرا أو قطعا، فيجوز بيعها والشراء بها، قال المهلب: وما كسر من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعة فصاحبها أولى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال»[4].

قال ابن عاشور: « ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أعقب تلقينه الدعاءَ بسداد أعماله وتأييده فيها؛ بأنْ لقنه هذا الإعلان المنبىء بحصول إجابة الدعوة الملهمة بإبراز وعده بظهور أمره في صورة الخبر عن شيء مضى.

ولما كانت دعوة الرسول هي لإقامة الحق وإبطالِ الباطل؛ كان الوعد بظهور

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥١-١٥٢).
(٢) الأنبياء: الآية (١٨).
(٣) التفسير (٥/ ١٠٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٠٣-٢٠٤).

الحق وعدًا بظهور أمر الرسول وفوزه على أعدائه، واستحفظه اللَّه هذه الكلمة الجليلة إلى أن ألقاها يوم فتح مكة على مسامع من كانوا أعداءه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اضمحلال الشرك وثبات التوحيد وانتشار السنة وزوال البدعة

* عن ابن مسعود ﵁ قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[(٢)(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة، وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانًا وطواغيت تعبد من دون اللَّه، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركًا عندها، وبها، واللَّه المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحيي، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وأخذوا مأخذهم شبرًا بشبر وذراعا بذراع، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس وظهر الفساد في البر

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ١٨٧).
(٢) سبأ: الآية (٤٩).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧-٣٧٨)، والبخاري (٨/ ٥١٠/ ٤٧٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٠٨/ ١٧٨١)، والترمذي (٥/ ٢٨٣-٢٨٤/ ٣١٣٨) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٢/ ١١٢٩٧).

والبحر بما كسبت أيدي الناس. ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث اللَّه سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فصل: جواز صرف الأموال التي في مواضع الشرك في مصالح المسلمين.

ومنها: جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تساق إليها كلها ويصرفها على الجند والمقاتلة ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات، وأعطاها لأبي سفيان يتألفه بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا، وله أن يقطعها للمقاتلة أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين، وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع فيصرف في مصالح المسلمين. فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد ولا قبر يسرج عليه ويعظم وينذر له ويحج إليه ويعبد من دون اللَّه ويتخذ وثنا من دونه، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ومن اتبع سبيلهم»[1].

وقال معددا الفوائد المستفادة من غزوة تبوك: «ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى اللَّه ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول اللَّه ﷺ مسجد الضرار، وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم اللَّه فيه لما كان بناؤه ضرارا، وتفريقا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله؛ إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أندادا من دون اللَّه أحق بالهدم وأوجب، وكذلك محال المعاصي والفسوق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات، وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكاملها يباع فيها الخمر، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقًا، وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية»[2].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٠٦-٥٠٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٧١-٥٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ -وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد- أنه: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يذهب ما في القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضًا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدًا وتكذيبًا وكفرًا. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[2]، والآيات في ذلك كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن اللَّه جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين»[3].

قال ابن جرير: «وقوله ﷻ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يستشفى به من الجهل

(١) فصلت: الآية (٤٤).

(٢) التوبة: الآيتان (١٢٤-١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٠).

من الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون الكافرين به؛ لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض اللَّه، ويحلون حلاله، ويحرّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من اللَّه، أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول: ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا: يقول: إهلاكًا؛ لأنهم كلما نزل فيه أمر من اللَّه بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خسارا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجسا إلى رجسهم قبلُ»[1].

قال السعدي: «قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾:

فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خسارًا؛ إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود الرديئة.

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر اللَّه، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل»[2].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الإلهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ونبه على ما فيها من الأسرار، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن وأتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولفظة ﴿مِنَ﴾ ها هنا ليست للتبعيض بل هي للجنس كقوله: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[3]، والمعنى وننزل من

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥٢-١٥٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣٠٨-٣٠٩).
(٣) الحج: الآية (٣٠).

هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء. فجميع القرآن شفاء للمؤمنين، واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة، أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة، الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية»[1].

وقال: «وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة، والقرآن قسمان بعضهما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء. وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية، والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين، والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة، لا جرم بدأ اللَّه تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة، واعلم أنه تعالى لما بين كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بيَّن كونه سببًا للخسار والضلال في حق الظالمين، والمراد به المشركون. وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظًا وغضبًا وحقدًا وحسدًا، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم، ثم لا يزال الخلق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة، والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق، فبهذا الطريق يصير القرآن سببًا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال

---

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٥).

والفساد والنكال. ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين في أودية الضلال، ومقامات الخزي والنكال، وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه، واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم، فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والصحيح: أن من ها هنا لبيان الجنس لا للتبعيض وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾[3].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبدا. وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه، والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه، وقد تقدم في أول الكلام على الطب بيان إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه التي هي حفظ الصحة والحمية واستفراغ المؤذي، والاستدلال بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع.

وأما الأدوية القلبية فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها؛ قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[4]، فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله»[5].

* * *

---

(١) فصلت: الآية (٥١).

(٢) مفاتيح الغيب (٤/ ٣٥٢).

(٣) يونس: الآية (٥٧).

(٤) العنكبوت: الآية (٥١).

(٥) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

★ غريب الآية:

نَأَى: أي: تباعد، وقيل: نأى؛ أي: أعرض، وقيل: تكبر، وكلها معان متقاربة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه إذا أنعم على الإنسان بالصحة والعافية والرزق أعرض عن ذكر اللَّه وطاعته، ونأى بجانبه: أي: تباعد عن طاعة ربه. فلم يمتثل أمره، ولم يجتنب نهيه..

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه، كقوله في سورة هود: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1]، وقوله في آخر فصلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾[2]، وقوله في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[3]، وقوله فيها أيضًا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[4]، وقوله في سورة يونس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ

(١) هود: الآيتان (٩-١٠).
(٢) فصلت: الآيات (٤٩-٥١).
(٣) الروم: الآية (٣٣).
(٤) الروم: الآية (٣٦).

مَّسَّهُۥ﴾[١]، وقوله في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٢]، وقوله فيها أيضًا: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وقد استثنى اللَّه من هذه الصفات عباده المؤمنين في قوله في سورة هود: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٤]»[٥].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم اللَّه تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم اللَّه عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة اللَّه وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد: بَعُد عنا.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾[٦]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾[٧]. وبأنه إذا مسه الشر -وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: قنط أن يعود ويحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٨]»[٩].

قال القاسمي: « ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال، وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر قضي عليه، وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان، فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة اللَّه تعالى في كلتا الحالتين، ويتيقن في

---

(١) يونس: الآية (١٢).
(٢) الزمر: الآية (٨).
(٣) الزمر: الآية (٤٩).
(٤) هود: الآية (١١).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨٢-١٨٣).
(٦) يونس: الآية (١٢).
(٧) الإسراء: الآية (٦٧).
(٨) هود: الآيتان (١٠-١١).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٠-١١١).

الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم، وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم، فيشكر ويصبر، ويعلم أن المنعم يقدر، فلم يعرض عند النعمة بطرًا وأشرًا، ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النقمة جزعًا وضجرًا.

فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]»[2].

* * *

(١) هود: الآيات (٩-١١).

(٢) محاسن التأويل (١٠/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شَاكِلَتِهِ: أي: ناحيته ووجهته وطريقته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: « ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على طريقته وبحسب نيته ومذهبه الذي يشبهه وهو شكله ومثل له، وهذه الآية تدل دلالة ما على أن الإنسان أولًا لم يرد به العموم؛ أي: إن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكل منهم يعمل على ما يليق به، والرب تعالى أعلم بالمهتدي، وقال مجاهد: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ معناه على طبيعته، وقال أيضًا معناه على حِدَته، وقال ابن عباس: معناه على ناحيته، وقال قتادة: معناه على ناحيته وعلى ما ينوي، وقال ابن زيد: معناه على دينه، وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقتادة. وفي قوله: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ توعد بيِّن»(١).

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نِيَّته. وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية -واللَّه أعلم- تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾(٢)، ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨١).

(٢) هود: الآيتان (١٢١-١٢٢).

هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية»[١].

وقال القرطبي: «وهذه الأقوال كلها متقاربة. والمعنى: أن كل أحد يعمل على ما يشاكل أصله وأخلاقه التي ألفها، وهذا ذم للكافر ومدح للمؤمن»[٢].

قال الرازي: « ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح، وتلين الدهن، وتبيض ثوب القصار، وتسود وجهه. وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور، وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال، ونكال على نكال»[٣].

قال ابن القيم: فأصل الخير كله بتوفيق اللّه ومشيئته: شرف النفس ونبلها وكبرها، وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤]؛ أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة اللّه، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصي اللّه. فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها، كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته، والثناء عليه،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٣٧).

(٤) الشمس: الآيتان (٩-١٠).

والتودد إليه، والحياء منه، والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى: فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «**قوله: «على نيته»** تفسير منه لقوله: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ بحذف أداة التفسير، وتفسير الشاكلة بالنية صح عن الحسن البصري ومعاوية بن قرة المزني وقتادة، أخرجه عبد بن حميد والطبري عنهم، وعن مجاهد قال: الشاكلة الطريقة أو الناحية، وهذا قول الأكثر، وقيل الدين. وكلها متقاربة»[٣].

قال النووي: «أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته. قال الشافعي وآخرون: هو ثلث الإسلام، وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابا من الفقه. وقال آخرون: هو ربع الإسلام. وقال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: ينبغي لمن صنف كتابا أن يبدأ فيه بهذا الحديث تنبيها للطالب على تصحيح النية، ونقل الخطابي هذا عن الأئمة مطلقًا، وقد فعل ذلك البخاري وغيره فابتدأوا به قبل كل شيء، وذكره البخاري في سبعة مواضع من كتابه»[٤].

قال ابن رجب: «وقوله بعد ذلك: «**وإنما لامرئ ما نوى**» إخبار أنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به، فإن نوى خيرًا حصل له خير، وإن نوى به شرًّا حصل له شر، وليس هذا تكريرا محضًا للجملة الأولى، فإن الجملة الأولى دلت على أن صلاح

---

(١) الفوائد (٣٤٠-٣٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي في المجتبى (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وفي الكبرى (١/ ٧٩-٨٠/ ٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧).

(٣) فتح الباري (١/ ١٨١).

(٤) شرح مسلم (١٣/ ٤٦-٤٧).

العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، والجملة الثانية دلت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيته الصالحة، وأن عقابه عليه بحسب نيته الفاسدة، وقد تكون نيته مباحة فيكون العمل مباحًا فلا يحصل له ثواب ولا عقاب، فالعمل في نفسه صلاحه وفساده وإباحته بحسب النية الحاملة عليه المقتضية لوجوده، وثواب العامل وعقابه وسلامته بحسب نيته التي صار بها العمل صالحًا، أو فاسدًا، أو مباحًا.

واعلم أنّ النيَّةَ في اللُّغة نوعٌ من القَصدِ والإرادة، وإن كان قد فُرق بينَ هذه الألفاظ بما ليس هذا موضع ذكره. والنيةُ في كلام العُلماء تقعُ بمعنيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العباداتِ بعضها عن بعضٍ، كتمييزِ صلاة الظُّهر مِنْ صلاةِ العصر مثلًا، وتمييزِ صيام رمضان من صيام غيرِه، أو تمييز العباداتِ مِنَ العادات، كتمييز الغُسلِ من الجَنَابةِ مِنْ غسل التَّبرُّد والتَّنظُّف، ونحو ذلك، وهذه النيةُ هي التي تُوجَدُ كثيرًا في كلامِ الفُقهاء في كتبهم. والمعنى الثاني: بمعنى تمييزِ المقصودِ بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريكَ له، أم غيره، أم اللّه وغيرُه، وهذه النيّة هي التي يتكلَّمُ فيها العارفُونَ في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي تُوجَدُ كثيرًا في كلام السَّلَفِ المتقدّمين.

وقد صنَّفَ أبو بكر بنُ أبي الدُّنيا مصنَّفًا سمَّاه: كتاب الإخلاص والنية، وإنّما أراد هذه النية، وهي النيةُ التي يتكرَّر ذكرُها في كلام النَّبيِّ ﷺ تارةً بلفظ النيةِ، وتارةً بلفظ الإرادة، وتارةً بلفظٍ مُقاربٍ لذلك، وقد جاء ذكرُها كثيرًا في كتابِ اللّه ﷻ بغيرِ لفظِ النِّيَّةِ أيضًا مِنَ الألفاظ المُقاربةِ لها.

وإنَّما فرَّقَ مَنْ فَرَّقَ بين النيةِ وبينَ الإرادة والقصدِ ونحوهما؛ لظنِّهم اختصاصَ النية بالمعنى الأوَّلِ الذي يذكُرُهُ الفقهاءُ، فمنهم من قال: النيةُ تختصُّ بفعلِ النَّاوي، والإرادةُ لا تختصُّ بذلك، كما يريدُ الإنسانُ مِنَ اللهِ أن يغفرَ له، ولا ينوي ذلك. وقد ذكرنا أنَّ النية في كلام النَّبيِّ ﷺ وسلفِ الأمَّةِ إنَّما يُرادُ بها هذا المعنى الثاني غالبًا، فهي حينئذٍ بمعنى الإرادة، ولذلك يُعبَّرُ عنها بلفظِ الإرادة في القرآنِ كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[1]،

(١) آل عمران: الآية (١٥٢).

وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا النِّيَّةُ بالمعنى الذي يذكره الفُقهاءُ، وهو أن تميزَ العباداتِ من العاداتِ، وتمييز العباداتِ بعضها مِنْ بعضٍ، فإنَّ الإمساكَ عنِ الأكلِ والشُّربِ يقعُ تارةً حميةً، وتارةً لعدمِ القُدرةِ على الأكلِ، وتارةً تركًا للشَّهواتِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيحتاجُ في الصِّيامِ إلى نيَّةٍ ليتميَّزَ بذلك عَنْ تركِ الطَّعامِ على غير هذا الوجه. وكذلك العباداتُ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ، منها فرضٌ، ومنها نفلٌ.

والفرضُ يتنوَّعُ أنواعًا، فإنَّ الصَّلواتِ المفروضاتِ خمسُ صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ، والصَّومُ الواجبُ تارةً يكونُ صيامَ رمضان، وتارةً صيامَ كفارةٍ، أو عن نذرٍ، ولا يتميَّزُ هذا كلُّه إلاَّ بالنِّيَّةِ، وكذلك الصدقةُ، تكونُ نفلًا، وتكونُ فرضًا، والفرضُ منه زكاةٌ، ومنه كفَّارةٌ، ولا يتميَّزُ ذلكَ إلاَّ بالنِّيَّةِ، فيدخلُ ذلك في عمومِ قوله ﷺ: «**وإنَّما لامرئٍ ما نوى**»»[(٥)].

* * *

(١) الأنفال: الآية (٦٧).

(٢) الشورى: الآية (٢٠).

(٣) الإسراء: الآيتان (١٨-١٩).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٥-٦٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ: ويسألك الكفار باللَّه من أهل الكتاب عن الروح ما هي؟ قل لهم: الروح من أمر ربي، وما أوتيتم أنتم وجميع الناس من العلم إلا قليلًا وذُكِر أن الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ عن الروح، فنزلت هذه الآية بمسألتهم إياه عنها، كانوا قوما من اليهود»[1].

وقال: «واختلف أهل التأويل في الروح الذي ذُكِر في هذا الموضع ما هي؟ فقال بعضهم: هي جبرئيل عليه السلام.. وقال آخرون: هي مَلك من الملائكة»[2].

وقال: «وأما قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ فإنه يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه اللَّه عز وجل دونكم، فلا تعلمونه ويعلم ما هو.

وأما قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنيّ بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فقال بعضهم: عنى بذلك: الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ عن الروح وجميع الناس غيرهم، ولكن لما ضمّ غير المخاطب إلى المخاطب، خرج الكلام على المخاطبة؛ لأن العرب كذلك تفعل إذا اجتمع في الكلام مخبر عنه غائب ومخاطب، أخرجوا الكلام خطابا للجمع..

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ عن الروح خاصة دون غيرهم..

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: خرج الكلام خطابا لمن خوطب به، والمراد به جميع الخلق؛ لأن علم كلّ أحد سوى اللَّه، وإن كثر في علم اللَّه

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥٥).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٥٦).

قليل. وإنما معنى الكلام: وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلًا من كثير مما يعلم الله»[١].

قال ابن كثير: «وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح هاهنا على أقوال: أحدها: أن المراد: أرواح بني آدم..

وقيل: المراد بالروح هاهنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به هاهنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ يقول: الروح: ملك..

وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء -تبارك وتعالى-.

والمعنى: أن علمكم في علم اللَّه قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتي إن شاء اللَّه في قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نقرة؛ أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم اللَّه إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ ولهذا قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾»[٢].

قال ابن عاشور: «وسؤالهم عن الروح معناه أنهم سألوا عن بيان ماهية ما يعبّر عنه في اللغة العربية بالروح، والتي يعرف كل أحد بوجه الإجمال أنها حالّة فيه.

والروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا، بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يومًا. وهذا

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٢-١١٤).

الإطلاق هو الذي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[١]. وهذا يسمى أيضًا بالنفس كقوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[٢].

ويطلق الروح على الكائن الشريف المكون بأمر إلهي بدون سبب اعتيادي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[٤].

ويطلق لفظ (الروح) على المَلك الذي ينزل بالوحي على الرسل. وهو جبريل عليه السلام، ومنه قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٥].

واختلف المفسرون في الروح المسؤول عنه المذكور هنا ما هو من هذه الثلاثة. فالجمهور قالوا: المسؤول عنه هو الروح بالمعنى الأول، قالوا: لأنه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأما الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالًا عن معنى مصطلح قرآني...

وعن قتادة والحسن: أنهم سألوا عن جبريل، والأصح القول الأول. وفي الروض الأنف أن النبي ﷺ أجابهم مرة، فقال لهم: هو جبريل عليه السلام. وقد أوضحناه في سورة الكهف.

وإنما سألوا عن حقيقة الروح وبيان ماهيتها، فإنها قد شغلت الفلاسفة وحكماء المتشرعين، لظهور أن في الجسد الحي شيئًا زائدًا على الجسم، به يكون الإنسان مدركًا، وبزواله يصير الجسم مسلوبَ الإرادة والإدراك، فعلم بالضرورة أن في الجسم شيئًا زائدًا على الأعضاء الظاهرة والباطنة غير مشاهد، إذ قد ظهر بالتشريح أن جسم الميت لم يفقد شيئًا من الأعضاء الباطنة التي كانت له في حال الحياة.

وإذ قد كانت عقول الناس قاصرة عن فهم حقيقة الروح، وكيفية اتصالها بالبدن، وكيفية انتزاعها منه، وفي مصيرها بعد ذلك الانتزاع، أجيبوا بأن الروح من أمر اللَّه، أي أنه كائن عظيم من الكائنات المشرفة عند اللَّه، ولكنه مما استأثر اللَّه بعلمه. فلفظ ﴿أَمْرِ﴾ يحتمل أن يكون مرادف الشيء. فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله، فإضافة ﴿أَمْرِ﴾ إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي

---

(١) ص: الآية (٧٢).
(٢) الفجر: الآية (٢٧).
(٣) الشورى: الآية (٥٢).
(٤) النساء: الآية (١٧١).
(٥) الشعراء: الآيتان (١٩٣ و ١٩٤).

أمر اختص باللَّه اختصاص علم.

و«مِنْ» للتبعيض، فيكون هذا الإطلاق كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1]. ويحتمل أن يكون الأمر أمرَ التكوين، فإما أن يراد نفس المصدر وتكون ﴿مِّن﴾ ابتدائية كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]؛ أي: الروح يصدر عن أمر اللَّه بتكوينه؛ أو يراد بالمصدر معنى المفعول مثل الخلق و﴿مِّن﴾ تبعيضية، أي الروح بعض مأمورات اللَّه، فيكون المرادُ بالروح جبريلَ عليه السلام، أي الروح من المخلوقات الذين يأمرهم اللَّه بتبليغ الوحي، وعلى كلا الوجهين لم تكن الآية جوابًا عن سؤالهم.

وروى ابن العربي في الأحكام عن ابن وهب عن مالك أنه قال: لم يأته في ذلك جواب اهـ. أي أن قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ليس جوابًا ببيان ما سألوا عنه، ولكنه صرف عن استعلامه، وإعلامٌ لهم بأن هذا من العلم الذي لم يؤتوه. والاحتمالات كلها مرادة، وهي كلمة جامعة. وفيها رمز إلى تعريف الروح تعريفًا بالجنس وهو رسم.

وجملة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يجوز أن تكون مما أَمَر اللَّه رسولَه أن يقوله للسائلين؛ فيكون الخطاب لقريش أو لليهود الذين لقنوهم، ويجوز أن يكون تذييلًا أو اعتراضًا؛ فيكون الخطاب لكل من يصلح للخطاب، والمخاطبون متفاوتون في القليل المستثنى من المؤتَى من العلم. وأن يكون خطابًا للمسلمين. . .

هذا، والذين حاولوا تقريب شرح ماهية الروح من الفلاسفة والمتشرعين بواسطة القول الشارح، لم يأتوا إلا برسوم ناقصة مأخوذة فيها الأجناس البعيدة، والخواص التقريبية غير المنضبطة، وتحكيم الآثار التي بعضها حقيقي وبعضها خيالي، وكلها متفاوتة في القرب من شرح خاصاته وأماراته بحسب تفاوت تصوراتهم لماهيته المبنيات على تفاوت قوى مداركهم، وكلها لا تعدو أن تكون رسومًا خيالية وشعرية معبرة عن آثار الروح في الإنسان»[3].

---

(١) الشورى: الآية (٥٢).

(٢) يس: الآية (٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ١٩٦-١٩٩).

قال القرطبي: «وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذى يكون به حياة الجسد.

وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا اللَّه ﷻ. وقال أبو صالح: الروح خلق كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيد وأرجل. والصحيح الإبهام لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر اللَّه تعالى، مبهما له وتاركا تفصيله، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها.

وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى. وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز»[(١)].

قال القاسمي: «الذي أراه متعينا في الآية لسابقها ولاحقها، أن المراد بالروح الوحي بالقرآن، وهو قريب من قول قتادة. ووجه تعينه أن هذه الآية في سياق ذكر القرآن وتنزيله والمنة بكونه شفاء ورحمة، وقد سمى تعالى الوحي بالقرآن روحًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[(٣)] فكانوا إذا سمعوا الروح، وصدعوا بالإيمان به، يتعنتون في السؤال عنه، استبعادًا لأن يكون من لدنه سبحانه، ولأن يكون بشر مثله مبعوثًا بأمره تعالى أن يبين لهم أنه وحي أوحاه اللَّه، وأنه روح من لدنه، وإلقاء من أمره، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾[(٤)]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾[(٥)]، أي بعضهم ينكره وبعضهم يتردد في صحته، وذلك أنهم قوم جاهليون، لا عهد لهم بالعلوم والمعارف، فضلا عن الوحي وخصائص النبوة، للأمية والجهالة الفاشيتين فيهم.

كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي مما تناله مشاعركم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢١٠).

(٢) الشورى: الآية (٥٢).

(٣) غافر: الآية (١٥).

(٤) يونس: الآية (٥٣).

(٥) النبأ: الآيات (١-٣).

وتصل إليه فطنكم.

وما هو في جنب معلومات لا تحصى، إلا كالقطرة من البحر، والذرة من الكثيب. والقاعدة أن القرآن متجاوب الأطراف، يفسر بعضه بعضا»[١].

قال الشوكاني: «وفي هذه الآية ما يزجر الخائضين في شأن الروح المتكلفين لبيان ما هيئته وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ويردعهم أعظم ردع، وقد أطالوا المقال في هذا البحث بما لا يتم له المقام، وغالبه بل كله من الفضول الذي لا يأتي بنفع في دين ولا دنيا.

وقد حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول، فانظر إلى هذا الفضول الفارغ والتعب العاطل عن النفع، بعد أن علموا أن اللَّه سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته فضلًا عن أممهم المقتدين بهم، فياللَّه العجب حيث تبلغ أقوال أهل الفضول إلى هذا الحدّ الذي لم تبلغه ولا بعضه في غير هذه المسألة مما أذن اللَّه بالكلام فيه، ولم يستأثر بعلمه.

ثم ختم سبحانه هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أن علمكم الذي علمكم اللَّه، ليس إلاّ المقدار القليل بالنسبة إلى علم الخالق سبحانه، وإن أوتي حظًّا من العلم وافرًا، بل علم الأنبياء ﷺ ليس هو بالنسبة إلى علم اللَّه سبحانه إلاّ كما يأخذ الطائر في منقاره من البحر، كما في حديث موسى والخضر عليهما السلام»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه ما أعطى خلقه من العلم إلا قليلًا بالنسبة إلى علمه -جل وعلا-؛ لأن ما أعطيه الخلق من العلم بالنسبة إلى علم الخالق قليل جدًّا.

ومن الآيات التي فيها الإشارة إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى

---

(١) محاسن التأويل (١٠/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٣) الكهف: الآية (١٠٩).

ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الروح آية من آيات الله

* عن عبد اللَّه ﷺ قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث -وهو متكئ على عسيب- إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم إليه -وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه- فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئًا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

* عن ابن عباس ﷺ قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علما كثيرا: التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا. فأنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[4].

★ غريب الحديثين:

عسيب: هي الجريدة التي لا خوص فيها.

ما رابكم: من الريب، رابه: إذا علم منه الريب، وأرابه إذا ظن ذلك به.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم: «والروح في القرآن على عدة أوجه:

---

(١) لقمان: الآية (٢٧). (٢) أضواء البيان (٣/ ١٨٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٩)، والبخاري (٨/ ٥١١/ ٤٧٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٢/ ٢٧٩٤)، والترمذي (٥/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٣١٤١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٣/ ١١٢٩٩).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥٥)، والترمذي (٥/ ٢٨٤/ ٣١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩٢-٣٩٣/ ١١٣١٤)، وابن حبان (الإحسان ١/ ٣٠١/ ٩٩)، والحاكم (٢/ ٥٣١) وصححه ووافقه الذهبي.

أحدها: الوحي كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(٢)، وسمى الوحي روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح،

الثاني: القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من يشاء من عباده المؤمنين، كما قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾(٣)،

الثالث: جبريل، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾(٥)، وهو روح القدس، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾(٦).

الرابع: الروح التي سأل عنها اليهود فأجيبوا بأنها من أمر اللّه، وقد قيل: إنها الروح المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾(٧)، وأنها الروح المذكور في قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾(٨).

الخامس: المسيح ابن مريم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾(٩)، وأما أرواح بني آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلا بالنفس؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾(١٠)، وقال تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(١١)، وقال: تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(١٢)، وقال تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾(١٣)، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾(١٤)، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾(١٥)، وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح، والمقصود أن كونها من أمر اللّه لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة»(١٦).

---

(١) الشورى: الآية (٥٢).
(٢) غافر: الآية (١٥).
(٣) المجادلة: الآية (٢٢).
(٤) الشعراء: الآيتان (١٩٣-١٩٤).
(٥) البقرة: الآية (٩٧).
(٦) النحل: الآية (١٠٢).
(٧) النبأ: الآية (٣٨).
(٨) القدر: الآية (٤).
(٩) النساء: الآية (١٧١).
(١٠) الفجر: الآية (٢٧).
(١١) القيامة: الآية (٢).
(١٢) يوسف: الآية (٥٣).
(١٣) الأنعام: الآية (٩٣).
(١٤) الشمس: الآيتان (٧-٨).
(١٥) آل عمران: الآية (١٨٥).
(١٦) كتاب الروح (٢/ ٥٢٣-٥٢٤).

قال الحافظ: «قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قال الإسماعيلي: يحتمل أن يكون جوابًا وأن الروح من جملة أمر اللَّه وأن يكون المراد أن اللَّه اختص بعلمه ولا سؤال لأحد عنه. وقال ابن القيم: ليس المراد هنا بالأمر الطلب اتفاقا، وإنما المراد به المأمور، والأمر يطلق على المأمور كالخلق على المخلوق، ومنه ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[1]، وقال ابن بطال: معرفة حقيقة الروح مما استأثر اللَّه بعلمه بدليل هذا الخبر، قال: والحكمة في إبهامه اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه. وقال القرطبي: الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء؛ لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب الأولى. وجنح ابن القيم في كتاب الروح إلى ترجيح أن المراد بالروح المسئول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾[2]، قال: وأما أرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إلا نفسا. كذا قال، ولا دلالة في ذلك لما رجحه، بل الراجح الأول، فقد أخرج الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس في هذه القصة أنهم قالوا عن الروح: وكيف يعذب الروح الذي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ فنزلت الآية. وقال بعضهم: ليس في الآية دلالة على أن اللَّه لم يطلع نبيه على حقيقة الروح، بل يحتمل أن يكون أطلعه ولم يأمره أنه يطلعهم، وقد قالوا في علم الساعة نحو هذا واللَّه أعلم.

وممن رأى الإمساك عن الكلام في الروح أستاذ الطائفة أبو القاسم فقال فيما نقله في عوارف المعارف عنه بعد أن نقل كلام الناس في الروح: وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي ﷺ ثم نقل عن الجنيد أنه قال: الروح استأثر اللَّه تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه، فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من موجود. وعلى ذلك جرى ابن عطية وجمع من أهل التفسير. وأجاب من خاض في ذلك بأن اليهود سألوا عنها سؤال تعجيز وتغليط لكونه يطلق على أشياء فأضمروا أنه بأي شيء أجاب قالوا: ليس هذا المراد، فرد اللَّه كيدهم، وأجابهم جوابًا مجملًا مطابقًا لسؤالهم المجمل. وقال السهروردي في العوارف: يجوز أن يكون

---

(١) هود: الآية (١٠١).

(٢) النبأ: الآية (٣٨).

من خاض فيها سلك سبيل التأويل لا التفسير، إذ لا يسوغ التفسير إلا نقلًا، وأما التأويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل، وهو ذكر ما لا يحتمل إلا به من غير قطع بأنه المراد، فمن ثم يكون القول فيه، قال: وظاهر الآية المنع من القول فيها لختم الآية بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي اجعلوا حكم الروح من الكثير الذي لم تؤتوه فلا تسألوه عنه فإنه من الأسرار»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٨/ ٥١٤-٥١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي آتيناك من العلم الذي أوحينا إليك من هذا القرآن لنذهبنّ به، فلا تعلمه، ثم لا تجد لنفسك بما نفعل بك من ذلك وكيلا يعني: قيّما يقوم لك، فيمنعنا من فعل ذلك بك، ولا ناصرًا ينصرك، فيحول بيننا وبين ما نريد بك، قال: وكان عبد اللَّه بن مسعود يتأوّل معنى ذهاب اللَّه ﷻ به رفعه من صدور قارئيه»[1].

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ الآية فيها شدة على النبي ﷺ، وهي عتاب على قوله غدًا أعلمكم، فأمر بأن يقول إن الروح من أمر ربه فيذعن بالتسليم لله في أنه يعلم بما شاء، ويمسك عن عباده ما شاء، ثم قيل له ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أنت يا محمد وجميع الخلائق ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فاللَّه يعلم من علمه بما شاء ويدع ما شاء، ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك، ثم لا ناصر لك منه، أي فليس بعظيم أن لا تجيء بتفسير في الروح الذي أردت أن تفسره للناس ووعدتهم بذلك»[2].

قال ابن عاشور: «هذا متصل بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾[3]، الآية أفضت إليه المناسبة فإنه لما تضمن قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[4]، تلقينَ كلمة علم جامعة، وتضمن أن الأمة أوتيت علمًا ومُنعت علمًا، وأن علم النبوءة من أعظم ما أوتيته، أعقب ذلك بالتنبيه إلى الشكر على نعمة العلم دفعًا لغرور النفس؛ لأن العلم بالأشياء يكسبها إعجابًا بتميزها عمن دونها فيه، فأوقظت إلى أن الذي منح

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٥٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٢).

(٣) الإسراء: الآية (٨٢).

(٤) الإسراء: الآية (٨٥).

العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبي ﷺ لأن علمه أعظم علم، فإذا كان وجود علمه خاضعًا لمشيئة اللَّه فما الظن بعلم غيره، تعريضًا لبقية العلماء، فالكلام صريحُه تحذير»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في رفع القرآن في آخر الزمان

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة وآخر ما يبقى الصلاة وأن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يرفع، قالوا: وكيف يرفع وقد أثبته اللَّه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ قال: يسري عليه ليلة فيذهب ما في قلوبكم وما في مصاحفكم، ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[٢].

* عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسْرَى عَلَى كتاب اللَّه عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا اللَّه فنحن نقولها**»[٣].

★ غريب الحديث:

يُدْرَس: من درس إذا عفا وهلك، ومن درس الثوب درسًا إذا صار عتيقًا.

وَشْيُ الثَّوْب: نقشه.

لَيُسْرَى: ليذهب.

★ فوائد الحديثين:

قال الشيخ الألباني رحمه الله: «في هذا الحديث نبأ خطير، وهو أنه سوف يأتي يوم على الإسلام يمحى أثره، وعلى القرآن فيرفع، فلا يبقى منه ولا آية واحدة، وذلك

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه: عبدالرزاق (٣/ ٣٦٣/ ٥٩٨١)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٤١/ ٨٦٩٨)، والحاكم (٤/ ٥٠٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٥١-٥٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٩).

(٣) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٣٤٤/ ٤٠٤٩) وقال البوصيري في الزوائد: إسناد صحيح. رجاله ثقات. والحاكم (٤/ ٥٠٥) وقال: صحيح على شرط مسلم. وقوى إسناد ابن ماجه الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ١٩).

لا يكون قطعا إلا بعد أن يسيطر الإسلام على الكرة الأرضية جميعها، وتكون كلمته فيها هي العليا، كما هو نص قول اللَّه -تبارك وتعالى-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[1]، وكما شرح رسول اللَّه ﷺ ذلك في أحاديث كثيرة..

وما رفع القرآن في آخر الزمان إلا تمهيدا لإقامة الساعة على شرار الخلق، الذين لا يعرفون شيئًا من الإسلام البتة، حتى ولا توحيده!

وفي الحديث: إشارة إلى عظمة القرآن، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه، وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه. ولذلك تعهد اللَّه -تبارك وتعالى- بحفظه إلى أن يأذن اللَّه برفعه»[2].

* * *

---

(١) الصف: الآية (٩).

(٢) السلسلة الصحيحة (١/ ١٧٣) تحت عنوان: تدارسوا القرآن قبل رفعه.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾. بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن فضله على نبيه ﷺ كبير.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[2]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبين تعالى في موضع آخر: أن فضله كبير على جميع المؤمنين، وهو قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[4]، وبين المراد بالفضل الكبير في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[5]»[6].

قال ابن جرير: «يقول ﷻ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ﴾ يا محمد ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ولكنه لا يشاء ذلك، رحمة من ربك وتفضلا منه عليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ باصطفائه إياك لرسالته، وإنزاله عليك كتابه، وسائر نعمه عليك التي لا تحصى»[7].

قال القرطبي: « ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك، فهو استثناء ليس من الأول.

---

(١) النساء: الآية (١١٣).
(٢) الفتح: الآيات (١-٣).
(٣) الشرح: الآيات (١-٤).
(٤) الأحزاب: الآية (٤٧).
(٥) الشورى: الآية (٢٢).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٨٣).
(٧) جامع البيان (١٥/ ١٥٨).

وقيل: إلا أن يرحمك ربك فلا يذهب به. ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلك سيد ولد آدم، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتاب العزيز»[1].

قال الرازي: «﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من اللَّه ببقاء القرآن على أنه تعالى منَّ على جميع العلماء بنوعين من المنة. أحدهما: تسهيل ذلك العلم عليه. الثاني: إبقاء حفظه عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ فيه قولان: الأول: المراد أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك. الثاني: المراد أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم، وختم بك النبيين، وأعطاك المقام المحمود، فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضًا بإبقاء العلم والقرآن عليك»[2].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢١٠-٢١١).
(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٤-٥٥).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

⋆ غريب الآية:

ظهيرًا: معينًا ونصيرًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له»[1].

قال ابن عطية: «نزلت هذه الآية المصرحة بالتعجيز، المعلمة بأن جميع الخلائق لو تعاونوا إنسًا وجنًّا على ذلك لم يقدروا عليه، والعجز في معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلة ذلك الإحاطة التي لا يتصف بها إلا الله ﷻ، والبشر مقصر ضرورةً بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص»[2].

وقال: «وفهمت العرب بخلوص فهمها في ميز الكلام ودربتها به ما لا نفهمه نحن، ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورة ومشاهدة، وعلمه الناس بعدهم استدلالًا ونظرًا، ولكل حصل علم قطعي، لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابة شرع النبي وأعماله مشاهدة علم ضرورة، وعلمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل التواتر، فحصل للجميع القطع، لكن في مرتبتين، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في ميز الكلام،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٥).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٣).

ألا ترى إلى فهم الفرزدق شعر جرير في شعر ذي الرمة في قوله: يُعد الناسبون إلى تميم.

الأبيات كلها، وألا ترى قصة جرير في نوادره مع الفرزدق: في قول الفرزدق: عَلاَمَ تَلَفَّتِين، وفي قوله: تلفت أنها تحت ابن قين..

ومن فهمهم: أنهم ببدائههم يأتون بكلمة منثورة تفضل المنقح من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أجوبتهم المسكتة إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة، وكونهم فيها النهاية، كما كان السحر في زمن موسى، والطب في زمن عيسى، فهم مع هذه الأفهام أقروا بالعجز، ولجأ المحاد منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسبا وكشف الحرم، وهو كان يجد المندوحة عن ذلك بالمعارضة، وكذلك التحدي بالعشر السور، والتحدي بالسورة إنما وقع كله على حد واحد في النظم خاصة، وقيد العشر بالافتراء لأنهم ذكروا أن القرآن مفترى، فدعاهم بعقب ذكر ذلك إلى الإتيان بعشر سور مفتريات، ولم يذكر الافتراء في السورة لأنه لم يجر عنهم ذكر ذلك قبل، بل قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾[1] على أنه قد جاء ذكر السورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود، وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقيل دعوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف ما لا يطاق، فلما عسر عليهم خفق بالدعوة إلى المفتريات، وقيل غير هذا مما ينحل عند تحصيله»[2].

قال السعدي: «وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى اللَّه الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه.

ووقع كما أخبر اللَّه، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه. فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعًا وكرهًا، وعجزوا عن معارضته.

---

(١) البقرة: الآية (٢٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٣-٤٨٤).

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادًا، والأشجار كلها أقلام، لنفد المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلمات اللَّه.

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلا لله في أوصافه فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله -تبارك وتعالى-.

فَتَبًّا لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمدًا ﷺ افتراه على اللَّه واختلقه من نفسه»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٣-٣١٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما تحدى اللَّه بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام، مدمجًا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثَل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه، وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، احتجاجًا بذلك كله عليهم، وتذكيرا لهم، وتنبيها على الحقّ ليتبعوه ويعملوا به ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يقول: فأبى أكثر الناس إلا جحودا للحقّ، وإنكارا لحجج اللَّه وأدلته»[2].

قال السعدي: «يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثنينا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم، الذين سبقت لهم من اللَّه سابقة السعادة، وأعانهم اللَّه بتوفيقه، وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفورًا لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة»[3].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار، من الآيات والعبر والترغيب

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٤).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٥٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣١٤).

والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ يريد أهل مكة، بين لهم الحق وفتح لهم وأمهلهم حتى تبين لهم أنه الحق، فأبوا إلا الكفر وقت تبين الحق.

قال المهدوي: ولا حجة للقدري في قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبى فعل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بحكم اللَّه عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢١٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

★ غريب الآية:

تفجر: أي: تشق شقوقا تنبع منه المياه.

ينبوعًا: الينبوع: العين التي يخرج منها الماء.

كِسَفًا: الكسف جمع كسفة، كَقِطْعَةٍ وقِطَعٍ وزنًا ومعنىً.

قبيلًا: أي: جميعًا، وقيل: كفيلًا.

زخرف: الزخرف: الزينة، وأصله الذهب، ثم أطلق على كل ما يتزين به.

ترقى: أي: تصعد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين اللَّه -جل وعلا- في هذه الآيات الكريمة شدة عناد الكفار وتعنتهم، وكثرة اقتراحاتهم لأجل التعنت لا لطلب الحق.. وهذا التعنت والعناد العظيم الذي ذكره -جل وعلا- عن الكفار هنا بينه في مواضع أخر. وبين أنهم لو فعل اللَّه ما اقترحوا ما آمنوا؛ لأن من سبق عليه الشقاء لا يؤمن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا

---

(١) الأنعام: الآية (٧).

لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(١)، وقوله: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾(٤)، والآيات بمثل هذا كثيرة.

وقوله في هذه الآية ﴿كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ أي كتابًا من اللَّه إلى كل رجل منا.

ويوضح هذا قوله تعالى في المدثر: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾(٥)، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾(٦). وقوله في هذه الآيةالكريمة: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ أي تنزيهًا لربي -جل وعلا- عن كل ما لا يليق به، ويدخل فيه تنزيهه عن العجز عن فعل ما اقترحتم. فهو قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، وأنا بشر أتبع ما يوحيه إلي ربي.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾(٧)، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾(٨). وكقوله تعالى عن جميع الرسل: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾(٩)، إلى غير ذلك من الآيات»(١٠).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال يا محمد، المشركون باللَّه من قومك لك: لن نصدّقك، حتى تفجر لنا من أرضنا هذه عينا تنبع لنا بالماء»(١١).

وقال: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وقال لك يا محمد مشركو قومك: لن نصدّقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا، تَدفَّق بالماء أو تفور، أو يكون لك بستان، وهو الجنة، من نخيل وعنب، فتفجِّر الأنهار خلالها تفجيرا بأرضنا هذه

---

(١) الأنعام: الآية (١١١).
(٢) الحجر: الآيتان (١٤-١٥).
(٣) الأنعام: الآية (١٠٩).
(٤) يونس: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٥) المدثر: الآية (٥٢).
(٦) الأنعام: الآية (١٢٤).
(٧) الكهف: الآية (١١٠).
(٨) فصلت: الآية (٦).
(٩) إبراهيم: الآية (١١).
(١٠) أضواء البيان (٣/ ١٨٣-١٨٥).
(١١) جامع البيان (١٥/ ١٥٩).

التي نحن بها خلالها، يعني: خلال النخيل والكروم، ويعني بقوله ﴿خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ بينها في أصولها تفجيرًا بسبب أبنيتها»(١).

وقال: «اختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿كِسَفًا﴾ فقرأته عامّة قرّاء الكوفة والبصرة بسكون السين، بمعنى: أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا، وذلك أن الكِسف في كلام العرب: جمع كِسْفة، وهو جمع الكثير من العدد للجنس، كما تجمع السِّدْرة بسِدْر، والتمرة بتمر، فحُكي عن العرب سماعا: أعطني كِسفة من هذا الثوب: أي قطعة منه، يقال منه: جاءنا بثريد كسف: أي قطع خبز، وقد يحتمل إذا قرئ كذلك (كِسْفًا) بسكون السين أن يكون مرادا به المصدر من كسف. فأما الكِسَف بفتح السين، فإنه جمع ما بين الثلاث إلى العشر، يقال: كِسَفة واحدة، وثلاث كِسَف، وكذلك إلى العشر، وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل المدينة وبعض الكوفيين ﴿كِسَفًا﴾ بفتح السين بمعنى: جمع الكِسْفة الواحدة من الثلاث إلى العشر، يعني بذلك قِطَعا: ما بين الثلاث إلى العشر.

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأه بسكون السين؛ لأن الذين سألوا رسول اللَّه ﷺ ذلك، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أن يكون بحدّ معلوم من القطع، إنما سألوا أن يُسقط عليهم من السماء قِطَعا، وبذلك جاء التأويل أيضًا عن أهل التأويل»(٢).

وقال: «يقول -تعالى ذكره- عن قيل المشركين لنبيّ اللَّه ﷺ: أو تأتي باللَّه يا محمد والملائكة قبيلًا. واختلف أهل التأويل في معنى القبيل في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: حتى يأتي اللَّه والملائكة كلٍّ قبيلة منا قبيلة قبيلة، فيعاينونهم..

وقال آخرون: معنى ذلك: أو تأتي باللَّه والملائكة عيانا نقابلهم مقابلة، فنعاينهم معاينة..

وأشبه الأقوال في ذلك بالصواب، القول الذي قاله قتادة من أنه بمعنى المعاينة، من قولهم: قابلت فلانا مقابلة، وفلان قبيل فلان، بمعنى قبالته، كما قال الشاعر:

(١) جامع البيان (١٥/ ١٦٠).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٦٠-١٦١).

نُصَالِحُكُمْ حتى تَبُوءُوا بِمِثْلِها كصَرْخَةِ حُبْلَى يَسَّرَتْها قَبِيلُها

يعني: قابِلَتها»[١].

وقال: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن المشركين الذين ذكرنا أمرهم في هذه الآيات: أو يكون لك يا محمد بيت من ذهب، وهو الزخرف..

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: أو تصعد في درج إلى السماء، وإنما قيل في السماء، وإنما يرقى إليها لا فيها؛ لأن القوم قالوا: أو ترقى في سلم إلى السماء، فأدخلت «في» في الكلام ليدلّ على معنى الكلام، يقال: رَقِيت في السلم، فأنا أرقَى رَقيا ورِقيا ورُقيا، كما قال الشاعر:

أنتَ الَّذِي كَلَّفْتَنِي رَقْيَ الدَّرَج عَلى الكلالِ والمَشِيبِ والعَرَجِ

وقوله: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ يقول: ولن نصدّقك من أجل رُقِيك إلى السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ منشورا نَقْرَؤُهُ فيه أمرنا باتباعك والإيمان بك..

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، القائلين لك هذه الأقوال، تنزيها لله عما يصفونه به، وتعظيما له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألونيه ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يقول: هل أنا إلا عبد من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد اللَّه الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره. وهذا الكلام الذي أخبر اللَّه أنه كلّم به رسول اللَّه ﷺ فيما ذكر كان من ملإ من قريش اجتمعوا لمناظرة رسول اللَّه ﷺ ومحاجّته، فكلّموه بما أخبر اللَّه عنهم في هذه الآيات»[٢].

قال ابن كثير: «وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له، لو علم اللَّه منهم أنهم يسألون ذلك استرشادًا لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرًا وعنادًا، فقيل للرسول: إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «**بل تفتح عليهم**

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٦١-١٦٢).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٦٣-١٦٤).

باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضًا، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عينًا معينًا في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(٤).

وقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفًا أي: قطعًا، كقولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٥)، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٦). فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبيّ الرحمة، ونبيّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئًا. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، حتى

---

(١) الإسراء: الآية (٥٩).
(٢) الفرقان: الآيات (٧-١١).
(٣) يونس: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٤) الأنعام: الآية (١١١).
(٥) الأنفال: الآية (٣٢).
(٦) الشعراء: الآية (١٨٧).

عبد اللَّه بن أبي أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلامًا تامًا، وأناب إلى اللَّه ﷻ.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو في قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال مجاهد: أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من اللَّه لفلان بن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه.

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى اللَّه ﷻ»[1].

قال ابن عاشور: «وخصوا هذه الجنة بأن تكون له؛ لأن شأن الجنة أن تكون خاصة لملك واحد معين، فأروه أنهم لا يبتغون من هذا الاقتراح نفع أنفسهم ولكنهم يبتغون حصوله، ولو كان لفائدة المقترح عليه. والمقترح هو تفجير الماء في الأرض القاحلة، وإنما ذكروا وجود الجنة تمهيدًا لتفجير أنهار خلالها، فكأنهم قالوا: حتى تفجر لنا ينبوعًا يسقي الناس كلهم، أو تفجر أنهارًا تسقي جنة واحدة تكون تلك الجنة وأنهارها لك. فنحن مقتنعون بحصول ذلك لا بغية الانتفاع منه. وهذا كقولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾.

وذكر المفعول المطلق بقوله: ﴿تَفْجِيرًا﴾ للدلالة على التكثير؛ لأن ﴿تُفَجِّرَ﴾ قد كفى في الدلالة على المبالغة في الفَجْر، فتعين أن يكون الإتيان بمفعوله المطلق للمبالغة في العدد، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[2]، وهو المناسب لقوله: ﴿خِلَالَهَا﴾؛ لأن الجنة تتخللها شعب النهر لسقي الأشجار. فجمع الأنهار باعتبار تشعب ماء النهر إلى شعب عديدة. ويدل لهذا المعنى إجماع القراء على قراءة ﴿فَتُفَجِّرَ﴾ هنا بالتشديد مع اختلافهم في الذي قبله. وهذا من لطائف معاني

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧-١١٨).

(٢) الإسراء: الآية (١٠٦).

القراءات المروية عن النبي ﷺ فهي من أفانين إعجاز القرآن.

وقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ انتقال من تحديه بخوارق فيها منافع لهم إلى تحديه بخوارق فيها مضرتهم، يريدون بذلك التوسيع عليه؛ أي: فليأتهم بآية على ذلك ولو في مضرتهم. وهذا حكاية لقولهم كما قالوا. ولعلهم أرادوا به الإغراق في التعجيب من ذلك فجمعوا بين جعل الإسقاط لنفس السماء، وعززوا تعجيبهم بالجملة المعترضة وهي ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إنباء بأن ذلك لا يصدق به أحد. وعنوا به قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[(١)]، وبقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[(٢)]، إذ هو تهديد لهم بأشراط الساعة وإشرافهم على الحساب»[(٣)].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزًا، وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ، فحينئذ تم الدليل على كونه نبيًّا صادقًا؛ لأنا نقول: إن محمدًا ادعى النبوة وظهر المعجز على وفق دعواه، وكل من كان كذلك فهو نبي صادق، فهذا يدل على أن محمدًا ﷺ صادق وليس من شرط كونه نبيًّا صادقًا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها؛ لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع، وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزًا آخر، ولا ينتهي الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين، وتغلب الجاهلين»[(٤)].

قال السعدي: «ولما كانت هذه تعنتات وتعجيزات؛ وكلام أسفه الناس وأظلمهم، المتضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع اللّه، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره اللّه أن ينزهه فقال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علوًّا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة. ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ليس بيده شيء من الأمر»[(٥)].

قال ابن عاشور: «ولما كان اقتراحهم اقتراح مُلاجّة وعناد؛ أمره اللّه بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ التي تستعمل في

---

(١) سبأ: الآية (٩).

(٢) الطور: الآية (٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٥٧).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٣١٥).

التعجب كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصرَ نفسه على البشرية والرسالة قصرًا إضافيًّا، أي لستُ ربًّا متصرفًا أخلق ما يُطلب مني، فكيف آتي باللَّه والملائكة، وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها»[١].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٠-٢١١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾: هذا المانع المذكور هنا عادي؛ لأنه جرت عادة جميع الأمم باستغرابهم بعث اللّه رسلًا من البشر؛ كقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[(١)] الآية، وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[(٢)] الآية، وقوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[(٤)]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[(٥)]، إلى غير ذلك من الآيات.

والدليل على أن المانع في هذه الآية عادي: أنه تعالى صرح بمانع آخر غير هذا في سورة الكهف وهو قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾[(٦)]، فهذا المانع المذكور في الكهف مانع حقيقي؛ لأن من أراد اللّه به سنة الأولين: من الإهلاك، أو أن يأتيه العذاب قبلًا فإرادته به ذلك مانعة من خلاف المراد. لاستحالة أن يقع خلاف مراده -جل وعلا-. بخلاف المانع في آية بني إسرائيل هذه، فهو مانع عادي يصح تخلفه»[(٧)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما منع يا محمد مشركي قومك الإيمان باللّه، وبما جئتهم به من الحقّ ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يقول: إذ جاءهم البيان من عند اللّه بحقيقة ما تدعوهم وصحة ما جئتهم به، إلا قولهم جهلًا منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾»[(٨)].

---

(١) إبراهيم: الآية (١٠).
(٢) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٣) القمر: الآية (٢٤).
(٤) التغابن: الآية (٦).
(٥) المؤمنون: الآية (٣٤).
(٦) الكهف: الآية (٥٥).
(٧) أضواء البيان (٣/ ١٨٥-١٨٦).
(٨) جامع البيان (١٥/ ١٦٦).

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته البشر رسلًا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[(٢)]، وقال فرعون وملؤه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[(٣)]، وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[(٤)]، والآيات في هذا كثيرة»[(٥)].

قال ابن عاشور: «بعد أن عُدّت أشكال عنادهم ومَظاهر تكذيبهم؛ أُعقبت ببيان العلة الأصلية التي تبعث على الجحود في جميع الأمم، وهي توهمهم استحالة أن يبعث اللَّه للناس برسالة بشرًا مثلهم. فذلك التوهم هو مثار ما يأتونه من المعاذير، فالذين هذا أصل معتقدهم لا يرجى منهم أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية، وما قصدهم من مختلف المقترَحات إلا إرضاءُ أوهامهم بالتنصل من الدخول في الدين، فلو أتاهم الرسول بما سألوه لانتقلوا فقالوا: إن ذلك سحر، أو قلوبنا غلف، أو نحو ذلك. ومع ما في هذا من بيان أصل كفرهم هو أيضًا رد بالخصوص لقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[(٦)] ورد لقولهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[(٧)] إلى آخره.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ يقتضي بصريحه أنهم قالوا بألسنتهم وهو مع ذلك كناية عن اعتقادهم ما قالوه. ولذلك جعل قولهم ذلك مانعًا من أن يؤمنوا؛ لأن اعتقاد قائليه يمنع من إيمانهم بضده، ونطقهم بما يعتقدونه يمنع من يسمعونهم من متبعي دينهم.

وإلقاء هذا الكلام بصيغة الحصر وأداة العموم؛ جعله تذييلًا لما مضى من حكاية تفننهم في أساليب التكذيب والتهكم»[(٨)].

---

(١) يونس: الآية (٢).
(٢) التغابن: الآية (٦).
(٣) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٤) إبراهيم: الآية (١٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٩).
(٦) الإسراء: الآية (٩٢).
(٧) الإسراء: الآية (٩٣).
(٨) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١١-٢١٢).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية: أن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم، فلو كان مرسلًا رسولًا إلى الملائكة لنزل عليهم ملكًا مثلهم. أي وإذا أرسل إلى البشر أرسل لهم بشرًا مثلهم.

وقد أوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولًا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[7]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

---

(١) الأنعام: الآيتان (٨-٩).
(٢) الأنبياء: الآية (٧).
(٣) الفرقان: الآية (٢٠).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٨٦).
(٥) آل عمران: الآية (١٦٤).
(٦) التوبة: الآية (١٢٨).
(٧) البقرة: الآيتان (١٥١-١٥٢).

ﵟٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗاﵞ أي: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أبوا الإيمان بك وتصديقك فيما جئتهم به من عندي، استنكارًا لأن يبعث اللَّه رسولًا من البشر: ﵟلَّوۡ كَانَﵞ أيها الناس ﵟفِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗاﵞ لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة، ومن خصّه اللَّه من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل، وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بهيئاتهم التي خلقهم اللَّه بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، ثم أرسلنا إليهم رسولًا أرسلناه منهم ملكًا مثلهم»[2].

قال ابن عاشور: «ﵟلَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَﵞ الآية، فاختص اللَّه رسوله محمدًا ﷺ باجتثاث هذه الشبهة من أصلها اختصاصًا لم يُلقنه من سَبق من الرسل، فإنهم تلقوا تلك الشبهة باستنصار اللَّه تعالى على أقوامهم فقال عن نوح: ﵟقَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَﵞ[3].

وقال مثله عن هود وصالح، وقال عن موسى وهارون: ﵟفَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَﵞ[4]، فقد ادخر اللَّه لرسوله قواطع الأدلة على إبطال الشرك وشبه الضلالة بما يناسب كونه خاتم الرسل»[5].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٩).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) الشعراء: الآيتان (١١٧-١١٨).

(٤) المؤمنون: الآية (٤٨).

(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٢-٢١٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مرشدًا نبيه إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذبًا انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة»(٢).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه: قل يا محمد للقائلين لك ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه نعم الكافي والحاكم ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ يقول: إن اللّه بعباده ذو خبرة وعلم بأمورهم وأفعالهم، والمحقّ منهم والمُبطل، والمُهدى والضالّ ﴿بَصِيرًا﴾ بتدبيرهم وسياستهم وتصريفهم فيما شاء، وكيف شاء وأحبّ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، وهو مجازٍ جميعَهم بما قدّم عند ورودهم عليه»(٣).

* * *

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٩-١٢٠).

(٣) جامع البيان (١٥/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

★ غريب الآية:

خَبَت: أي: سكن لهيبها، يقال: خبت النار؛ أي: انطفأ لهيبها وسكن حرها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ يا محمد للإيمان به، ولتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك، فوفَّقه لذلك، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الرشيد المصيب الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده. ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يقول: ومن يضلله اللَّه عن الحقّ، فيخذله عن إصابته، ولم يوفقه للإيمان باللَّه وتصديق رسوله، فلن تجد لهم يا محمد أولياء ينصرونهم من دون اللَّه، إذا أراد اللَّه عقوبتهم والاستنقاذ منهم.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقول: ونجمعهم بموقف القيامة من بعد تفرقهم في القبور عند قيام الساعة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا...﴾.

فإن قال قائل: وكيف وصف اللَّه هؤلاء بأنهم يحشرون عميا وبكما وصُمّا، وقد قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾(1)، فأخبر أنهم يرون، وقال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(2)، فأخبر أنهم يسمعون وينطقون؟ قيل: جائز أن يكون ما وصفهم اللَّه به من العَمى والبكم والصمم يكون صفتهم في حال حشرهم إلى موقف القيامة، ثم يجعل لهم أسماع وأبصار ومنطق في أحوال أُخَر غير حال الحشر، ويجوز أن يكون ذلك، كما روي

(1) الكهف: الآية (٥٣).
(2) الفرقان: الآيات (١٢-١٤).

عن ابن عباس في الخبر الذي حدثنيه عليّ بن داود، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ ثم قال: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾[1] وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[2] وقال: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[3] أما قوله: ﴿عُمْيًا﴾ فلا يرون شيئًا يسرّهم، وقوله: ﴿وَبُكْمًا﴾ لا ينطقون بحجة، وقوله: ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمعون شيئًا يسرّهم، وقوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يقول جلّ ثناؤه: ومصيرهم إلى جهنم، وفيها مساكنهم، وهم وَقُودها»[4].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[5].

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهبًا ووهجًا وجمرًا، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[6]»[7].

قال ابن عاشور: «والحشر: جمع الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد. ولما كان ذلك يستدعي مشيهم عُدي الحشر بحرف (على) لتضمينه معنى (يمشون). وقد فهم الناس ذلك من الآية فسألوا النبي ﷺ كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم. والمقصود من ذلك الجمعُ بين التشويه والتعذيب؛ لأن الوجه أرق تحملًا لصلابة الأرض من الرجل.

وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روّجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حولت وجوههم أعضاءَ مشيٍ عِوضًا عن الأرجل. ثم كانوا ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، ﴿وَصُمًّا﴾ جزاء امتناعهم من سماع الحق، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي

---

(١) الكهف: الآية (٥٣).
(٢) الفرقان: الآية (١٢).
(٣) الفرقان: الآية (١٣).
(٤) جامع البيان (١٥/ ١٦٧-١٦٨).
(٥) الكهف: الآية (١٧).
(٦) النبأ: الآية (٣٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٠-١٢١).

أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[1]. وقال عنهم: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2]، وقال عنهم: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3] أي: من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محرومًا من متعة النظر. وهذه حالتهم عند الحشر»[4].

قال أبو السعود: «﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾أي: كلما سكن لهبُها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم، ولم يبق فيهم ما تتعلق به النارُ وتحرِقه؛ زدناهم توقدًا بأن بدّلناهم جلودًا غيرَها، فعادت ملتهبةً ومستعرةً، ولعل ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الفناءِ بتكريرها مرةً بعد أخرى ليرَوها عِيانًا حيث لم يعلموها برهانًا كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك العذابُ ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العقليةِ والنقليةِ الدالةِ على صحة الإعادةِ دَلالةً واضحةً»[5].

قال ابن القيم: «قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[6]، اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[7]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[8]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[9]، وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[10]، ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾[11]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[12]، وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾[13]، والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل

(١) فصلت: الآية (٥).
(٢) طه: الآيتان (١٢٥-١٢٦).
(٣) الإسراء: الآية (٧٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢١٧).
(٥) تفسير أبي السعود (٥/ ١٩٧).
(٦) طه: الآيتان (١٢٤-١٢٥).
(٧) مريم: الآية (٣٨).
(٨) ق: الآية (٢٢).
(٩) الفرقان: الآية (٢٢).
(١٠) التكاثر: الآيتان (٦-٧).
(١١) الشورى: الآية (٤٥).
(١٢) الطور: الآيات (١٣-١٥).
(١٣) الكهف: الآية (٥٣).

إلا عليه، لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾[1]، وهو لم يكن بصيرًا في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2]، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لمّا أعرض عن الذكر الذي بعث اللّه به رسوله، وعميت عنه بصيرته، أعمى اللّه بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكرَه تركه في العذاب، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ وقد قيل: في هذه الآية أيضًا أنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[3]، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نصر أنّ العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق، قال بعضهم: هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لا يرون شيئًا يسرهم، وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد، وهذا مروي عن الحسن، وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سُلِبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب -تبارك وتعالى-: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[4]، فحينئذ ينقطع الرجاء، وتبكم عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكمًا صمًّا، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل. والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمي عنها، بل هم عمي عن الهدى، كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان

---

(١) طه: الآية (١٢٥).

(٢) طه: الآية (١٢٦).

(٣) طه: الآية (١٢٤).

(٤) المؤمنون: الآية (١٠٨).

يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة حشر الكافر غدا يوم القيامة

* عن قتادة حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا قال: يا نبي اللَّه يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: **أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**، قال قتادة: بلى وعزة ربنا[٢].

* عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنكم محشورون رجالًا وركبانًا، ويجرون على وجوههم**»[٣].

⋆ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: « قوله «**أليس الذي أمشاه.. الخ**» ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته فلذلك استغربوه حتى سألوا عن كيفيته، وزعم بعض المفسرين أنه مَثَل، وأنه كقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾[٤]، قال مجاهد: هذا مثل المؤمن والكافر، قلت: ولا يلزم من تفسير مجاهد لهذه الآية بهذا أن يفسر به الآية الأخرى، فالجواب الصادر عن النبي ﷺ ظاهر في تقرير المشي على حقيقته.

قوله: «**قال قتادة: بلى وعزة ربنا**» هو موصول بالسند المذكور. والحكمة في حشر الكافر على وجهه أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة إظهارًا لهوانه، بحيث صار وجهه مكان يده، ورجله في التوقي عن المؤذيات»[٥].

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٩)، والبخاري (٨/ ٦٣٠/ ٤٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦١/ ٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٠/ ١١٣٦٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣)، والترمذي (٥/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٣١٤٣) وقال: حديث حسن. والحاكم (٤/ ٥٦٤) وقال: حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٤) الملك: الآية (٢٢).

(٥) الفتح (١١/ ٤٦٥-٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي وصفنا من فعلنا يوم القيامة بهؤلاء المشركين، ما ذكرت أنا نفعل بهم من حشرهم على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا، وإصلائنا إياهم النار على ما بيَّنا من حالتهم فيها ثوابهم بكفرهم في الدنيا بآياتنا، يعني بأدلته وحججه، وهم رسله الذين دعوهم إلى عبادته، وإفرادهم إياه بالألوهة دون الأوثان والأصنام، وبقولهم إذا أُمروا بالإيمان بالميعاد، وبثواب اللَّه وعقابه في الآخرة ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ بالية ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قد صرنا ترابًا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ يقولون: نُبعث بعد ذلك خلقا جديدا، كما ابتدأناه أوّل مرّة في الدنيا استنكارًا منهم لذلك، واستعظامًا وتعجبًا من أن يكون ذلك»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية!»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ١٦٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢١).

قوله تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾: بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن من خلق السموات والأرض مع عظمهما قادر على بعث الإنسان بلا شك؛ لأن من خلق الأعظم الأكبر فهو على خلق الأصغر قادر بلا شك.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[1]، أي ومن قدر على خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر. وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ﴾[2]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ﴾[3]، وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[4]»[5].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ: أولم ينظر هؤلاء القائلون من المشركين ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ بعيون قلوبهم، فيعلمون أن اللَّه الذي خلق السموات والأرض، فابتدعها من غير شيء، وأقامها بقُدرته، ﴿قَادِرٌ﴾ بتلك القُدرة ﴿عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أشكالهم، وأمثالهم من الخلق بعد

(١) غافر: الآية (٥٧).
(٢) يس: الآية (٨١).
(٣) الأحقاف: الآية (٣٣).
(٤) النازعات: الآيات (٢٧-٣٣).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨٦).

فنائهم، وقبل ذلك، وأن من قدر على ذلك فلا يمتنع عليه إعادتهم خلقًا جديدًا، بعد أن يصيروا عظامًا ورُفاتًا، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعل اللَّه لهؤلاء المشركين أجلًا لهلاكهم، ووقتا لعذابهم لا ريب فيه. يقول: لا شكّ فيه أنه آتيهم ذلك الأجل ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ يقول: فأبى الكافرون إلا جحودا بحقيقة وعيده الذي أوعدهم وتكذيبا به»[1].

قال ابن عطية: «هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم قرروا على خلق اللَّه تعالى واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزء منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن يقروا بخلقه للكل، وإخراجه من خمول العدم، وينكرون إعادته للبعض؟ فحصل الأمر في حيز الجواز، وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز..

ومقصد هذا الكلام بيان قدرة اللَّه ﷻ وملكه لخلقه، وبتقرير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلا هو»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٥/ ١٦٩-١٧٠).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٧).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قَتُورًا: صيغة مبالغة، يقال: قترت الشيء وأقترته وقترته؛ أي: ضيقت الإنفاق فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية: أن بني آدم لو كانوا يملكون خزائن رحمته أي خزائن الأرزاق والنعم لبخلوا بالرزق على غيرهم، ولأمسكوا عن الإعطاء. خوفًا من الإنفاق لشدة بخلهم.

وبين أن الإنسان قتور: أي بخيل مضيّق، من قولهم: قتر على عياله، أي ضيق عليهم.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال. وعنى بالرحمة في هذا الموضع: المال ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ يقول: إذن لَبَخِلْتُمْ بِهِ فَلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار..

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ يقول: وكان الإنسان بخيلا ممسكا»[4].

---

(١) النساء: الآية (٥٣).
(٢) المعارج: الآيات (١٩-٢٢).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨٦-١٨٧).
(٤) جامع البيان (١٥/ ١٧٠).

قال الرازي: «إن الكفار لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[١]، طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم، فبين اللّٰه تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة اللّٰه لبقوا على بخلهم وشحهم، ولما أقدموا على إيصال النفع إلى أحد، وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه، فهذا هو الكلام في وجه النظم، واللّٰه أعلم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على النفقة بالليل والنهار

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللّٰه قال لي أنفق، أنفق عليك**» وقال رسول اللّٰه ﷺ: «**يمين اللّٰه ملأى لا يغيضها سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه**»، قال: «**وعرشه على الماء، وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرحه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٤] الآية.

* * *

---

(١) الإسراء: الآية (٩٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١/ ٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩/ ٤٦٨٤) ومسلم (٢/ ٦٩١/ ٩٩٣[٣٧])، وأخرج طرفه الأول: أحمد (٢/ ٢٤٢) وابن ماجه بإثر الحديث (١/ ٦٨٦/ ٢١٢٣) وأخرج طرفه الثاني: أحمد (٢/ ٥٠٠) والبخاري (١٣/ ٤٩٧/ ٧٤١٩) والترمذي (٥/ ٢٣٤/ ٣٠٤٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٣٩) وابن ماجه (١/ ٧١/ ١٩٧).

(٤) الإسراء: الآية (٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قال بعض أهل العلم: هذه الآيات التسع، هي: العصا، واليد، والسنون. والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات.

وقد بين -جل وعلا- هذه الآيات في مواضع أخر. كقوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2]، وقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3]، وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[4]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة لما ذكرنا.

وجعل بعضهم الجبل بدل «السنين» وعليه فقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[5]، ونحوها من الآيات»[6].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هي اليد، والعصا، والخمس في الأعراف، والطَّمْسَة والحجر.

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٠٧-١٠٨).
(٢) الأعراف: الآية (١٣٠).
(٣) الشعراء: الآية (٦٣).
(٤) الأعراف: الآية (١٣٣).
(٥) الأعراف: الآية (١٧١).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٨٧).

وقال ابن عباس أيضًا، ومجاهد، وعكرمة والشعبي، وقتادة: هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[١] أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا، وما نجعت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[٢]، إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء اللَّه، كما قال فرعون لموسى -وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات- قال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. واللَّه تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة هاهنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[٣]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتي موسى، عليه السلام، آيات أخرَ كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا»[٤].

قال ابن عطية: «والذي يلزم من الآية أن اللَّه تعالى خص من آيات موسى -إذ هي كثيرة جدًّا تنيف على أربع وعشرين- تسعًا بالذكر، ووصفها بالبيان ولم يعينها،

---

(١) الأعراف: الآية (١٣٣). (٢) الإسراء: الآية (٩٠).
(٣) النمل: الآيات (١٠-١٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٢-١٢٣).

واختلف العلماء في تعيينها بحسب اجتهادهم في بيانها، أو روايتهم التوقيف في ذلك»[١].

قال الرازي: «قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فيه مباحث:

البحث الأول: فيه وجوه: الوجه الأول: أنه اعتراض دخل في الكلام، والتقدير: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إذ جاء بني إسرائيل فاسألهم، وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم، بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد. والوجه الثاني: أن يكون قوله ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي سلهم عن فرعون. وقل له أرسل معي بني إسرائيل. والوجه الثالث: سل بني إسرائيل أي سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الإيمان الصالح. وعلى هذا التأويل فالتقدير: فقلنا له سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك.

البحث الثاني: أمر رسول اللَّه ﷺ بأن يسأل بني إسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي ﷺ، والذين جاءهم موسى -عليه الصلاة والسلام- هم الذين كانوا في زمانه، إلا أن الذين كانوا في زمان محمد ﷺ لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية. ثم أخبر تعالى أن فرعون قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وفي لفظ المسحور وجوه: الأول: قال الفراء: إنه بمعنى الساحر كالمشؤوم والميمون، وذكرنا هذا في قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٢]. الثاني: أنه مفعول من السحر أي أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب. الثالث: قال محمد بن جرير الطبري معناه أعطيت علم السحر، فهذه العجائب التي تأتي بها من ذلك السحر»[٣].

* * *

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٨).

(٢) الإسراء: الآية (٤٥).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١/ ٦٥-٦٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بَصَائِرَ: حججا واضحة.

مَثْبُورا: هالكًا، وقيل: ناقص العقل، وقيل: ملعونًا مطرودًا، والثبور: اللعن والطرد والهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر: أي: حججًا واضحة، وذلك يدل على أن قول فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾[1]، وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2] كل ذلك منه تجاهل عارف.

وقد أوضح -جل وعلا- هذا المعنى مبينًا سبب جحوده لما علمه في سورة النمل بقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «قال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: حججًا وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكًا. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس: ملعونًا. وقال أيضًا هو والضحاك: ﴿مَثْبُورًا﴾ أي: مغلوبًا. والهالك -كما قال مجاهد- يشمل

(١) طه: الآية (٤٩).
(٢) الشعراء: الآية (٢٣).
(٣) النمل: الآيات (١٢-١٤).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٨٧-١٨٨).

هذا كله، قال عبد اللَّه بن الزبعرى:

إذْ أجَارِي الشَّيطانَ في سَنن الغـ ـيِّ وَمَـنْ مَـالَ مَـيْـلـهُ مَـثْـبُـور

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: «علمت» وروي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]»[2].

قال ابن عطية: «روي عن علي بن أبي طالب ﵁ وغيره أنه قرأ «**علمتُ**» بتاء المتكلم مضمومة، وقال ما علم عدو اللَّه قط، وإنما علم موسى، وتتقوى هذه القراءة لمن تأول ﴿مَسْحُورًا﴾[3] على بابه، فلما رماه فرعون بأنه قد سحر ففسد نظره وعقله وكلامه، رد هو عليه بأنه يعلم آيات اللَّه، وأنه ليس بمسحور، بل محرر لما يأتي به، وهي قراءة الكسائي، وقرأ الجمهور ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بتاء المخاطب مفتوحة، فكأن موسى ﵇ رماه بأنه يكفر عنادًا، ومن قال بوقوع الكفر عنادًا فله تعلق بهذه الآية، وجعلها كقوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[4]، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس، ونحا إلى ذلك الزجاج، وهي معرضة للاحتمال على أن يكون قول موسى ﵇ إبلاغًا على فرعون في التوبيخ، أي أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون، ومن يريد من الآية وقوع الكفر عنادًا فإنما يجعل هذا خبرًا من موسى عن علم فرعون، والإشارة بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى التسع الآيات، وقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ جمع بصيرة، وهي الطريقة أي طرائق يهتدي بها، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها، ونصب ﴿بَصَآئِرَ﴾ على الحال، و«**المثبور**» المهلك، قاله مجاهد، وقال ابن عباس والضحاك: هو المغلوب، وقال ابن زيد: هو المخبول، وروي عن ابن عباس أنه فسره بالملعون»[5].

قال الرازي: «واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورًا، أجابه موسى

---

(١) النمل: الآيتان (١٣-١٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٤).
(٣) الإسراء: الآية (١٠١).
(٤) النمل: الآية (١٤).
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٤٨٩).

بأنك مثبور. يعني هذه الآيات ظاهرة، وهذه المعجزات قاهرة، ولا يرتاب العاقل في أنها من عند اللَّه، وفي أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديقي وأنت تنكرها، فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا، ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور»[١].

* * *

(١) مفاتيح الغيب (٢١/ ٦٧).

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾

★ غريب الآية:

يَسْتَفِزَّهُم: أي: يزعجهم ويحركهم تحريكًا عنيفًا.

لَفِيفًا: منضمًّا بعضكم إلى بعض، من لففت الشيء إذا ضممته وجمعته متراكبًا بعضه على بعض لفًّا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأراد فرعون أن يستفز موسى وبني إسرائيل من الأرض، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ﴾ في البحر، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من جنده ﴿جَمِيعًا﴾، ونجَّينا موسى وبني إسرائيل، وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعد الآخرة، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا: أي مختلطين قد التفّ بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيِّه»(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُخْلِيهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة، مع أن السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٧٦-١٧٧).

رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾[1]؛ ولهذا أورث اللَّه رسوله مكة، فدخلها عُنْوَة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث اللَّه القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[2]، وقال هاهنا: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم»[3].

قال ابن عطية: «واقتَضَبَت هذه الآية قصص موسى مع فرعون، وإنما ذَكَرَت عظم الأمر وخطيره، وذلك طرفاه، أراد فرعونُ غلبتَهم وقتلهم وهذا كان بدء الأمر، فأغرقه اللَّه وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر، ثم ذكر تعالى أمر بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشام، و﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ هو يوم القيامة»[4].

* * *

(١) الإسراء: الآيتان (٧٦-٧٧).
(٢) الشعراء: الآية (٥٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٤).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه أنزل هذا القرآن بالحق: أي متلبسًا به متضمنًا له. فكل ما فيه حق. فأخباره صدق، وأحكامه عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾[١]، وكيف لا وقد أنزله -جل وعلا- بعلمه. كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾ يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل في طريق إنزاله.

لأن الرسول المؤتمن على إنزاله قوي لا يُغْلَبُ عليه حتى يُغَيَّر فيه، أمين لا يُغَيِّرُ ولا يبدل. كما أشار إلى هذا بقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[٤]، وقوله: في هذه الآية: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ أي: لتبليغه عن ربه. بدلالة لفظ الرسول لأنه يدل على أنه مرسل به»[٥].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين»[٦].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وبالحق أنزلنا هذا القرآن: يقول: أنزلناه نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة، والأمور المستحسنة الحميدة، وننهى فيه عن الظلم والأمور القبيحة، والأخلاق الردية، والأفعال الذّميمة ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ﴾ يقول: وبذلك نزل من عند اللّه على نبيّه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا

---

(١) الأنعام: الآية (١١٥).
(٢) النساء: الآية (١٦٦).
(٣) الشعراء: الآيتان (١٩٣-١٩٤).
(٤) التكوير: الآيات (١٩-٢١).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨٨).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٥).

محمد إلى من أرسلناك إليه من عبادنا، ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالجنَّة من أطاعنا، فانتهى إلى أمرنا وَنهينا، ومنذرا لمن عصانا وخالف أمرنا ونهينَا»[١].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾[٢]، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات، ثم أجاب اللَّه بأنه لا حاجة إلى إظهار سائر المعجزات، وبين ذلك بوجوه كثيرة، منها: أن قوم موسى -عليه الصلاة والسلام- آتاهم اللَّه تسع آيات بينات، فلما جحدوا بها أهلكهم اللَّه فكذا ها هنا، ثم إنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم، وذلك غير جائز في الحكمة، لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن، والذي لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنًا.

ولما تم هذا الجواب عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ والمعنى أنه ما أردنا بإنزاله إلا تقرير الحق والصدق، وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل.

وفي هذه الآية. . أن الحق هو الثابت الذي لا يزول كما أن الباطل هو الزائل الذاهب، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول، وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام، وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل أيضًا على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف، وأيضًا فهذا الكتاب كتاب تكفل اللَّه بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين؛ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣] فكان هذا الكتاب حقًا من كل الوجوه. .

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات، ويتمردون عن قبول دينك، لا شيء عليك من كفرهم، فإني ما أرسلتك إلا مبشرًا للمطيعين، ونذيرًا للجاحدين، فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به، وإلا فليس عليك من كفرهم شيء»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٥/ ١٧٧-١٧٨).
(٢) الإسراء: الآية (٨٨).
(٣) الحجر: الآية (٩).
(٤) مفاتيح الغيب (٢١/ ٦٨-٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فَرَقْنَاه: أي: فصلناه وبيَّنا فيه الأحكام.

مُكْث: المكث التطاول في المدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «بين -جل وعلا- أنه بين هذا القرآن لنبيه ليقرأه على الناس على مكث، أي مهل وتؤدة وتثبت، وذلك يدل على أن القرآن لا ينبغي أن يقرأ إلا كذلك. وقد أمر تعالى بما يدل على ذلك في قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1]، ويدل لذلك أيضًا قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2]»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجمًا على الوقائع إلى رسول اللَّه ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قرأ: فَرَّقْنَاهُ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بالتشديد؛ أي: أنزلناه آية آية، مبينًا مفسرًا؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: مَهَل ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئًا بعد شيء»[4].

قال ابن عاشور: «وانتصب ﴿قُرْءَانًا﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ مقدمة على صاحبها تنويهًا الكون قرآنًا، أي: كونه كتابًا مقروءًا. فإن اسم القرآن مشتق من القراءة، وهي التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ

---

(١) المزمل: الآية (٤).
(٢) الفرقان: الآية (٣٢).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٨٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٥).

ويتلى، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[١]، وقد تقدم بيانه. فهذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب، وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه هذه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[٢] وقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[٣] باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقًا، وإلى قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٤] في مقام كونه فارقًا بين الحق والباطل، ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غيرُ الكتاب المنزل على محمد ﷺ»[٥].

قال القرطبي: « ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي تطاول في المدة شيئًا بعد شيء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أي أنزلناه آية آية وسورة سورة. وأما على القول الأول فيكون ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي على ترسل في التلاوة وترتيل، قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج.

فيعطي القارئ القراءة حقها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن، من غير تلحين ولا تطريب مؤد إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كيفية نزول القرآن

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة وقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٧] قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٨].

★ **فوائد الحديث:**

---

(١) الحجر: الآية (١).
(٢) الإسراء: الآية (٧٨).
(٣) المزمل: الآية (٢٠).
(٤) الفرقان: الآية (١).
(٥) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٠-٢٣١).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢٠).
(٧) الفرقان: الآية (٣٣).
(٨) أخرجه: ابن جرير (١٥/ ١٧٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٦/ ٧٩٨٩ و٧٩٩٠)، والحاكم (٢/ ٣٦٨) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والبزار (الكشف ٣/ ٨٢/ ٢٢٩٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٢/ ١٢٣٨٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٤٠) وقال: رواه البزار والطبراني باختصار ورجال البزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني عمرو بن عبدالغفار وهو ضعيف.

قال ابن عطية: «واختلف أهل العلم في كم القرآن من المدة؟ فقيل: في خمس وعشرين سنة، وقال ابن عباس: في ثلاث وعشرين سنة، وقال قتادة: في عشرين سنة، وهذا بحسب الخلاف في سن رسول اللَّه ﷺ، وذلك أن الوحي بدأ وهو ابن أربعين، وتم بموته»[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

★ غريب الآية:

الأَذْقَان: جمع ذقن، والذقن ملتقى اللحيين، وعليه تنبت اللحية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: سواء آمنتم به أم لا؛ هو حق في نفسه، أنزله اللّه ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من صالحي أهل الكتاب الذين يُمَسّكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله ﷻ، شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلا إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب؛ ولهذا ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: تعظيمًا وتوقيرًا على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾»[1].

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ الآية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضرب من التوعد، والمعنى أنكم لستم بحجة، فسواء علينا آمنتم أم كفرتم، وإنما ضرّ ذلك على أنفسكم، وإنما الحجة أهل العلم من قبله وهم بالصفة المذكورة»[2].

قال ابن عاشور: «استئناف خطاب للنبي ﷺ، ليلقنه بما يقوله للمشركين الذين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩١).

لم يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند اللَّه، فإنه بعد أن أوضح لهم الدلائل على أن مثل ذلك القرآن لا يكون إلا منزلًا من عند اللَّه من قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾[1] فعجزوا عن الإتيان بمثله، ثم ببيان فضائل ما اشتمل عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾[2]، ثم بالتعرض إلى ما اقترحوه من الإتيان بمعجزات أخر، ثم بكشف شبهتهم التي يموهون بها امتناعهم من الإيمان برسالة بشَر، وبَيّن لهم غلطهم أو مغالطتهم، ثم بالأمر بإقامة اللَّه شهيدًا بينه وبينهم، ثم بتهديدهم بعذاب الآخرة، ثم بتمثيل حالهم مع رسولهم بحال فرعون وقومه مع موسى، وما عُجل لهم من عذاب الدنيا بالاستئصال، ثم بكشف شبهتهم في تنجيم القرآن؛ أعقب ذلك بتفويض النظر في ترجيح الإيمان بصدق القرآن وعدم الإيمان بقوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند اللَّه تعالى. فالأمر في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ للتسوية، أي إن شئتم. . ؛ أي: إنما كان إيمانكم بالقرآن وعدمُه سواء؛ لأنه مستغن عن إيمانكم به بإيمان الذين أوتوا العلم من قبل نزوله، فهم أرجح منكم أحلامًا وأفضل مقامًا، وهم الذين أوتوا العلم، فإنهم إذا يسمعونه يؤمنون به ويزيدهم إيمانًا بما في كتبهم من الوعد بالرسول الذي أنزل هذا عليه.

وفي هذا تعريض بأن الذين أعرضوا عن الإيمان بالقرآن جهلة وأهل جاهلية»[3].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٨٨).

(٢) الإسراء: الآية (٨٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٣٢-٢٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان، إذا يُتْلَى عليهم القرآن لأذقانهم يبكون، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعا، يعني خضوعا لأمر اللّه وطاعته، واستكانة له»[(١)].

قال ابن عطية: «هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم وحض لكل من ترسم بالعلم وحصَّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه الرتبة، وحكى الطبري عن التميمي[(٢)] أنه قال: إن من أوتي من العلم ما لم يُبْكه لخليق أن لا يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن اللّه تعالى نعت العلماء، ثم تلا هذه الآية كلها»[(٣)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: خضوعًا لله ﷻ وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ويزيدهم اللّه خشوعًا؛ أي: إيمانًا وتسليمًا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[(٤)]»[(٥)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف اللّه تعالى، أو على معصيته في دين اللّه، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها»[(٦)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بكاء النبي ﷺ

* عن عبد اللّه بن الشخير ﷺ قال: رأيت رسول اللّه ﷺ يصلي وفي صدره أزيز

(١) جامع البيان (١٥/ ١٨١).
(٢) هكذا في أصل تفسير ابن عطية، والصواب: عن عبد الأعلى التيمي، كما في تفسير الطبري (١٥/ ١٨١).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٢).
(٤) محمد: الآية (١٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٦).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢١).

كأزيز الرحى من البكاء ﷺ[1].

★ **غريب الحديث:**

أزيز الرحى: صوتها وجرجرتها.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبدالبر: «واختلف الفقهاء في الأنين في الصلاة، فقال مالك: الأنين لا يقطع الصلاة للمريض، وأكرهه للصحيح، وروى ابن عبدالحكم عن مالك: النشيج والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة، وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الثوري: أكره الأنين للصحيح. وقال الشافعي: إن كان له حروف تسمع وتفهم قطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف اللَّه لم يقطع، وإن كان من وجع قطع. وروي عن أبي يوسف أن صلاته تامة في ذلك كله لأنه لا يخلو مريض ولا ضعيف من الأنين. قال أبو عمر: في حديث هذا الباب مع حديث ابن الشخير دليل على أن البكاء لا يقطع الصلاة، وهذا ما لم يكن كلاما تفهم حروفه، ولم يكن ضعفًا وعبثًا وكان من خشية اللَّه، أو فيما أباحه اللَّه تعالى وجل، وبه التوفيق»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥) وأبو داود (١/ ٥٥٧/ ٩٠٤) والنسائي (١/ ١٨/ ١٢١٣) وصححه ابن حبان (٢/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٦٦٥) وابن خزيمة (٢/ ٥٣/ ٩٠٠) والحاكم (١/ ٢٦٤) ووافقه الذهبي.

(٢) فتح البر (٢/ ٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه -جل وعلا- عباده في هذه الآية الكريمة: أن يدعوه بما شاؤوا من أسمائه، إن شاؤوا قالوا: يا اللَّه، وإن شاؤوا قالوا: يا رحمن، إلى غير ذلك من أسمائه -جل وعلا-.

وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع؛ كقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

وقد بين -جل وعلا- في غير هذا الموضع: أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة للّه ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فرق بين دعائكم له باسم اللّه، أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[6].

---

(١) الإسراء: الآية (١١٠).
(٢) الأعراف: الآية (١٨٠).
(٣) الحشر: الآيات (٢٢-٢٤).
(٤) الفرقان: الآية (٦٠).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨٩).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٢٦).

قال ابن القيم: «أي إنكم إنما تدعون إلها واحدا له الأسماء الحسنى، فأي اسم دعوتموه فإنما دعوتم المسمى بذلك الاسم، فأخبر سبحانه أنه إله واحد، وإن تعددت أسماؤه الحسنى المشتقة من صفاته، ولهذا كانت حسنى، وإلا فلو كانت كما يقول الجاحدون لكماله أسماء محضة فارغة من المعاني ليس لها حقائق لم تكن حسنى، ولكانت أسماء الموصوفين بالصفات والأفعال أحسن منها، فنزلت الآية على توحيد الذات، وكثرة النعوت والصفات»[١].

قال ابن عطية: «أي وله سائر الأسماء الحسنى، أي التي تقتضي أفضل الأوصاف وهي بتوقيف، لا يصح وضع اسم اللَّه بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الرحمة

* عن جرير بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يرحم اللَّه من لا يرحم الناس**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «ومن الرحمة واجبة؛ وهي كف الأذى عن المسلمين وإغاثة الملهوف، وفك العاني، وإحياء المضطر، واستنقاذ الغريق، والواقع في هلكته وتسميته.

ومن ذلك: سد خلة الضعفاء والفقراء من الواجبات، فهذا كله من لم يرد حق اللَّه فيه عاقبه اللَّه، ومنعه رحمته إذا أنفذ عليه وعيده، وإن شاء عفا عنه، وسمح له بفضل رحمته وسعتها»[٤].

وفيه أن الرحمة من صفات اللَّه وأنه سبحانه من أسمائه الرحمن.

وانظر تفسير سورة الفاتحة.

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٣٨). (٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤٩٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٨)، والبخاري (١٣/ ٤٤٣/ ٧٣٧٦)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩/ ٢٣١٩)، والترمذي (٤/ ٢٨٤/ ١٩٢٢).

(٤) الإكمال (٧/ ٢٨٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[١]

★ غريب الآية:

تُخافت بها: أي: لا تسرها فلا يسمعك من خلفك، وأصل الخفوت السكون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال: الأول: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول اللَّه ﷺ متوار بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون قراءتك. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك.

أسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة، أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم واللفظ لمسلم. .

الثاني: ما رواه مسلم أيضًا عن عائشة في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: «أنزل هذا في الدعاء».

الثالث: قال ابن سيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهدهم فنزلت الآية في ذلك.

قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: من السنة أن تخفي التشهد[٢]، ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما روي عن ابن سيرين أيضًا أن أبا بكر رضي الله عنه كان يسر قراءته، وكان عمر يجهر بها، فقيل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه.

---

(١) الإسراء: الآية (١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٦٠٢/ ٩٨٦) والترمذي (٢/ ٨٤-٨٥/ ٢٩١) وصححه ابن خزيمة (١/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٧٠٦) والحاكم (١/ ٢٦٧) ووافقه الذهبي.

وقال عمر: أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفع قليلا، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا، ذكره الطبري وغيره.

الخامس: ما روي عن ابن عباس أيضًا أن معناها: ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل، ذكره يحيى بن سلام والزهراوي.

فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخير في الجهر والسر، في الليل والنهار، وكذلك روي عن النبي ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعًا.

وأما الفرائض فحكمها في القراءة معلوم ليلًا ونهارًا. وقول سادس، قال الحسن: يقول الله لا ترائي بصلاتك تحسنها في العلانية وتسيئها في السر.

وقال ابن عباس: لا تصل مرائيًا للناس ولا تدعها مخافة الناس»[1].

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ ولكن التمس بين الجهر والمخافتة طريقا إلى أن تسمع أصحابك، ولا يسمعه المشركون فيؤذوك»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣ و٢١٥)، والبخاري (٨/ ٥١٦/ ٤٧٢٢)، ومسلم (١/ ٣٢٩/ ٤٤٦)، والترمذي (٥/ ٢٨٧/ ٣١٤٦)، والنسائي (٢/ ٥١٩-٥٢٠/ ١٠١٠).

★ **فوائد الحديث:**

قوله « ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك»؛ **قال ابن حجر**: «أي: لا تعلن بقراءة القرآن إعلانًا شديدًا، فيسمعك المشركون فيؤذونك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تخفض صوتك حتى لا تسمع أذنيك، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا وسطًا»[١].

* عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أنزلت في الدعاء[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قولها «**أنزل ذلك في الدعاء**» **قال ابن حجر**: «هكذا أطلقت عائشة، وهو أعم من أن يكون ذلك داخل الصلاة أو خارجها، وقد أخرجه الطبري وابن خزيمة والعمري والحاكم من طريق حفص بن غياث عن هشام، فزاد في الحديث: «**في التشهد**» ومن طريق عبد الله بن شداد قال: كان أعرابي من بني تميم إذا سلم النبي ﷺ قال: «**اللهم ارزقنا مالًا وولدًا**»[٣]، ورجح الطبري حديث ابن عباس قال: لأنه أصح مخرجا، ثم أسند عن عطاء قال: يقول قوم إنها في الصلاة، وقوم إنها في الدعاء، وقد جاء عن ابن عباس نحو تأويل عائشة، أخرجه الطبري من طريق أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في الدعاء، ومن وجه آخر عن ابن عباس مثله، ومن طريق عطاء ومجاهد وسعيد ومكحول مثله.

ورجح النووي وغيره قول ابن عباس كما رجحه الطبري، لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة، وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء، فنزلت.

وجاء عن أهل التفسير في ذلك أقوال أخر؛ منها: ما روى سعيد بن منصور من طريق صحابي لم يسم رفعه في هذه الآية: «**لا ترفع صوتك في دعائك فتذكر ذنوبك فتعير بها**». ومنها: ما روى الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: لا تصل مراءاة للناس، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تتركها

---

(١) الفتح (٨/ ٥١٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٥١٦/ ٤٧٢٣) و(١١/ ١٥٨/ ٦٣٢٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٤١).

مخافة منهم، ومن طرق عن الحسن البصري نحوه.

وقال الطبري: لولا أننا لا نستجيز مخالفة أهل التفسير فيما جاء عنهم لاحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك نهارا، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، أي ليلا، وكان ذلك وجها لا يبعد من الصحة. انتهى.

وقد أثبته بعض المتأخرين قولًا، وقيل: الآية في الدعاء، وهي منسوخة بقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٥).

(٢) الفتح (٨/ ٥١٧).

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه ﷺ؛ لأن أمر القدوة أمر لاتباعه كما قدمنا، أن يقولوا: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ﴾ أي كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبينًا أنه منزه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، ﷻ عن ذلك كله علوًا كبيرًا.

فبين تنزهه عن الولد والصاحبة في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، إلى آخر السورة، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[2]، وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[4].. الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبين في مواضع أخر: أنه لا شريك له في ملكه؛ أي: ولا في عبادته. كقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[5]، وقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[6]، وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[7]، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[8]، الآية، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

---

(١) الإخلاص: الآية (١).
(٢) الجن: الآية (٣).
(٣) الأنعام: الآية (١٠١).
(٤) مريم: الآيات (٨٨-٩٢).
(٥) سبأ: الآية (٢٢).
(٦) غافر: الآية (١٦).
(٧) الملك: الآية (١).
(٨) آل عمران: الآية (٢٦).

ومعنى قوله في هذه الآية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾، يعني أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعز به؛ لأنه هو العزيز القهار، الذي كل شيء تحت قهره وقدرته، كما بينه في مواضع كثيرة كقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، والعزيز: الغالب. وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[3]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾؛ أي: عظمه تعظيمًا شديدًا. ويظهر تعظيم اللَّه في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه، والمسارعة إلى كل ما يرضيه: كقوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾[4]، ونحوها من الآيات، والعلم عند اللَّه تعالى»[5].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيّه محمد: وقل يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيكون مربوبًا لا ربًّا؛ لأن ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفردًا بالمُلك والسلطان ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول: ولم يكن له حليف حالفه من الذّل الذي به؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره، فذليل مهين، ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر إلها يطاع ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ يقول: وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل، وأطعه فيما أمرك ونهاك»[6].

قال القرطبي: «هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذًا: عزير وعيسى والملائكة ذرية اللَّه سبحانه، تعالى اللَّه عن أقوالهم! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأنه واحد لا شريك له في ملكه ولا في عبادته.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى لم يحالف أحدًا ولا ابتغى نصر أحد؛ أي: لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعًا.

وقال الكلبي: لم يكن له ولي من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذل الناس، ردًّا لقولهم: نحن أبناء اللَّه وأحباؤه.

---

(١) يوسف: الآية (٢١).
(٢) البقرة: الآية (٢٢٠).
(٣) الأنعام: الآية (١٨).
(٤) البقرة: الآية (١٨٥).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١٨٩-١٩٠).
(٦) جامع البيان (١٥/ ١٨٨-١٨٩).

وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: لم يذل فيحتاج إلى ولي ولا ناصر لعزته وكبريائه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه عظمة تامة. ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر؛ أي: صفه بأنه أكبر من كل شيء»[1].

* * *

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٢٣).

فهرس الموضوعات

سورة الإسراء

* * *